

الظاهر بيبرس

الجزء الثانى

دار المعارف

الظاهر بيبرس

القصص الشعبى

الظاهر بيبرس

الجزء الثانى

حسن محمد جوهر
محمد أحمد برانق   أمين أحمد العطار



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

جمال الدين شيحة

١

جلس أيبك فى بيته ، واستدعى القاضى إليه ليلا وأخذ يسبه ويشتمه ويلومه ويقول له : كنت السبب فى ضياع أموالى ونكدى ، ومن الواجب أن أقتلك وأقتل نفسى من بعدك يا أشأم الناس طلعة ، وأفشلهم حيلة ، وأخيبهم وسيلة ، فتلقى القاضى هذا القول بصبر وجلد ولاطفه وصانعه وقال : لا تعجل فالعاقبة خير وهى لك ، وسيقتل بيبرس وتأخذ جميع ما يملك . وقد خطر ببالى الآن حيلة ستقضى على بيبرس ولا منجاة له منها . وأخذه إلى البستان وركب عجلة الساقية وقال له أدرها ، وكتب كتاباً جاء فيه : الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، من أمير المؤمنين وارث النبيين وخادم الفقراء والمساكين ، إذا قرأت كتابى هذا فضع نفسك فى الحديد الذى مع تابعنا فراجو ، وسلم نفسك إليه وسر معه إلينا ؛ لأن عليك قضية فى الديوان ونريد تحقيقها ، فإن كنت منها بريئاً فلا بأس عليك وإن لم تكن بريئاً فإما سامحناك وإما عاقبناك بما تقضى به الشريعة الإسلامية ، والحذر من التأخير والمخالفة والسلام . ثم قال لأيبك : أرسل هذا الكتاب إلى بيبرس مع ابن اختك فراجو ، الذى كان محتسباً بمصر وأعطه أغلالا وقيوداً من حديد ، ولكن انتظر حتى نختم الكتاب بخاتم الملك ، فقال أيبك : وأين خاتم الملك ؟ فقال : سأحضره إليك حالا ، ولكن

أريد منك شيئاً ، هو أن تأتيني بصائغ غريب عن هذا البلد ليصنع خاتماً كخاتم الملك ، فأحضر له صائغاً من مصر القديمة ايلا وقال له : اسمع كلام القاضي واقض له ما يشاء ، فقال : سمعاً وطاعة . وقال القاضي للصائغ : اعلم يا ولدى أنك ضيف فى بلدنا وعلينا إكرامك ، ثم ناوله كيساً من الذهب وقال : هذا هدية منى إليك ، واعلم يا ولدى أنى وقعت فى ورطة خطيرة لا جزاء لى فيها إلا الموت : ونجاتى على يديك . وذلك أن بعض الأعداء سرقوا خاتم الملك الصالح نجم الدين أيوب وقد اتهمنى به ، وأريد منك أن تصنع لى خاتماً مثله وعليه تاريخه من يوم حكمه ، وسأحتال فى وضعه مكانه ، ولك عند الله جزيل الثواب وعندى ما تشاء من الأموال ، ففرح الصائغ وصنع له ما أراد ، ولما أحضره وجده كأنه خاتم الملك . فوضع كيساً من الذهب بين يديه ، وقال : أريد منك أن تكتم سرى وتعاهدنى على ذلك وتأكل من طعامى ، ثم أمر منصوراً أن يحضر الطعام المسموم الذى كان قد أعده من قبل بإشراف القاضى . ولما أكل الرجل منه فاضت روحه فى الحال ، فأمر بإلقائه فى جب كان فى الدار ، ثم ختم به الكتاب . وأراد القاضى أن يحفظ الخاتم عنده ليستعمله متى شاء فقال أيبك : لا بد من كسره حتى لا يشعر به أحد وحتى لا يكون سبباً فى هلاكنا وكسروا الخاتم ، وأحضر أيبك ابن أخته فراجو وقال له : سر بهذا الكتاب إلى بيبرس فى الغربية فإذا وضع نفسه فى القيود والأغلال وسلمك نفسه فسر به إلينا ، وفى منتصف الطريق اقتله وأخف جثته ، ثم أقبل علينا حاملا بشرى وفاته .

أخذ فراجو الكتاب وسافر به إلى المحلة . فلما دخل على بيبرس لقيه لقاء الأصحاب والأحباب . وطلب إليه أن يجلس ليستريح ويحييه ، فقال : لا أستطيع المكث هنا ، ولا أجلس إلا بمقدار ما تقرأ كتاب الملك إليك ، فخذه واقرأه ، ونفذ ما أمرك به سريعاً . فلما قرأه جعل يفحصه ويقلبه وهو فى عجب من أمره . وزاد عجبه أنه اعتقد حسب رأيه وزعمه أن الخط خط الملك ، وأن الخاتم خاتم الملك . فقال : سمعاً وطاعة يا سيدى . وما أبطئ عليك إلا بمقدار ما تستريح وتأكل زادنا وطعامنا . ولكن الشك لا يزال يخامره . ويأكل فى صدره ، فذهب إلى عثمان وأفضى إليه بأمره هذا وناوله الكتاب ليقرأه ويبدى فيه رأيه . فقال عثمان : هذا الكتاب زور وبهتان ، والملك منه براء . وإن أطعتنى فاقتل فراجو هذا حامله . فقال بيبرس : ذلك أمر الملك ولن أعصيه أبداً ، فقال عثمان ، ولن أجعلك تسلم نفسك إلى عدوك هذا أبداً . وأرى أن آخذ كتاب الملك هذا وأسافر إليه لأتبين منه الخبر ، ثم أرجع إليك على جناح السرعة . وما عليك إلا أن تمهل ذلك الكذاب الغادر حتى أعود وسترانى صادق الرأى ، لم أجاوز فيه الصواب .

أخذ الأمير يصانع فراجو ويلاطفه ويعده ويمنيه بالسير معه . وعثمان فى طريقه إلى الملك كأنه الريح ، ودخل على شاهين ففرح بلقائه وقال : خيراً يا عثمان . فقال : ما أبقيتم خيراً نطمع فيه ، فخذ هذا الكتاب واقرأه ، فلما قرأه دهش واضطرب وقال : لا ندرى شيئاً من هذا فحدثنى

يا عثمان ، ما الخبر ؟ فقص عليه قصة فراجو ، وقال : ولا يزال بيبرس يصانعه ويمهله حتى أعود إليه . فقال : قم بنا يا عثمان لنختبر الملك ، فقد يكون كتب هذا سراً ، على غير علم منا ، وذهب شاهين وعثمان إلى بيت الملك فطرقا باب السر ، فقيل من بالباب ؟ فقال : الوزير شاهين ، ففتح له الباب ، ومشى هو وعثمان إلى المكان الذى يبيت فيه الملك ، فوقفا من خلفه يتسمعان ليعرفا : هل نام الملك أو لا يزال يقظاً ؟ فسمعوه يقول : اللهم إنى أمسيت أشهدك وأشهد ملائكتك وجميع خلقك أنك أنت الله لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمداً عبدك ورسولك ، ثم قال : جزاهم الله بما فعلوا ، والله العظيم ما كتبت ولا أمرت ولا أرسلت ، ولا أعلم شيئاً من ذلك أبداً ، وقد وهبت فراجو لبيبرس مالا ودماً ، لا يطلبه أحد بديته ، والمؤمن عند قوله ، إن قال صدق ، وإن قيل صدّق ، وإن الأخ لا يخون ، نويت أصلى العشاء لله العظيم الله أكبر ، فقال شاهين : ارجع بنا يا عثمان ، فالقضية بانت ولا تحتاج بعد الذى سمعناه إلى سؤال . فقد سمعنا من الملك كل شىء ، وما رآنا ولا أخبرناه بوجودنا ، فارجع إلى سيدك ومره أن يقتل فراجو ، وهذا كتاب منى إليه بذلك ، وكتب الكتاب وناوله عثمان وودعه ، ليسرع بالعودة إلى سيده ، وركب عثمان متن الريح ، وهو يطوى الأرض طياً على دابته ، حتى نفقت أمام المحلة ، فتركها ودخل على بيبرس فلما رآه بيبرس حزيناً ظن الكتاب صدقاً ، فبادره بسؤاله . ماذا وجدت

يا عثمان ؟ فقال : خذ كتابك هذا ودعنى فى حزنى ، فقرأ بيبرس الكتاب وإذا فيه :

إن الملك ما كتب ولا أمر ولا أرسل أحداً ، وما هذا الكتاب إلا زور وبهتان . وقد وهب لك الملك فراجو مالا ودماً ، لا يطلب منك أحد ديته ، ففرح بيبرس والتفت إلى عثمان وقال : وما يحزنك يا عثمان ، فقال : نفقت مطيتى على باب المحلة ، فقال : سأشترى لك غيرها وتعال معى . ودخل على فراجو وقال : من الذى أرسلك إلينا ؟ فقال : ألم تقرأ الكتاب ؟ أرسلنى الملك فقم الآن معى ، فقال بيبرس : يا نذل الرجال ، يا كذاب يا خائن ، بلغ بك الغدر والجرأة إلى أن تكذب على الملوك ، وجذبه جذبة قوية ، ورماه على الأرض ، وجعل يضربه بالسوط حتى أشرف على الهلاك ، ثم قال : خذه يا عثمان وأكرمه ، وفى الغد نصلح أمره ، فأخذه عثمان إلى الإصطبل ، وأمر السواس أن يمسكوه وجعل يضربه « بالرزة » حتى مات .

ودخل بيبرس على عثمان فوجد فراجو قتيلا بين يديه ، فقال : لم قتلته يا عثمان ؟ فقال : ضربته فمات ، وما أمرته بالموت ، فقال : وماذا نفعل الآن يا عثمان ؟ فقال : اتركه لى وامض إلى شأنك ، فإنى سأحرق عظمه لأنه قريب القاضى ، فقال : أتريد أن تسلخ جلده وتحشوه تبناً وتخرج منه رجلا من رجل ؟ فقال : نعم ، فسلخه الأمير وحشاه تبناً وقال له عثمان : اتركه لى الآن ، واذهب إلى ما تريد .

ربط عثمان فراجو على جواده الذى حمله إلى المحلة ، ثم ركب عثمان وسار به إلى مصر ، وأمام بيت الوزير أيبك رماه على الأرض ، وترك جواده بجواره ، ورجع عثمان . وكان القاضى فى بيت أيبك تلك الليلة يقول له : إن بيبرس قد مات ، وانقضت أيامه ، وسيكون ماله لك يا أيبك ، فافرح فقد أشرق نجم سعدك ، وبينما هما غارقان فى أحلام من الأمانى حك الجواد رأسه بالباب ليفتح ، لأنه مغلق والجواد معتاد أن يدخله . ثم حكه مرة ثانية حكاً شديداً ، فقال أيبك : من بالباب ؟ فقال القاضى : حبيب وبشير ، ولا بد أن يكون فراجو . فإن قلبى يحدثنى بذلك . فقم بنا نلقاه معاً ، فلما فتح أيبك الباب دخل الجواد فقال القاضى : أما قلت لك إنه فراجو ؟ أهلا وسهلا ، ماذا فعلت ؟ فما أجابه ، فقال : تعال يا أيبك أيقظه فإن السفر أتعبه فنزل عن الجواد ونام ، فجاء أيبك فوجده تبناً فى جلد ورأسه مربوط به ، فقال : لعن الله القاضى ولعن مشورته . لقد سعى فى قتل ابن أختى ، تعال يا سيدى القاضى وانظر نتيجة تدبيرك ، فكاد يصعق ، ولكنه أظهر الجلد وقال : سنضعه فى تابوت وندخل به الديوان ونقول إن بيبرس قتل ابن أخت أيبك . ونأخذ معنا أربعة شهود ، وبذلك يقتل فيه . فاستراح أيبك وخفف هذا التدبير حزنه على ابن أخته ، وقال : عسى أن يتحقق غرضنا فى هذه المرة .

أخذ الملك مجلسه فى ديوانه وقال : الملك يفنى ولا يبقى إلا وجه الله ،

يا طامعاً فى الدنيا ارجع واخش الإله . وانظر فى الأمور تر الملك والعزة لله . يا شاهين . الجزاء عند الله ، هذا اليوم سعيد، وإذا جماعة يحملون تابوتاً ويدخلون الديوان قائلين : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فقال الملك : ما هذا ؟ فقالوا : مات فراجو ابن أخت أيبك ، فقال : كل شىء هالك إلا وجهه ، ولم لم تدفنوه ؟ فقام أيبك غاضباً وقال : هذا لا يرضاه الله ولا رسوله ، كيف يقتل بيبرس ابن أختى ولا يخشى الله ولا أحداً من الناس ؟ فقال الملك : أعندك بينة ؟ فقال : نعم ، وتقدم الشهود الأربعة وشهدوا أن بيبرس قتل فراجو ابن أخت الوزير أيبك ، وقال القاضى : يحسن أن نهاجر من هذه المدينة ، فقد عاد الإسلام فيها غريباً كما بدأ ، وكم قلت لكم إن هذا الغلام ما جاء إلا ليبطل الإسلام ويمحو من البلاد أثره ، لقد شهد عليه أربعة شهود ووجب القصاص ولا بد من قتله ، وقد وهبت لذلك مائة كيس ومائة جواد ومائة مملوك ، وعلى الوزير أيبك مثلها . فقال أيبك : كيف ذلك ؟ أيقتل ابن أختى ، وأغرم من مالى ؟ فقال الملك : اليد لليد قوة ومعونة ، وهذا ابن أختك ، أتعطى مالا كالقاضى أم لا ؟ فقال : أعطى ، ولما حضر المال قال الملك : من يأتينا ببيبرس ؟ وإذا بعثمان يدخل الديوان . . . فقال الملك : أهلا وسهلا ، فقال : ماذا فعله الأمير بيبرس من الذنوب حتى ترسل إليه هذا الكتاب ؟ فقال الملك : وعزة الله ما كتبت ولا أمرت ولا أرسلت ، فقال عثمان : وهذا كتابك فخذه واقرأه . فأخذه الملك وناوله إلى القاضى وقال : اقرأه وأسمع

الجالسين . فلما قرأه قال القاضى منكراً لهذا الفعل الذميم : هذا شىء عظيم يا أمير المؤمنين ، فقال الملك : وما رأيك فى هذا الذى كذب على الملك وكتب باسمه كتاباً زوراً وبهتاناً؟ فقال : إنه خائن والخائن لا حظ له فى الإسلام ، فقال الملك : وإن قلبى يحدثنى أنه كافر ، فاكشف يا شاهين عن ذلك فيه ، فذهب الوزير إليه وما كاد ينظره حتّى استعاذ بالله وقال : إنه كافر يا أمير المؤمنين . فقال الملك : يا أيبك ، كيف يكون ابن أختك كافراً ؟ حينئذ ديوانى كله منافقون ، يظهرون الإسلام ويخفون الكفر ، فتشوا العسكر والديوان ، فاضطرب القاضى وخاف أن يفتشوه ، فذهب إلى المرحاض متعللا به حتى ينتهوا من حركة التفتيش ، ثم رجع ، فسأله الملك : أين كنت ؟ فقال : كنت أقضى حاجة فى المرحاض ، وانتهزت فرصة التفتيش حتّى لا أرى مثل هذه الفضائح ، فإن جسمى يقشعر إن رأيت ذلك . فقال : سبحان من يعلم بك ، اجلس ، نحن أحرار نكتم الأسرار . وأمر الملك أن يمدوا أيبك ، فمدوه وضربه ثلاث ضربات « بضفيرة الخوص » وقال إن اشتريت عبداً أو مملوكاً أو جارية فتأكد من إسلامهم قبل أن تشتريهم ، فقال : سمعاً وطاعة . ويقال إن قدمه دميت وما زالت بها العلة حتّى مات ، ثم قال لعثمان : خذ الأكياس والمماليك والخيل هدية منى إلى سيدك بيبرس وبلغه أن يولى بعض غلمانه على الغربية ويعود إلينا فقد فرغت سنته . فلما رجع إليه عثمان ، وأطلعه على ما جرى وبلغه أمر الملك فرح وحمد الله كثيراً وأقام والياً على المحلة ورجع هو وعثمان إلى داره .

٢

وفى الصباح من ليلة قدومهم جاء إلى الملك فى ديوانه رسول من حلب يحمل كتاباً من واليها إليه ، فأخذه وأمر الوزير أن يقرأه فإذا هو فيه : من والى حلب إلى الملك الصالح ، بينما نحن فى المدينة إذ رأينا غباراً سد الأفق وهو زاحف علينا ، فأرسلنا من يتبينه فقال : إن « القان هلاوون بن متكتمر » قادم لغزو حلب فى ثمانين ألف فارس ، فأغلقنا أبواب المدينة ، وأطلقنا المدافع ، فنزلوا حول المدينة وحاصرونا حتى ضاقت بنا الحال ، فأرسلت هذا الكتاب لتدركنا وترسل من ينقذنا والسلام ، فقال الملك :

وماذا ترى يا شاهين ؟ فقال : الأمر لمولاى ، فقال : وماذا ترى أنت أيها القاضى ؟ فقال وهو مغتبط فرح : يا مولاى : إن هلاوون رجل جبار وعنده من الرجال ما لا يحصى عددهم ، ولا يدفعهم عنا إلا الغلام المحفوظ المنصور المؤيد من الله الأمير بيبرس فقال : ومن يأتينا به من المحلة ؟ وإذا الأمير بيبرس على باب الديوان . فلما رآه الملك قال : يا شاهين . انظر إلى ذلك التوفيق الذى منّ علينا به الرحمن الرحيم . ودعا للأمير بيبرس فقال : اللهم عمر بك الأرض والبلاد ، اللهم أهلك عدوك ، اللهم ارفع سعدك ، ثم قال للوزير : اقرأ عليه الكتاب الذى جاءنا من حلب ، فلما قرأه قال الملك : يا بيبرس : إن القاضى رأى أنه لن يكشف عنا هذه الغمة إلا أنت ، فماذا أنت قائل ؟ فقال : أنا لها إن أذن لى الملك ،

فقال : وقد أذنت لك ، والتفت إلى القاضي وقال : إن بيبرس فى حاجة إلى المال ، ليستعين به فى مهمته ، فقال : وهبت له خمسين كيساً وخمسين مملوكاً وخمسين جواداً ، ومثلها من الوزير أيبك ، فقال أيبك : وما شأن أيبك ؟ فقال الملك : يد ليد قوة ومعونة ، فقال : لا مانع أيها الملك ، ثم أحضروا المال والمماليك ، وقال القاضى : وأرى أن يكون الوزير أيبك مع بيبرس ليساعده ، فقال الملك : أتذهب يا أيبك ؟ فقال : لى الشرف أن أصحبه فى عمل خطير كهذا . والله أعلم بما تكنه الصدور . وجعل الملك الأمير بيبرس رئيساً لعسكره وله الأمر والنهى ، والوزير أيبك تحت أمره ونهيه ، وعرف الناس ذلك فدعوا للأمير بالنصر والتأييد ، وتمنوا لأيبك داهية تمحوه من الوجود ، وخرج كل منهما يستعد للسفر .

واجتمع القاضى وأيبك فى تلك الليلة ، فقال أيبك : لم أرسلتنى مع خصمى وعدوى ؟ فقال : أردت بذلك أن تظفر به ليلا أو نهاراً على غفلة منه فتريق دمه ، ونستريح منه ، وسوف أدبر له مكيدة غير هذه إن أفلت من يدك ولم تقدر عليه ، فلا تتعب نفسك فى الاحتيال لقتله ، فقال : حسناً رأيت ، وجهز كل منهما عسكره ، وكان عجب بيبرس عظيماً إذ رأى أيبك قد أخذ معه أربعة مدافع ، وجعل يسأل نفسه : لأى شيء أخذ أيبك معه هذه المدافع ، وبينما هو يفكر فى ذلك إذ جاءه عثمان فقال : جئتك بأمر غريب ما سمعت به ، فقال : وما ذاك يا عثمان فقال : شرد منى جوادك فى بيت ابن باديس السبكى فتبعته حتى وقف ،

وجعل يحفر برجله اليمنى حيث وقف . فحفرت مكان حفره ، فبان لى غطاء فرفعته ، فوجدت سلماً نازلا فى الأرض ، فخفت أن أنزل فيه وحدى ، فتعال معى لننظر ما هنالك . فذهب معه ونزلا فى السلم وإذا به ينتهى إلى مكان فسيح فيه ثمانمائة مدفع وألف سيف . وفيه من البارود والخوذ وأدوات القتال ما لا يقع تحت حصر ، فسجد بيبرس لله شكراً ، وأخرج ما يحتاج إليه من مدافع وسيوف وغيرها . وترك الباقى للانتفاع به عند الحاجة .

وفى الصباح سار بيبرس وأيبك إلى العدلية فنزلوا فيها ورتب بيبرس جيشه ووزع عليه الأسلحة ولم يعط أيبك منها شيئاً فاغتاظ لذلك غيظاً شديداً ، ولكنه لم يستطع أن يتكلم ، ولما جاء وقت الظهيرة ، وأكل العسكر غداءهم ، وكان بيبرس سخيًّا على رجاله فأحضر لهم طعاماً فاخراً هنئوا بأكله وشكروا ، على حين كان أيبك بخيلا على رجاله فغضبوا وتركوه ، وانضموا إلى رجال بيبرس ، معلنين أنهم لبيبرس لحماً ودماً . فاغتم أيبك ورجع إلى الملك وقال إن بيبرس أخذ رجالى منى غصباً ، فأحضر الملك بيبرس وسأله عن ذلك فقال : يا مولاى : اسأل المماليك أنفسهم . فأحضرهم الملك وسألهم فقالوا : لا نفارق بيبرس ، وإن غصبتنا أن نكون مع أيبك قتلناه ثم قتلنا أنفسنا ، فقال الملك : يا أيبك : الجيش كله وحدة لا تتجزأ ، فلا يضيرك أن يكون رجالك مع رجال بيبرس ، وبعد أن تعودوا إن شاء الله مظفرين ننظر فى هذا الأمر . ولأجل أن تكون مستريحاً

فخذ معك الأمير قلاوون وأتباعه الخمسة والثلاثين أميراً ، فقال : سمعاً وطاعة ، وفرح لذلك ، لأنه يعلم أن قلاوون يبغض بيبرس بغضاً عظيماً ، ثم ساروا حتى وصلوا إلى الجيش المعسكر فى العدلية ، فقال لهم بيبرس : اختاروا لأنفسكم ما يرضيكم ويعجبكم : إما أن تسيروا قدامنا ونحن من ورائكم ، وإما سرنا قدامكم وأنتم من ورائنا؟ فقالوا نحن نسير قدامك حتى نكون لك الفداء إن دهمتنا ملمة أو كارثة ، وكانوا يضمرون غير ما يظهرون وساروا قدام الأمير وجيشه وكانت المسافة بينهما مسيرة يوم كامل.

أما القاضى فإنه بعث كتاباً إلى فرنجيل ملك العريش قال فيه : من عالم الملة المسيحية إلى ولدى فرنجيل ، اعلم أنى أرسلت إليك بيبرس الذى قتل ابنك أول دخوله مصر ، وسيمر بأرضك وقلعتك ، وقد أخبرنى المسيح أن قتله على يديك ، فإذا وصل كتابى هذا إليك فترصده فى الطريق ثم باغته واقتله ، وانهب أمواله والثواب من المسيح ، ففرح بذلك وقال لرسوله : خذ هذا الكتاب إلى سيدى القاضى وبلغه أنى فاعل ما أراده . فلما قرأ القاضى جواب فرنجيل وعلم أنه سينفذ ما أشار به فرح فرحاً عظيماً وارتقب الخبر السار يأتيه .

كمن فرنجيل بخمسة آلاف رجل فى الطريق مترصداً بيبرس وقدومه ، وإذا بغبار ينكشف عن أيبك وقلاوون ومن معهما . وما علموا ما خبئ لهم ، وما قربوا من قلعة العريش حتى انطلق جيش فرنجيل من مكامنه ، وهجموا عليهم من كل جانب وأذاقوهم لباس الهزيمة وأمسكوهم بأيديهم

فقال أيبك لفرنجيل : نحن جماعة ليس بيننا وبينك بغض ولا عداوة ولا ثأر ولا دم ، فلم فعلت بنا ما فعلت ؟ فقال : وأين بيبرس فيكم ؟ فقالوا : ليس معنا ، ولا رضينا بصحبته لأنه من أشد أعدائنا ، وإنه لآت على آثارنا فدونك وإياه ، فأمر فرنجيل بنهب أموالهم ، وضربهم ضرباً وجيعاً ، وردهم على أعقابهم أذلاء خائبين ، فارتدوا سراعاً إلى بيبرس ، وعجب أن رآهم على هذه الحالة من البؤس والمهانة ، وظهرت عليه أمارات الغضب من أجلهم ، وقال : من فعل بكم هذا ؟ فقالوا : باغتنا ونحن سائرون فرنجيل ملك العريش وفعل بنا ما تراه ، وذلك أنه سألنا : هل عندكم خبر عن بيبرس ؟ فقلنا إنه فى صحة وعافية ، ونحن خدمه وأتباعه ، فنهب أموالنا ، وضربنا ضرباً وجيعاً وقال : اذهبوا إلى أميركم بيبرس وبلغوه أنى فرنجيل ملك العريش وقد فعلت بكم ما فعلت ، وما كدنا نفلت من أيديهم حتى رجعنا إليك مسرعين ، فأقسم بيبرس ألا يبرح العريش حتى يأخذ بثأرهم ويرد إليهم أموالهم ويذيق ملكها من النكال ما لم يخطر له على بال . وسار حتى أشرف على قلعة فرنجيل فنزل بجيشه وحاصرها حصاراً قاسياً، وجمع فرنجيل بطارقته وذوى مشورته وقرأ عليهم كتاب القاضى عالم الملة المسيحية ، ثم قال : ولولا أن السيد المسيح وعد بنصرى عليه وقتله ما تعرضت لهذا الغلام ، فقالوا : لا بد من القتال ونحن طوع أمرك ، ما دمنا موعودين بالنصر من السيد المسيح . فجعلوا يستعدون ويجمعون الجموع إلى الصباح .

بدأت المعركة فى ضحوة النهار واستمرت على أشدها إلى ما بعد الزوال وفرنجيل لا يرى إلا رجالا تحصدها سيوف المسلمين ومدافعهم ، ولما خشى على رجاله الفناء ولى مدبراً مهزوماً ، وتبعه رجاله خائبين ، ولكن الأمير لا يزال يتعقبهم حتى دخلوا قلعتهم ، فجمع فرنجيل خواصه وقال لهم : قد رأيتم ما حل بنا ، وما فقدناه من الألوف من رجالنا ، وأرى أن نرد لهم ما أخذناه ليرحلوا عنا ، ما دمنا لا نقدر عليهم ، فقالوا : ولكن عالم المسيحية أمرك بالقتال ووعدك على لسان السيد المسيح بالنصر والفوز . فقال : دعونا من هذا الكلام ، فقد قاتلنا بقدر ما نستطيع ، وهذا غلام ما قدرت عليه وهو صغير وحيد ، فكيف أطيقه وهو كبير وفى جيش كبير ، فكيف أطيع بعد ذلك عالم الملة وألقى بنفسى وجيشى إلى التهلكة ، فضعفت بهذا القول عزائمهم وقالوا : افعل ما تراه فنحن طوع أمرك ، ثم أحضر جميع ما نهبه من الأموال ، وبعث بها مع أربعة من رجاله إلى بيبرس ، فقالوا له : خذ أموالكم وارحل عنا ، فدعا بيبرس أيبك وقلاوون وقال لهم خذوا أموالكم وجميع ما نهبه فرنجيل منكم ، ولم يتحدث إليهم فى امتناعهم وعدم اشتراكهم فى هذه المعركة ، ثم قال بيبرس للأربعة : بلغوا ملككم فرنجيل أنى لن أرحل حتى يبعث إلىّ خزانة مال ، فنما بلغ فرنجيل ذلك أمرهم أن يعطوه خزانة مال ، فأخذها بيبرس ومضى إلى الشام . ولما كان على مقربة منه قال بيبرس لأيبك وقلاوون : أتحبون أن تسيروا أمامنا أم خلفنا ، فقالوا : ما نحن إلا من أتباعك وخدمك ،



بيبرس يحارب الصليبيين

ونحن من خلفك ، ولا ينبغى لنا أن نقدمك ونسير أمامك فأنت كبيرنا وصاحب الأمر فينا، فسار إليها يقدمهم ، ولما عرف أن المدينة أغلقت أبوابها نزل بجنده أمامها .

وصل إلى عيسى الناصر حاكم دمشق الشام أن بيبرس قادم ، وكان يكرهه ولا يحبه ، فأمر أن تغلق أبواب المدينة ولا تفتح لأحد إلا بإذنه ، وبلغ ذلك السيدة فاطمة أم الأمير بيبرس ، وأن عيسى الناصر أغلق أبواب المدينة فى وجه ابنها ، فلبست حلتها ، وذهبت إلى أبى الخير حارس الباب فى تلك الليلة ورجت منه أن يفتح لها الباب لتسلم على ابنها بيبرس ثم تعود ، وأعطته شيئاً من حطام الدنيا ، فقال لها : متى شئت فاحضرى وأنا أفتح لك الباب ، فرجعت السيدة فاطمة وأعدت خزانة من المال وجاءت ليلاً وفتح لها الباب واستمرت سائرة حتى التقت بابنها فكان لقاء جميلا ، شمل الأم وابنها بالفرح والسرور ، وقالت له : إنى دعوت الله ألا أراك إلا وأنت قائد عظيم ، وقد استجاب الله دعوتى ، وهذه خزانة من عندى ، فخذها واستعن بها على الجهاد فى سبيل الله ، ثم سلمت عليه ورجعت إلى دارها ، وبلغ عيسى الناصر ما فعله أبو الخير حارس الباب من فتحه الباب إلى السيدة فاطمة وأنها ذهبت إلى ابنها وأعطته خزانة مال من عندها ، وكان الذى بلغه ذلك أبا الشر زميل أبى الخير ، فقال عيسى وقد غاظه ذلك الأمر : لنسكت عنه حتى يرحل بيبرس وبعد ذلك نحاسب أبا الخير على فعلته . ثم رحل بيبرس قاصداً

مدينة حلب ، وجاء من بعده إلى دمشق الوزير أيبك ورفيقه قلاوون واجتمعا بعيسى ، فسأله أيبك : هل مر بك اللئيم بيبرس ؟ فقال : نعم . وقد أغلقت أبواب المدينة فى وجهه ولكن السيدة فاطمة احتالت وخرجت إليه وأعطته خزانة من المال ، فقال : إنها امرأة فاجرة ، ولأى شىء تعطى بيبرس ولا تعطينا . هات لنا منها خزانة من المال مثله . فقال : سمعاً وطاعة ، ثم أرسل إليها رسولا قال لها : إن الحاكم عيسى الناصر يأمرك أن تعطى الوزير أيبك خزانة مال كما أعطيت بيبرس ، وهو عنده فى بيته فإن أبيت فاخرجى من المدينة . فغاظها هذا الأمر وأحضرت العلماء وبلغتهم أمر عيسى إليها ، فذهبوا إليه وقالوا : لأى شىء تطلب من السيدة فاطمة مالا إلى الوزير أيبك ، والمال مالها ، وهى حرة فيه ؟ فأرتج عليه ولم يحر جواباً ، ثم قال : ما طلبت منها ذلك إلا على سبيل القرض ، لأن الوزير طلب منى ذلك وليس معى ما يكفيه . فقالوا : إذا كان الأمر كذلك فلا بد له من شروط ثلاثة : أن يكون ذلك برضاها واختيارها ، وأن يكون القرض إلى أجل معلوم تسترده منك فى حينه ، وأن تكتب عليك حجة شرعية بذلك . فقال اكتبوا ما شئتم فقد رضيت ، فكتبوا الحجة وختمها عيسى بخاتمه ، ثم أخذوها ورجعوا إلى السيدة فاطمة وأرسلت إليه خزانة المال ، فأخذها وسلمها إلى أيبك . فأخذها ووزعها على قلاوون ومن معه ثم ارتحلوا ، وهم يظنون أن بيبرس ارتحل وسار أمامهم ، ولكنه كان قد ذهب إلى أولاد إسماعيل فلقيهم وفرحوا به وأقسموا ألا يرحل

حتى يضيموه .

وكانت السيدة فاطمة تعلم ذلك منه حين كانت عنده ، فكتبت بما جرى لها مع عيسى كتاباً وبعثت به رسولا إليه ، فلقيه عثمان وأخذه منه ثم سلمه إلى سيده بيبرس . وعرفا ما فيه ، واتفقا على أن يكتما هذا الأمر إلى حينه . وكان عثمان قد أخبر سليمان الجاموس نقيب أولاد إسماعيل بما فى كتاب السيدة فاطمة قبل أن يسلمه إلى سيده .

وسأل سليمان بيبرس عن أمر الكتاب فقال : كل إنسان بما كسب رهين ، فقال : لا ينبغى لك أن تكرم من لا يستحق إكراماً . ولما جاء الليل نظر سليمان إلى ابنه الفهد نظرة فهم معناها ، فقام لساعته وخرج ولم يعلم أحد إلى أين يتوجه . فلما مضى من الليل نصفه إلا قليلا حضر الفهد ، ووضع بين يديه حقيبة مقفلة ، فقال بيبرس ما هذا ؟ فقال سليمان : عندنا نخلة تثمر فى العام مرتين ، وقد أتيناك بثمرها . وفتحت الحقيبة وإذا به عيسى الناصر حاكم دمشق ، فقال : ولم فعلتم ذلك ؟ فقال سليمان : إن لم يرد الخزانة إلى السيدة فاطمة أرقت دمه . ثم أعطوه دواء ضد البنج فأفاق ، وقال : أين أنا الآن ؟ فقالوا : أنت عندنا يا لئيم ، من أمرك أن تأخذ المال من السيدة فاطمة القوسية ، فقال : لا ذنب لى فى ذلك ، وإنما الذنب ذنب أبيك ومن معه فلعنهم الله ولعن طلعتهم ، فقالوا : ولم أغلقت أبواب المدينة فى وجهه ؟ إنه إن سمع قولنا وأطاعنا جعلناه حاكماً على دمشق وغيرها من البلاد رغم أنفك وأنف غيرك

من الملوك والأمراء ، وإن لم ترد المال فوراً إلى السيدة فاطمة مزقنا لحمك وجعلناك طعاماً للطير . فقال : سمعاً وطاعة ، سأرده إليها فور وصولى . فقال سليمان : ومن يضمنك ؟ فقال الفهد ابنه : ضمانه على الله وعلىّ ، فإنى أحضره إليكم وإن تعلق بأسباب إلى السماء . فقال سليمان : خذه يا ولدى وأوصله إلى مكانه ، وأكرمه وعظم شأنه ، ونظر إليه نظرة فهم مراده منها ، فحمله إلى غابة وجعل يضرب به فيها حتى كاد يموت وأنذره إن لم يرد المال إلى السيدة فاطمة قتله لساعته فى أى مكان يكون فيه ثم أخذه وأرجعه إلى داره .

وفى الصباح أحضر السيدة فاطمة بين يديه وجعل يعتذر لها ويقول : لا تؤاخذينى بما فعلت يا سيدتى ، فإنى كنت أجهل أن من ورائك من يستطيع أن يحميك ويذل من يناوئك ويعاديك ، ثم أعطاها الخزانة ، ولم يأخذ منها الحجة وانصرفت مكرمة محترمة . وفى الحال أرسلت إلى ابنها بيبرس من أخبره أن المال قد رد إليها ففرح بذلك .

٣

شد بيبرس رحاله وسار إلى حلب فأدرك أيبك وقلاوون ومن معهما. وكانوا قد سبقوه إلى حلب ظانين أنه أمامهم ، وأقاموا عندها ثلاثة أيام يأكلون ويشربون . وظنوا أن بيبرس حين لم يجدوه قد هرب فى القفار .

نزل الأمير بيبرس بجيشه وأمرهم أن تدق الطبول إيذاناً بالقتال ، وبرز إليه رجل من الأعداء . فركب الأمير جواده وتقلد سيفه . ونزل إلى حومة المبارزة .

وعند ما أمسى المساء خلا أيبك بقلاوون وقال له : لقد ضقت ذرعاً ببيبرس ، وسوف لا تطمئن نفسى إلا إذا هلك ! وأرى أن نكتب إلى هلاوون رسالة نقول فيها إننا أحرص على قتل بيبرس منه ، فإذا طلع النهار فاهجم برجالك عليه . وسنكون معك نشد أزرك ، ونساعدك على قتله ! وإذا هرب أخذنا عليه مهاربه وقبضنا عليه ؛ وسلمناه له يفعل به ما يشاء !.. وكتبت الرسالة بذلك وختماها بقولهما : واقتل حامل هذه الرسالة ليكون الأمر سراً بيننا وبينك !

خرج الرسول ليلا من معسكر بيبرس فلقيه عثمان ؛ فلما أقبل قبض عليه ، وأخذ منه الرسالة ومضى به إلى بيبرس !

ولما قرأها بيبرس اكفهر وجهه والتفت إلى الرسول وقال له : لقد أراد الله لك الحياة ، فقيض الله لك عثمان للقبض عليك ، فإن أيبك وقلاوون طلبا

من هلاوون فى الرسالة التى تحملها إليه أن يقتلك ليبقى ما فيها بينهما سراً !

فتنفس الرسول الصعداء ، وحمد الله أن نجاه من موت كان محتوماً ، وامتلأ قلبه حقداً على أيبك وقلاوون ، ورجا من الأمير بيبرس أن يكون خادمه الأمين !

ودعا الأمير بيبرس قواد الجيش ما عدا الخائنين ، وقرأ عليهم رسالتهم إلى الأعداء ، فثاروا ثورة عارمة وهموا بقتلهما ، فنهاهم بيبرس عن ذلك مكتفياً بالقبض عليهما وإذاعة جريمتهما بين أتباعهما على أن يعرض أمرهما على الملك الصالح ليرى فيهما رأيه .

واتفقوا على خطة !

وما إن طلع الفجر حتى هجم بيبرس وجيشه على الأعداء الذين كانوا فى سبات عميق يحلمون بانتصارهم بمعونة أيبك وقلاوون !

فلم يشعروا إلا والصيحات تأخذهم من كل صوب والسيوف والمدافع تحصدهم حصداً، فلم يثبتوا إلا دقائق معدودة وولوا الأدبار منهزمين، تاركين قتلاهم وآلافاً من الأسرى ، ومن بينهم هلاوون وبعض قواده، وغنائم وأسلاب لا يحصيها العد !

وكتب بيبرس إلى الملك الصالح بهذا النصر المؤزر ، وبما فعله أيبك وقلاوون ؛ وحملت رسالته حمامة من حاملات الرسائل !

وجاءه من الملك الرد على جناح حمامة التهنئة وبحرمان الخائنين من الغنائم ، وإعطائها جميعها له !

وجمع بيبرس مجلس حربه ومشورته ، وجيء بأيبك وقلاوون مكبلين بالحديد ! فأمر بيبرس بفك قيودهما قائلا : إنى غفرت لهما ذنبهما ، وغسلت إساءتهما لى والله يجزيهما بأفعالهما !

فكبر الجند والقواد وهللوا وقالوا قولة رجل واحد : ما أحلمك وما أكرمك ! وسارع الخائنان إلى تقبيل يد بيبرس مراءاة وخداعاً ، وإن قلبيهما ليتقدان غيظاً وحقداً وجحوداً !

انعقد مجلس الملك الصالح ، وقال الملك :

يا شاهين ، إن المجاهدين فى سبيل الله لهم الجنة فجهز نفسك للسفر معى إلى الشام !

ولحق الملك ومعه شاهين والقاضى وكتيبة من الجند بجيش بيبرس !

٤

وفى ذات مساء جلس أيبك إلى القاضى شاكياً له خيبة أمله فيما دبره وقال : أرأيت أيها القاضى كيف بطل تدبيرنا وكيدنا وافتضحنا وما أفلحنا؟! وكيف حرمنا الملك من المغانم وجعلها إلى بيبرس جميعها ؟! فقال القاضى : اصبر ولا تيأس، وسأكيد لبيبرس كيداً يذهب به كأمس الدابر ، ثم كتب كتاباً وطواه ، وقال لأحد غلمانه : سر بهذا الكتاب إلى قلعة زهير ، وأعطه كتابى هذا ، ثم ارجع إلىّ بما يقوله لك ، وذهب الغلام سرًّا ، ودخل على زهير فى مجلسه المملوء برجاله . وناوله الكتاب ، فلما قرأه قال للغلام: ارجع إلى سيدك وبلغه أنى فاعل ما أمر ، وكان الكتاب كما يلى : « من جوان القرمى ، وعالم الملة المسيحية إلى ولدى زهير ، اعلم أن المسيح كلفنى أن أبلغك بأن تذهب الليلة إلى دمشق ، وتسرق منها بيبرس ، وتسير به فى الطريق إلى حلب ، وفى منتصف هذا الطريق مكان منقطع عن العمران يقال له فم الرسانة وعقبة الصوانة ، فإذا وصلت إليه، فاقطع رأس بيبرس فيه . ثم ارجع من دون أن يشعر بك أحد ، وقد وهب لك المسيح مائة سنة فى عمرك، وعشرين فداناً فى الوادى الأحمر ». وفرح أيبك بذلك . وظن أن بيبرس هالك ونسى أن الله ولى الذين آمنوا ، وأن الذين كفروا أولياؤهم الطاغوت .

ولما جن الليل دخل بيبرس سرادقه لينام ، فجاءه عثمان بن الحبلى وقال له :

قم بنا ننطّ فى الأرض هذه الليلة ، أو نلعب بالكرة ، فقال : دعنى يا عثمان فإنى فى حاجة إلى الراحة والنوم . فتركه عثمان وهو يقول : لولا أن الله لطيف به لهلك ، وقرأ بيبرس ورده ، وصلى فرضه ، ونام متوكلا على ربه ، مسلماً إليه أمره .

قدم زهير فى ثياب رجل مسلم . وعرف سرادق بيبرس ، واختبأ حتى أقبل الظلام ، وهجع الناس ، وسكن الليل ، ثم تسلل إلى سرادق الأمير بيبرس ودخل عليه يسرق الخطى ، فألفاه غارقاً فى نومه ، فوضع منديلا ملوثاً بالبنج على فمه ، فأغمى عليه ، ثم حمله وخرج به إلى الخلاء ، وما زال سائراً به حتى فم الرمانة وعقبة الصوّانة ، فأنزله وكتفه ، وأعطاه شيئاً يزيل إغماءه . فلما أفاق قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . أين أنا الآن ؟ فقال زهير : أنت عندى ، ولا منجاة لك من يدى . فقال : ومن أنت ؟ فقال : أنا زهير ذو الحول والطول . فقال : ومن سلطك علىّ ؟ ليتنى أطعت عثمان ! ! فقال : سلطنى عليك جوان القاضى عالم الملة ، فقال بيبرس : إن كان قد أعطاك ألف دينار فإنى أعطيك ألفين ، فقال : لقد منحنى مائة سنة فى عمرى وعشرين فداناً فى الجنة ، فقال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، ليس بعد الكفر ذنب . ثم قال : ألا تحب أن تقدم خيراً يكون لك عندى ؟ ! فقال : وهل رأيت نصرانيًّا قدم لمسلم خيراً ؟! إنك لغبى جاهل ، فقال : تنح عنى وابتعد حتى أطلب الفرج من ربى ، فقال زهير : لا تزال غارقاً

فى جهلك ، فظننت أن أحداً سيخلصك من يدى ، وقد ابتعدت عنك فأرنى كيف ينجيك ربك ، وبينما بيبرس يبتهل إلى الله رافعاً يديه إلى السماء انكشف لهما غبار قادم عن فارس طويل القامة عريض الصدر ، فلما كان على مقربة من زهير سأله : من أنت أيها الواقف فى هذا المكان ؟ أجب قبل أن أقطع رأسك بهذا الحسام ، فقال زهير : أنا الموت الذى ينتظرك ، فانقض عليه الفارس وأعجله بضربة من سيفه ، فوقع يتخبط فى دمه ، ثم أخذ سلبه وسلاحه ومضى ، فناداه بيبرس : أيها الفارس الكريم ، فرجع إليه وقال : ومن أنت أيها الرجل ؟ فقال : أنا بيبرس خادم الملك الصالح ، فقال الفارس : بيبرس محمود ، فقال : نعم . فقال الفارس : ما أسعد هذه الليلة ! وما أجملها ! فقال بيبرس : لعل سعادتها لك ولغيرك ! ! ولعل الله ساقك إلىّ فى هذه الساعة لأسعد بك ! ! فقال : إن شئت كانت عليك نقمة ، وإن شئت كانت لك نعمة ، فقال : وكيف ذلك ؟ فقال : إن والدك قتل أبى فإن قتلتك فيه كانت نقمة ، وإن افتديت بالمال كانت نعمة ، فاختر لنفسك ما تشاء ، فقال : قد افتديت نفسى بما شئت من المال. فقال : يرضينى منك ألفان من الدنانير ، فقال بيبرس : ولك ذلك . فقال : اكتب لى صكاً بهما ، وناوله القرطاس والقلم والمحبرة ، فقال الأمير : ما اسمك حتى أكتب الدنانير لك ؟ فقال : اسمى وقع منى هنا ، وسأجده هنا إن شاء الله ، فاكتب الدنانير لرجل ضاع اسمه ، وحل الفارس وثاقه ، وكتب بيبرس ما أراده ، وما

هم أن يمضى إلى سبيله قال بيبرس : امنن علىّ بجواد هذا القتيل ليحملنى إلى العمران ، فقال : اكتب عليك ثمنه خمسمائة دينار وخذه ، وللسرج واللجام خمسمائة ، فكتب بيبرس صكـًّا بألف دينار ثمناً للجواد وسرجه ولجامه . وأخذ الجواد ثم سأله عن الطريق فقال الفارس : السؤال مذلة ، ولو كان عن الطريق ، وإن أموالك تقيك سوء المذلة ، فاكتب خمسمائة أخرى لأدلك على الطريق ، فعجب بيبرس من طمعه وشراهته وكتب ما طلب ، ودله على الطريق ، ثم رجا منه أن يعطيه سيفاً ، فقال : إن أعطيتنى الدنيا وما فيها ثمناً له فلن أستغنى عنه ، فقال : ولم ذلك ؟ فقال : غداً ستعرف ، وإن غداً لناظره قريب ، فتركه الأمير ومضى إلى سبيله .

كان هذا الفارس إبراهيم بن حسن الحورانى ، وكان مريضاً بالشلل فى شقه الأيمن ، فجاءه الخضر عليه السلام ، ومسح بيده على شقه فشفاه الله ، وبشره بأنه سيموت على فراشه بعد مدة طويلة ، ولما ابتهل الأمير بيبرس إلى الله أن ينجيه من زهير كان إبراهيم هذا فى فسيح الوديان ، فجاءه الخضر وقال له : سر إلى فم الرمانة وعقبة الصوّان ، وأنجد الأمير بيبرس وخلصه مما هو فيه ، وإن سألك عن اسمك فقل له : اسمى ضائع ولا تعرفه بشىء حتى يؤون الآوان ،

وركب إبراهيم جواده ، ولوح الخضر عليه السلام بيده ، فكان إبراهيم عند بيبرس فى مكانه ، وكان ما عرفت من أمره ،

سار الأمير بيبرس حتى أشرف على دمشق ، فلقيه عثمان بن الحبلى

وسأله : أين كنت أيها الأمير ؟ فقال كنت أتنزه فى الخلاء ، فقال عثمان : وهل قابلت الفارس الكبير وقال لك إن اسمى ضائع ؟ فقال : وكيف عرفت ذلك يا عثمان ؟ فقال : وهل قتل الرجل ؟ فقال بيبرس : اسكت ياعثمان واكتم هذا ، ولكن أخبرنى : من جوان ؟ فقال : قاضى القضاة فقال بيبرس : اخرس ، ولا تقذف بالباطل شيخ الإسلام ، ثم دخل الأمير سرادقه ونام .

ولما أشرق النهار وجد أيبك بيبرس فى مكانه سالماً . فذهب إلى القاضى وقال : إن بيبرس فى سرادقه على أحسن حال ، وكأنى بغلامك منصور لم يذهب إلى زهير ، فدعا القاضى منصوراً إليه وقال له : اذهب الآن إلى زهير وائتنى بخبره ، فلما ذهب لم يجد إلا أخاه جالساً مكانه . فسأل عنه فقيل خرج من يوم أن جاءه الكتاب ولم يعد إلى الآن . فرجع ومر بالأمير بيبرس فوجد جواد زهير عنده ، ثم ذهب إلى القاضى وأخبره بما رأى وسمع . فقال القاضى لأيبك : قتل زهير ، فإلى لعنة المسيح . وكتب إلى أخيه كفير كتاباً قال فيه : من جوان عالم الملة إلى ولدى كفير . اعلم أنى اطلعت على الأعمار فوجدت عمر أخيك زهير أطول من عمرك ، فأخذت من عمر أخيك وأضفته إلى عمرك ، وزدتك فى عمرك خمسين سنة . على أن تأتى إلى دمشق ليلا . وتسرق بيبرس وتقتله فى أى مكان تختاره ، ثم أحضر غلامه . وقال له : اذهب إلى كفير أخى زهير وناوله هذا الكتاب ، فقال الغلام : يا سيدى ، قتلت زهيراً وتريد أن تقتل أخاه ؟ ! ! فقال :

لا تجادلنى فى أحد ، فأستاذك لا خير فيه لإنسان ، مسلماً كان أو نصرانيًّا ، فامض إلى ما أمرتك .

ولما ذهب الغلام وناول كفيراً كتاب القاضى وقرأه تهلل وجهه فرحاً وقال : بلغ سيدك القاضى أنى سأفعل ما أراده منى الليلة . وتنكر كفير فى زى المسلمين وذهب إلى دمشق فعرف سرادق الأمير بيبرس ، ثم انتظر الليل مختفياً ، وبعد صلاة العشاء دخل عثمان على بيبرس ، وقال : أريد أن أقضى الليلة فى الحديث معك ، فقال : ولكنى متعب ولا قدرة لى على السهر فقم إلى مضجعك ودعنى لأستريح وأنام ، فقال : أطعنى ولا تخالفنى ، فقال : لا أرى ضرورة لكى أرهق نفسى بالسهر وأطيعك ، فقال عثمان : تخلق النوائب ولا يحملها إلا عثمان ، وكأنك لا تستطيع المعيشة إلا فى ظلامها كالخفافيش لا تسعى إلا فى ظلام الليل ، ثم تركه وخرج . فأجابه بيبرس بابتسامة مرحة ، ثم ألقى نفسه على فراشه ونام متوكلا على الله . وفى نومة الناس ، وهجعة المدينة ، سرى كفير ليلا إلى سرادق بيبرس ، فما لبث أن وقف أمامه حتى نزلت على رأسه « رزة » عثمان فهشمته وصرخ صرخة عالية سقط بعدها على الأرض قتيلا . فانتبه الأمير فزعاً من تلك الصرخة وسل سيفه من غمده وخرج مسرعاً فوجد القتيل وعثمان بجانبه . فقال : من قتل هذا يا عثمان ؟ فقال : ضربته « بالرزة » فهشمت رأسه ، فقال : هذا رجل مسلم من أتباع القاضى ، ويبدو لى أنه خرج ليقضى حاجة له ،

فتاه وجاء إلينا فكيف تقتل نفساً زكية بغير نفس ؟ فقال عثمان : وما رأيك وقد وقع ما لا يتداركه ؟ وإذا عرفت الحق فلا تلمنى ، فقال : احمله واذهب إلى الخلاء وادفنه قبل أن يطلع النهار . ثم اكتم هذا الحادث حتى أعرف الحق الذى فيه ، ودأبنا ما رأينا وما سمعنا . فقال عثمان : ذلك رأى جميل . فادخل أنت إلى فراشك ونم مطمئناً . ثم أمسك عثمان رجل القتيل وجره على الأرض حتى ألقاه أمام خيمة القاضى وقال : هذا قريبك فاقعد عنده ولا ترجع إلينا فهو أولى بك منا . ورجع إلى خيمته ، وخرج القاضى من خيمته لقضاء حاجة له فوجد القتيل مطروحاً أمام بابها ، فنظر فيه باحثاً حتى عرفه ، فرجع يرتعش من الخوف والرعب . ووجد غلامه قد جلس فى ناحية من خيمته يرتعد من الخوف ، وسأله عن هذا القتيل فقال : إنه كفير أخو زهير . فقال القاضى : قم يا ولدى وادفع عنا هذه المصيبة وجره إلى خيمة بيبرس واتركه عندها قبل أن يطلع النهار ، فقام الغلام وجرجر جثة كفير ورماها بجوار خيمة بيبرس ، وخرج عثمان يطوف بالخيمة فوجدها ، فقال : ومن الذى أذن لك فى الرجوع أيها اللئيم ، سأرميك أمام خيمة قريبك ، واحذر أن تعود إلينا . ثم جره وألقاه عند خيمة القاضى كما كان . وقال القاضى لغلامه : اخرج وانظر إلى القتيل أين هو الآن فإنى أخشى أن يكون قد رجع إلينا ، فإن وجدته أمام خيمتنا فأرجعه إلى خيمة بيبرس ، فخرج الغلام فوجده أمام الخيمة ، فجره ثانية وألقاه بجوار خيمة بيبرس ، وتكررت هذه العملية ثلاث مرات ،

ولما خرج عثمان ووجده فى آخر مرة ، قال : لقد سامحتك فى المرات السابقة، أما هذه المرة فلن أسامحك أبداً، ثم صاح : يا عقيرب ، فجاءه فى الحال ، وقص عليه ما حصل ، ثم انهال عليه ضرباً ، وهو يقول : إياك أن تترك أهلك وأقرباءك وترجع إلينا ، وكان النهار قد بان ، ورآه القاضى وهو يضربه ، فقال : أهذا يرضى الله ورسوله يا عثمان ؟ فقال : اذهب إلى شأنك، ولا تسألوا عن أشياء إن تُبْدَ لكم تَسُؤْكُم، فمضى القاضى وقد أشهد عليه كثيراً من غلمانه ، جاء بهم وأراهم ما يفعله عثمان من ضرب القتيل وتعذيبه .

ولما جلس الملك فى ديوانه دخل القاضى عليه ، وادعى أن عثمان أو بيبرس قتل رجلا مسلماً بغير حق وقص عليه قصة نقل القتيل إلى خيمته وإرجاعه ثلاث مرات ، وانتهت بتعذيب القتيل وضربه . فأمره الملك بالجلوس وقال : قد سمعت كلامك ، وأنظرنى حتى أتبين الأمر . ثم دعا بالأمير بيبرس ، فلما حضر سأله : ما قصة هذا القتيل؟ فقال: لا أعلم شيئاً عن قتيل ولا عن قصة قتيل ، فقال القاضى : إنما يخبرك عثمان بن الحبلى . فقال الملك : علىّ بعثمان ، فلما حضر قال له : إن القاضى يدعى أنك قتلت القتيل فما قصته ؟ فقال وجدته فى سكون الليل قد تسلل إلى خيمة بيبرس ، وهم أن يدخل عليه ليقتله وهو نائم ، فضربته « بالرزة » فى رأسه ، فهشمته وسقط على الأرض قتيلا، وجعل يحدثه عن نقل القتيل بين خيمة القاضى وخيمة بيبرس، ورؤية القاضى له وهو

يضربه إلى أن وقف أمام الملك وقص قصته . فقال الملك: يا شاهين ، سمينا الأحرار ، ونكتم الأسرار ، ولا نحب للناس العار والشنار ، فاكشف عن هذا القتيل ، لأنه لا يفعل فعلته هذه رجل مؤمن بالله ورسوله ، فنهض القاضي وكشف عنه فوجده نصرانيًّا وقال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، إن الرجل نصراني متنكر في زي المسلمين ، فقال عثمان : إنه من أقرباء القاضي ويعرف بعضهم بعضًا ، فقال القاضي : اتق الله يا عثمان ، واعلم أن بعض الظن إثم ، فقال الملك : يا عثمان ، اكتم الأسرار ، وسلم الأمر إلى من يعلم خائنة الأعين ، وما تخفي الصدور ، وأقام الملك أياماً قليلة ثم رحل إلى مصر .

٥

وفى الصباح كمل مجلس الملك ، وجاءه رسول فاستأذن له ووقف بين يديه وقال : أنا رسول على الغمرى صاحب بيت المقدس . بعثنى إليك بكتابه هذا ، ثم ناوله إياه ، فلما قرأه وجد فيه : من على الغمرى صاحب بيت المقدس إلى أمير المؤمنين ، لقد كثرت عندنا حوادث السرقة ، فلا تخلو منها ليلة ، وعجزنا عن معرفة اللصوص وأصبح الناس خائفين غير آمنين ، فكتبت إليك لتدرك المدينة بحكمتك ومعونتك ، حتى نقطع دابر هؤلاء اللصوص الخونة . فقال الملك : آمنت بالله ورسوله ، ومن يكشف عنا هذه الغمة ؟ فقال القاضى : لن يكشف عنا هذا البلاء إلا ولدك بيبرس ؟ ! فقال الملك : ولكنه فى حاجة إلى مال يستعين به ، فقال القاضى : قد وهبت له من مالى عشرين جواداً وعشرين مملوكا ، وعشرين كيساً من الدنانير ، ومثلها من الوزير أيبك ، وأمر القاضى أتباعه بإحضار المال فحضر ، وأخذه بيبرس ومنحه الملك الرتبة وأمره بالسير إلى بيت المقدس لإقرار الأمن فيها . فأخذ عثمان بن الحبلى معه ، وسليمان الجاموس ، والصقرين . واتخذ سبيله إلى بيت المقدس ، فاستقبله صاحبها على

الغمرى ، وهو يظن أن الملك الصالح ولاه مدينة بيت المقدس بدلا منه ، ولكن بيبرس طمأنه . وأذهب عنه قلقه وظنه ، فقال : أنت صاحب بيت المقدس . والمدينة مدينتك ، وأنت واليها ، والحاكم بأمرك فيها ، وما جئت إلا لمعونتك ، والضرب على أيدى اللصوص ، وإقرار الأمن فى المدينة ، بأمر من الملك الصالح ، تلبية لرجائك منه أن يكشف الضر عنك ، ففرح على الغمرى وأثنى عليه ، وقال : إنى هنا تحت أمرك ، ما دامت المدينة مشرقة بطلعتك . ولما جن الليل تنكر فى ملابس غير ملابسه ، وقال لصحبه : إنى ذاهب إلى زيارة بيت المقدس ، لأدعو الله فيه أن يسدد خطانا ، وينصرنا على هؤلاء اللصوص الخونة ، فقالوا : لا ينبغى أن نتركك تسير وحدك . فربما وجدت نفسك فى حاجة إلى معونة ، فقال : لقد أردت لنفسى أن أسير وحدى ، ثم خرج إلى الخلاء يمشى فيه ويعتس اعتساسًا ، فلاح له رجلان كافران ، فتبعهما مسرعاً حتى كانا على مرأى واضح لعينيه ، فوجد أحدهما يحمل « شكمجية » والآخر من خلفه يحرسه بسيفه ، فأصر الأمير فى نفسه أن يتبعهما إلى حيث يذهبان ، لينظر ما يكون من أمرهما ، وسار فى أثرهما حتى دخلا مكاناً ، وأغلقا عليهما بابه ، فوقف من خلفه يسمع ، فسمع كبير الجماعة يقول : ما فعلتما الليلة ؟ فقالا : سرقنا « شكمجية » من قصر على الغمرى . وفى منتصف طريقنا تبعنا بيبرس الذى أرسله ملك المسلمين ، وهو واقف ببابنا الآن . فقال : وهل يختبئ فى البنيان إلا النسوان ؟ !

إن كنتما تقولان الحق ، وكان هو ذا رجولة وهمة ، وعزمة وكرامة : فليدخل علينا ، ليحضر مجلسنا ، فثارت فى نفس بيبرس ثورة الحماسة والعزة ، وجرد سيفه ، ودفع الباب بيده ، واتخذ سبيله إليهم وهو يقول : الله أكبر . فماج الجمع وهاج ، وكانوا أربعين رجلا ، وهبوا إلى أسلحتهم . يريدون أن ينهبوه بها نهباً ، فصاح كبيرهم بلسانهم قائلا : لا تعجلوا ، فعما قليل يسقط من البنج مغشياً عليه ، وحينئذ تكتفونه وتأسرونه ، دون أن تراق قطرة من دم ، وكان الملعون قد رمى البنج فى طريقه إليهم ، فامتزج بأنفاسه دون أن يشعر به ، وما هى إلا لحظة حتى وقع من البنج غارقاً فى إغماءته فنهضوا إليه وكتفوه ، وأخذوا سلاحه ، ثم جمعوا أموالهم ، وساروا بها ومعهم الأمير بيبرس حتى وصلوا إلى مكان منقطع عن العمران ، يأمنون فيه نوائب الحدثان ، ثم أطعموه شيئاً يفسد البنج ويبطل أثره ، فلما أفاق قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، أين أنا الآن ؟ فقال كبيرهم : أنت عندى يا هالك ، فقال : ومن أنت ؟ فقال : أنا عبد الصليب ، وهؤلاء رجالى ، فقال : ومن سلطك علىّ يا عبد الصليب ؟ فقال : سلطنى عليك عالم الملة جوان .

كان القاضى جوان قد كتب إلى ميخائيل ملك القسطنطينية كتاباً قال فيه : لقد أصبحت من الألم والحزن بحيث لا يسعنى سهل ولا جبل ، إذ عيل صبرى ، وضاق صدرى من بيبرس ، الذى تاهت فيه حيلتى وكيدى ، فإذا جاءك كتابى هذا فأرسل إلى ولدى عبد الصليب أن يأتى ومعه أتباعه

ويتخذوا لهم مكاناً فى الخلاء ، ثم يزعجوا الأمن فى المدينة ، بسرقة أموال الناس وأمتعتهم ، فإذا شكا صاحب المدينة على الغمرى احتلت فى أن أبعث إليها بيبرس ، وحينئذ تسرقونه وتقتلونه ، ولكم فى ذلك الثواب ، وزيادة كبيرة فى أعماركم . ففعلوا ما أمر .

جرد كبير الجماعة سيفه ليضرب عنق الأمير بيبرس ، فقال له : أمهلنى قليلا ثم افعل بى ما شئت ، فها أنا ذا بين أيديكم ولا أستطيع الحرب ، ولا يضرك إن أخرت القتل أو عجلت به ، فقال : ولماذا تطلب الإمهال ؟ فقال : لأسأل صاحب الفرج أن يفرج عنى ، فقال : إنك لواهم ، وهل يستطيع أحد أن ينجيك من سيفى الآن ؟ ثم ضحك مستهزئاً وقال : أمهلتك فأرنا كيف تنجو ؟ ! وكيف يأتيك الفرج ؟ ! ثم رفع بيبرس يده إلى السماء ودعا ربه أن يدركه باطفه ، وما انتهى من دعائه حتى دخل عليهم فارس شاهر سلاحه ، فملأت هيبته قلوب الجماعة خوفاً ورعباً ، وتداخل بعضهم فى بعض تداخل الغنم إذا هجم عليها ذئب كاسر ، وجعل يقطع أعناقهم واحداً واحداً حتى أهلكهم جميعهم ، ومضوا حطباً لنار جهنم . ونجا بيبرس نجاة القوى المنتصر ، وأقبل على الفارس وحمد له جميل معروفه ، فقال له : خذ هذا القرطاس والقلم والمحبرة ، واكتب لى عليك خمسة آلاف دينار فى نجدتى لك هذه النجدة المباركة ، فأخذ يكتب حجة بذلك وسأله عن اسمه فقال : اسمى ضاع منى ولم أعثر عليه حتى الآن ، فعرفه بيبرس وسلم عليه

وكتب له ما طلب ، ثم سأله عن اسم أبيه ، فقال : ضاع منى أيضاً ثم تركه الفارس وانصرف .

ورجع بيبرس إلى المدينة ليلا ، فلقيه عثمان وقال له : أين كنت ؟ بَنَّجَلَكَ كبير الجماعة ؟ فقال : اسكت يا عثمان، فقال : وجاءك الرجل ذو البطن الكبير وخلصك وكتبت له حجة بالدنانير ؟ فقال : اسكت يا عثمان . فقال : لا تعد إلى طاعته ، فهو رجل طماع ، فقال : ومن أين عرفت ذلك يا عثمان ؟ فقال : حكت لى العصفورة ، فقال : وهل تعرف اسمه ؟ فقال عثمان : وهل تُهت عنه ، إنه عقيرب ، فقال : ما أكثر لغوك ومزاحك ! ! اركب فى جماعة من الغلمان واذهب إلى مكان كذا — وهو مكان الجماعة الذين كانوا سيقتلونه — وهات ما تجده فيه من الأموال والأسلحة ، فذهب وأحضر الأموال جميعها ، وكانت أربعاً وعشرين « شكمجية » من المال ، وتسعا من الجواهر الغالية ، فاطمأن بيبرس واستراح .

كان على الغمرى فى قلق عظيم من أجل بيبرس وغيبته ، وينتظر بفروغ صبر عودته ، فلما طلع النهار ذهب إليه بيبرس فى ديوانه ، فنهض إليه علىّ فرحاً ، وسلم عليه وأجلسه مكانه ، ثم سأله عن أمره ، فقال : نصرنا الله على الأعداء ، وجئنا بالأموال المسروقة ، فكلف منادياً ينادى فى المدينة : من ضاع له شيء فليحضر فى مكان كذا ليأخذه بعد أن يذكر أوصافه ، فقال : جزاك الله عنا وعن الناس كل خير ، وكيف

وصلت إلى هذه الحال ، فقص عليه قصته ، فقال : إنك رجل منصور موفق ، ثم أمر المنادى فنادى فى المدينة ، ليأخذ كل ذى شىء مسروق شيئه الذى سرق ، فأتوا إليه يهرعون ، وجعل كل من وصف شيئه أخذه ، وتؤخذ عليه حجة بأنه تسلمه ، فلم يبق فى المدينة ذو شىء مسروق لم يأخذه ولم يضع شىء من أحد .

ثم أقام بيبرس مستريحاً ثلاثة أيام ، وفى اليوم الرابع ذهب إلى مسجد بيت المقدس ، فلما كان عنده رأى أمامه بنية فخمة قد شيدت بالرخام الملون . ودخلها فوجدها مفروشة بالبسط الحريرية ، وتدلت قناديلها فى سلاسل من ذهب ، وسأل عنها فقيل إنها بنية الصليبيين العتيقة المقدسة ، ثم خرج منها ودخل المسجد أمامها فوجد بعضه قد فرش « بالحصير » وبعضه غير مفروش . فعجب أن يكون البيتان متقابلين وفى مكان واحد . ثم لا يكونان متماثلين فى الأبهة والعظمة وأقسم أن يغلق هذه البنية ، وتلقاه فى المسجد الإمام النووى فسلم عليه وأجلسه بجانبه ، وسأله عن حاجته فقال : أريد أن أغلق تلك البنية التى أمام المسجد ، فقال : لن تقدر على ذلك ، وإن قدرت فتحت باب الشر على المسلمين ، لأن الصليبيين سيغضبون ، ويمنعون عن المسلمين الجزية التى يبعثون بها إليهم كل عام ، وسيغيرون على بلادهم فينقصونها من أطرافها ، فقال : وعزة الله العلى لأغلقن هذه البنية ، فقال : ولن نرضى بما عزمت عليه إلا إن جاءنا كتاب من الملك . ليكون هذا هو نفسه المسئول بعد ذلك عن الإسلام والمسلمين ،

فإن أردت ذلك، فهات لنا أمراً من الملك . فقال: لك علينا ذلك .

ورجع الأمير فكتب الكتاب الآتى :

«من المحب الأصغر إلى المحب الأكبر الملك الصالح، الحمدلله والصلاة والصلام على رسول الله ، أما بعد فقد نصرنا الله ، وقتلنا اللصوص ، ورددنا الأموال إلى أهلها ، واستقر الأمن فى المدينة واطمأن أهلوها ، وقد رأيت بنية فخمة أمام بيت المقدس فتألمت منها وأردت أن أغلقها حتى لا يدخلها أحد من الصليبيين ، فمنعنى الشيخ النووى ، وقال : لا نمكنك من إغلاقها إلا بأمر من الملك الصالح ، وحاجتى إليك الآن أن تتفضل علينا بكتاب من عندك تأذن لنا فيه بإغلاق هذه البنية ، وقد أقسمت إن لم تأمرنى بإغلاقها رجعت إلى بلدى والسلام». ثم أمر عثمان أن يسافر بهذا الكتاب إلى الملك، فطار عثمان إليه، وسلمه كتاب الأمير بيبرس، فناوله إلى القاضى وقال له اقرأه وأسمع الحاضرين ، فلما قرأه غضب وثار وقال : يا أمير المؤمنين ، من يقول مثل هذا القول ؟ إن بيبرس هذا لم يأت من بلاده إلا ليفسد ملك المسلمين ، والله إن أنت رضيت عن طلبه هذا وأغلق البنية المقدسة لأغار علينا أكابر الصليبيين من أمثال مقلولى ، وتاجربى وميخائيل ، والفرتماكوس ، وفرنجيل ، ودرمان ، ورم ، والأصطالود فقال الملك : ما شاء الله أيها القاضى ، إنك تعرفهم جميعهم بأسمائهم . فقال : عرفتهم من المسافرين ، فقال الملك : وإذا أغاروا علينا فماذا يكون أيها القاضى ؟ ! ! لن يكون إلا ما أراده الله ، ولا بد من إغلاق

البنية المقدسة ، فاكتبوا لبيبرس أن يغلقها ، واكتبوا إلى الشيخ النووى بذلك ، فكتبوا ما أمر الملك به فأخذه عثمان ورجع به مسرعاً ، ممتطياً متن الريح ، وناوله الكتاب الذى كان له قرة العين ومسرة الفؤاد .

أخفق جوان القاضى والوزير أيبك فى صرف الملك عن إغلاق البنية ، كما بطل ما دبراه لقتل بيبرس على يد عبد الصليب . إذ عرفوا أنه هلك هو وجماعته . فجمعهما مجلس حزين خائب ، وجعلا يتشاكيان ويتواجعان ، ويتحاضان على تدبير المكايد لقتل بيبرس .

عرض بيبرس كتاب الملك الصالح على الشيخ النووى وصحبه من ذوى العلم والفضل ، فقالوا : الآن حق لك أن تفعل ما تشاء . فذهب إلى صاحب بيت المقدس وأمره أن يخرج الرهبان والقسيسين والبطارقة من تلك البنية لأنه يريد أن يغلقها ، فصدع بما أمر ، وأخرج من كانوا فيها من هؤلاء . ثم دخلها بيبرس فجعل يغلق مخادعها واحداً واحداً . حتى أتى إلى مخدع فوجد فيه بطريقاً وهو جالس يذكر الله تعالى ، فقال له : اخرج يا هذا من مخدعك فإنى أريد أن أغلقه . فقال : دعنى فيه وأغلقه فقال : ومن أين تأكل وتشرب ؟ فقال : إن الذى خلقنى يكفلنى ، وكما رزقنى فى ظلمة الأحشاء يرزقنى فى ظلمة هذا المخدع . وإذا كان لا ينسانى فى الموت فهو لا ينسانى من الرزق . فأدرك بيبرس أنه من أولياء الله الصالحين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وأغلق عليه الباب وتركه فى رعاية خالقه ، ثم أغلق الباب العام للبنية ، وبنى أمامه جداراً حتى لا يفتح .

دبر القاضى جوان مكيدة أخرى لبيبرس ، فكتب كتاباً على لسان ميخائيل ملك القسطنطينية قال فيه : من ميخائيل ملك القسطنطينية إلى ملك المسلمين ، بلغنا أنك أغلقت البنية المقدسة ، وذلك عدوان علينا آثم ، وسأبعث إليك بحملتين برية وبحرية ، لأشل يد اعتدائك الأثيم . ولأفتح البنية وأنفك راغم . ثم ذهب القاضى بكتابه هذا إلى منزله بحارة الروم ، وجمع أربعة من غلمانه وقال لهم : خذوا هذا الكتاب وامضوا به إلى مقابر المسلمين. وهناك قفوا فى طريق الوزير شاهين . وعفروا وجوهكم بالتراب ، وأظهروا أنكم متعبون وكأنكم قادمون من سفر طويل ، فإذا رآكم على هذه الحال قبض عليكم وسألكم عن شأنكم ومقصدكم ، فإذا سألكم فقولوا : نحن قادمون من عند ميخائيل ملك القسطنطينية بكتاب إلى ملك المسلمين ، فتهنا عن الطريق حتى وصلنا إلى هذا المكان، فإن فعلتم هذا، فإنه سينعم عليكم بالمال الجزيل ، أما أنا فقد زدتكم مائتى سنة فى أعماركم . فأخذوا الكتاب وفعلوا ما أمر .

وجد الوزير شاهين هؤلاء الأربعة فى طريقه بالمقبرة ، وسألهم عن أمرهم فأجابوه بما عرفوا من القاضى ، فقبض عليهم ، وسار بهم إلى ديوان الملك الصالح ، ولما كمل مجلسه أقبل وجلس على كرسيه وقال : سبحان مالك الممالك ، سبحان المنجى من المهالك ، يا شاهين ، الطير لا يعلم ، وهو مظلوم ، وما ظلمه إلا أحب الناس إليه . فقال : من هذا يا مولاى ؟ فقال : هات من عندك يا شاهين ، فأدرك أنه يريد الأربعة الذين قبض

عليهم ، وأحضرهم بين يديه ، فسألهم الملك : ما حاجتكم ؟ فقال أحدهم : جئناك بكتاب من ملك القسطنطينية فتهنا عن الط يق ، ولقينا الوزير عند المقابر تائهين ، فقبض علينا وأتى بنا إلى هذا المكان . ثم مد أحدهم يده بالكتاب ، فقال : سلمه إلى القاضى ليقرأه علينا وعلى الناس : فلما قرأه اربد وجه الملك غاضباً وقال : ومن ميخائيل هذا حتى يعترض على أعمالنا ويهددنا بجنوده ؟ ثم أمر أن يأتوه به مكتفاً مقيداً ، وأن يأخذ الوزير الكتاب معه ، وأن يسجن هؤلاء الأربعة ، ثم قال : ومن الذى يأتينى بملك القسطنطينية ؟ فلم يجبه أحد ، فكرر هذا مرة ومرة . فما أجابه أحد ، فقال القاضى : لا يأتيك به إلا ولدك بيبرس فإن النصر حليفه ، والتوفيق رائده ، فقال : صدقت ، ولكنه الآن فى بيت المقدس فمن يمضى إليه ويبلغه ؟ فقال القاضى : إذا كان لا بد من ذلك فليمض إليه الوزير أيبك ومعه جماعته الخمسة والثلاثون ، ليساعدوه فيما كلفته به ، فقال الملك : اكتبوا إلى بيبرس بذلك ، وليمض إليه بكتابى أيبك وجماعته من الأمراء على أن يكونوا له تبعاً ، فكتب الكتاب وأخذه أيبك وانصرف يستعد للسفر هو وجماعته . واجتمع القاضى وأيبك قبل السفر فقال القاضى : إنى دبرت لك هذا الرحيل ، وأصبح قتل بيبرس فى يدك ، وذلك أن تخفى كتاب الملك ، ثم تقول له : لقد أرسلنا الملك الصالح لنحضر إليه ملك القسطنطينية على أن تكون معنا ، فإن سار معكم فاقتلوه فى الطريق ، وإن عصى فاكتبوا إلى الملك الصالح بأنه عصى أمره ليقتله ، فما رأيك فى

هذا المكر المحكم الذى لا يدرك كنهه إنسان ؟فقال : ذلك مكر يعجز عنه إبليس وجنوده ، لأن بيبرس مقتول على كلتا الحالتين ، فإن نجا من سيوفنا بعصيانه. فلن ينجو من سيف مولاه وسيده. ثم ودعه وانصرف يستعد للرحيل.

أدرك الوزير شاهين بخبرته وبصره مكايد القاضى ومكره ببيبرس فى كل مناسبة ، ما يرمى إليه من إرساله أيبك وجماعته الأمراء ، فكتب إلى بيبرس كتاباً وضح له فيه أمر ميخائيل المفترى عليه والأربعة المسجونين الذين ادعوا أنهم رسل ميخائيل وما يريده القاضى من إرسال أيبك فى خمسة وثلاثين أميراً على شاكلته ، ثم قال له فيه : إن الملك بعث إليك مع أيبك كتاباً يكلفك فيه بإحضار ميخائيل ملك القسطنطينية ، وقد جعل أيبك وجماعته فى طاعتك وتحت أمرك ونهيك ، ولكن احذرهم ولا تأمن جانبهم ، ولا تجعل لهم سبيلا إلى أن يخدعوك ، ويمكروا بك ، فإن القاضى ما أشار على الملك بإرسالهم إليك إلا ليقتلوك ، ثم دعا بأحمد ابن دغان خازن داره. وقال له : خذ هذا الكتاب وسلمه سرًّا إلى بيبرس فى بيت المقدس قبل أن يصل أيبك وجماعته إليه ، ثم ارجع إلى فى الحال واحذر أن يشعر بك أحد أو تتوانى وتهمل ، فقال : سمعاً وطاعة ، ثم ركب جناح السرعة وطار إلى بيبرس فناوله كتاب الوزير ، فلما قرأه فهم كل شىء يريده الوزير ،وكتب إليه يشكره ويثنى عليه، وأنه سيكون حذراً كما أراد . وأعطى رسوله الكتاب فأخذه ورجع إليه .

أخذ بيبرس يستعد للقاء أيبك وجماعته بما يتلاءم وخبث نفوسهم

ولؤم طباعهم ، فأحضر نجارين وأمرهم أن يصنعوا بعدد أيبك وجماعته مقاعد ذات خوازيق ولوالب ، بحيث إذا جلس على كرسى منها رجل وأدير لولبه هوى قرص المقعد ونفذ من وسطه الخازوق فدخل فى الجالس وخرج من فمه ، وكان بيبرس يعرف أسماء أيبك وجماعته . فأمر أن تكتب الأسماء على الكراسى ، كل واحد له كرسيه ومكتوب عليه اسمه . فصنعت هذه الكراسى ووضعت مصفوفة فى مكان وأسدل عليها ستار . وأمر طباخه أن يهيء لهم عند حضورهم طعاماً . ولكن يضع عليه ملحاً كثيراً حتى لا يستطيع أن يطعمه إنسان ، وقال له : إن أنا غضبت عليك وأمرت بقطع يدك فلا تجزع . واستشفع بالوزير أيبك لأعفو عنك ، وذلك لأنى لا أريد أن يأكلوا لى طعاماً . فقال : سمعاً وطاعة .

حضر أيبك وجماعته ونزلوا بالمدينة فى خيامهم التى أقاموها فى الخلاء المجاور للمدينة ، واستقبلهم بيبرس وحياهم وأظهر الفرح بقدومهم . وقال لهم : لعل خيراً جاء بكم ! فقال أيبك : لقد أرسلنا الملك الصالح لإحضار ميخائيل ملك القسطنطينية مقيداً ذليلا وقال : خذوا بيبرس معكم ولا تتركوه ، فقال بيبرس : ولكنى أنا الآن فى بيت المقدس بأمر الملك ، ولن أغادره إلا برسالة تأتينى من عنده ، لتكون فى يدى حجة إذا ما قال لى : لم تركت بيت المقدس من غير إذنى ؟ فقال أيبك : وهل نكذب عليك ؟ لقد أمرك بالسير معنا ، ونحن لك شهود . ولا داعى إلى كتاب منه ، فعرف من ذلك أنهم يريدون به السوء ، وسكت وهو

غير مطمئن لهم ثم قال : ما دمتم شهودا لى فلا مانع لدى من السير معكم ولكننا لا نسير حتى تحضروا وليمتى وتأكلوا من طعامى . فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا : نأكل ما عنده ثم نطعمه ما عندنا ، وأمر الغلمان أن يعدوا الطعام . ولما صفت الموائد دعاهم إليها فجلسوا ليأكلوا ، ولكنهم وجدوا الطعام لا يكاد يسيغه أحد لكثرة الملح فيه ، فدعا بيبرس بالطباخ وقال له : كيف تتلف هذا الطعام الذى كلفنى كثيراً من المال وتخزينى أمام هؤلاء الأمراء ؟ فقال : خانتنى يدى يا مولاى ، فأكثرت من وضع الملح فيه ، فغضب بيبرس وأمر الغلمان أن يقطعوا يده ، فتوسل إليه الطباخ وقال : اعف عنى من أجل الوزير أيبك ، وتقدم الوزير إذ ذاك وقال : اغفر له خطأه واعف عنه من أجلى ، فقال : كيف يكون ذلك وقد فضحنى أمامكم ، وضيع علىّ ما أردته لكم من الإكرام والحفاوة ، فقال أيبك : إنه خطأ غير مقصود فأكرمه بالعفو عنه من أجلى . فقال :

ومن أجلك أيها الوزير قد عفوت عنه ، فتعالوا معى إلى موائد أخرى أعددتها على سبيل الحيطة ، وكان قد أمر بإعداد أخونة على صحاف فى كل منها قيد من حديد وقفل ، ووضع عليها غطاؤها ، فلما جلسوا إليها ورفع الغطاء عن الصحاف وجدوا قيوداً حديدية وأقفالا ، فانخلعت قلوبهم واصفرت وجوههم ، ونادى فيهم بيبرس ، وقال : ضعوا القيود فى أرجلكم أيها الكلاب ، وبعد أن قال ذلك رفعت الستارة وخرج من خلفها أبناء إسماعيل وسيوفهم فى أيديهم ، وكان بيبرس قد أحضرهم

وأعدهم لذلك . فسارعوا إلى وضع القيود فى أرجلهم وكان أسبقهم إلى ذلك الوزير أيبك . وأحاط بهم أبناء اسماعيل وقد جردوا أسلحتهم وينتظرون الأمر بقطع رقابهم ، ثم أمر بيبرس برفع ستارة كانت أمامهم فلما رفعت وجدوا من ورائها مقاعد الخوازيق . وقد كتبت عليها أسماؤهم ، فعظم خوفهم ، وانهارت أعصابهم ، وبالوا فى سراويلهم ، فصاحوا مستغيثين : أجرنا يا سيدنا بيبرس ويا أميرنا ، فنحن لك عبيد وخدم ، فقال بيبرس : أيها الكلاب اللئام ، كثيراً ما وقعتم فى يدى ثم عفوت عنكم ، ولكنكم لا تزالون فى ضلالكم وتمردكم ، ولا ينبغى أن تعيشوا بعد ذلك ساعة واحدة ما دامت قلوبكم تتلظى فيها نار الحقد والجحود ، فقالوا : الآن تبنا إلى الله وأنبنا إليه ، وأخلصنا لك فى السر والعلن ، ثم أقسموا أنهم من الآن سيكونون له أصحاباً أوفياء مخلصين . فقال بيبرس لأيبك : أين كتاب الملك ؟ فأخرجه من جيبه ، وقال : ها هو ذا يا سيدى ، فقال : ولم أنكرته وأخفيته عنى ؟ فقال : أخطأت يا سيدى ، وقد مضى ما مضى . ونحن الآن منك غيرنا بالأمس ، فاعف عنا واصفح . ولك أجرك عند الله .

فأخذ بيبرس الكتاب وقرأه عليهم ثم قال : قد عفوت عنكم هذه المرة ، وإن بدا منكم أى خطأ أو ذنب بعد ذلك فلا جزاء لكم عندى إلا القتل ، ثم أمر أن تفك القيود ، وأن يقدم لهم طعام شهى ، فأكلوا وشربوا ، ثم ترك علياً الغمرى فى بيت المقدس ، ورحل بهم إلى القسطنطينية وما زال يكد ويكدح فى المسير حتى نزل بهم على شاطىء البحر الذى بينهم وبين المدينة ، فنصبوا خيامهم وأقاموا .

٦

بلغ ميخائيل نبأ قدوم المسلمين إليه فعجب من ذلك وقال : إنى ما قدمت لهم من سوء ، ولا أزال أعطيهم الجزية التى لهم فماذا جرى حتى أتوا إلينا بجنودهم ؟ ! فكتب إليهم كتاباً وبعث به رسولين ، فعبرا البحر على مركب صغير وخرجا منه إلى الشاطئ الذى نزل فيه بيبرس وجماعته فلما رآهما دعاهما إليه وقال : فيم جئتما ؟ وما عندكما من الأخبار؟ فقالا : جئنا بكتاب إليك ، وناولاه إياه ، فقرأه ووجد فيه : من ميخائيل ملك القسطنطينية إلى قائد جماعات المسلمين . إنى ما أضمرت لكم من سوء ، وما قدمت يداى لكم عملا يغضبكم ، ولا أزال على ولائى لكم ، فإن كنتم تريدون مالا أو طعاماً أو معونة أرسلتها لكم ، وإن كنتم تريدون شيئاً آخر فأخبرونى به ، حتى أفعل ما يرضيكم ، حرصاً منى على ما بيننا من الصداقة والولاء .

فأيقن بيبرس أنه مظلوم ، وأنه لا يعلم شيئاً من أمر الكتاب المفترى عليه ، فكتب إليه ، من الأمير بيبرس إلى ميخائيل الملك. السلام على من اتبع الهدى ، ولعنة الله على من كذب وتولى ، اعلم أنه قد جاء إلى الملك الصالح كتاب بخطك وختمك تقول فيه : لقد أغلقت البنية المقدسة ، وهذا اعتداء أثيم منك ، وسأرسل إليك حملتين برية وبحرية لتأديبك ، ولأفتح هذه البنية رغم أنفك ، فأقسم الملك أنه لا بد من حضورك بين

يديه . فإن أردت النجاة لنفسك ، ودوام الود والولاء بيننا وبينك ، فاحضر إلينا طائعاً مختاراً ، ليحقق الملك فى أمر كتابك هذا . وأنا ضامن لك سلامتك وإكرامك والحفاوة بك . وإن عصيت فاعلم أنى لن أرجع إلى الملك إلا بك ، وإن لبثت عندك سنين .

ثم أنعم بيبرس على الرسولين وأعطاهما كتابه ، وقال لهما ارجعا إلى ملككما وأعطياه كتابى هذا .

فلما قرأه قال : وما لى ولهؤلاء المسلمين ؟ ! وكيف أتورط وأسلم نفسى إليهم وأنا لا أدرى ما يفعلونه بى ؟ ! إن ذلك لن يكون ، وإن أقاموا على البحر سنين . ثم أمر أن يغلق البحر بينه وبينهم ، وأن يتركهم حتى يملوا ثم يرجعوا إلى بلادهم . فإنهم لا يطيقون الصبر على شدة الرياح وقارس البرد ومتاعب انقطاعهم عن العمران ، ثم أمر أن يقفل البحر بوضع السلاسل فيه من شاطئ القسطنطينية إلى الشاطئ الآخر ، وبعد ثلاثة أشهر من مقامهم على الشاطئ خرج بيبرس ليلا يطوف ويتجسس ، فوجد الأمراء مجتمعين فى سرادق واحد ويتحدثون مع الوزير أيبك فى طول إقامتهم وما يفعلونه فى بيبرس ، فقال أيبك : ما لنا وللبقاء فى هذا المكان تهزنا العواصف ويوجعنا البرد القارس ، وقال بشتك : وقد علت أجسامنا الأوساخ وأصبحنا أشد بؤساً ومهانة من المسجونين ، وقال علاء الدين : أرى أن ندخل على بيبرس غداً ونشكو له هذه الحال ، ونقول له : إننا راحلون إلى ديارنا ، لأننا لا نستطيع البقاء فى هذا الخلاء

لحظة واحدة . فإن رجع معنا فسيقتله مولاه الملك . وإن خالفنا ولم يرجع معنا هجمنا عليه وقتلناه ، فإذا سألنا عنه قلنا إنه مات ودفناه أمام فلان وفلان . فاستحسنوا هذا الرأى وأجمعوا على تنفيذه ، فقال بيبرس فى نفسه : لا حول ولا قوة إلا الله العلى العظيم ، نعفو عن سيئات الناس ونخلص لهم ، ثم يخونون ويأتمرون ؟ ! اللهم إنى أسألك السلام من كل خائن أثيم ، ثم أخذ حصاة وضرب بها المصباح الذى ينير لهم فانكسر ، فقال أيبك ، هذه حصاة جاءت بها الرياح فهيا إلى مضاجعنا ، وموعدنا صبح الغد .

مضى بيبرس يمشى على شاطئ البحر وهو فى غم عظيم من هذه الخيانة التى تحاك من حوله ، وقلبه يناجى ربه أن يكفله ويحفظه . ثم عرج على مكان بالشاطئ فتوضأ من البحر وصلى ركعتين ، وجلس يذكر الله ويسأله فى خشوع وضراعة ، فوجد البحر قد هاج واضطرب ثم سكن بغتة فرأى أمامه مركباً صغيراً به رجل فى زى مغربى ، فقال : السلام عليك يا بيبرس ، فغرق فى لجة العجب والحيرة وقال : وعليكم السلام ورحمة الله ، من أنت أيها الرجل الكريم ؟ فقال : أنا عبد الله الراجى عفو الله المغاورى ، تعال يا بيبرس معى ، وسأنقلك إلى الشاطئ الآخر ، وهناك تمشى بجانب سور المدينة وتنادى : يا صاحب الوقت ، وحينئذ يجيئك غلام أسمر ، فقل له : عريفك الذى أقرأك فى المكتب يقرئك السلام ويقول لك : هات الأمانة ، فإذا جاءك بميخائيل ملك القسطنطينية

فخذه وارجع إلىّ به، ولا تسأله عن شيء بعد ذلك أبداً . فقال بيبرس : سمعًا وطاعة . ثم نزل فى المركب ونقله إلى البر الثانى ، ونادى : يا صاحب الوقت ، وجاءه الغلام وطلب منه الأمانة فقال له : انتظرنى هنا . ثم غاب عنه قليلا وعاد ومعه كيس به ميخائيل فناوله إياه ، ولما أخذه بيبرس لم يسكت وسأله: ما اسمك يا أخى ؟ فقال له : ها هو ذا عريفى وراءك ، فالتفت بيبرس فلم يجد أحداً ، والتفت إلى الأمام فلم يجد الغلام ، فعجب من ذلك ، وأخذ ميخائيل معه ورجع إلى المغاورى ، فقال له : ألم أقل لك : لا تسأله عن شيء بعد أن يأتيك بميخائيل ؟ ثم نقله إلى الشاطئ الثانى فى المكان الذى صلى فيه الركعتين ومضى فى البحر إلى سبيله وكان هذا الغلام الذى جاءه بميخائيل جمال الدين شيحة .

أما بيبرس فإنه سار بميخائيل راجعاً إلى سرادقه ، فلقيه عثمان فى الطريق وقال له : أين كنت؟ فقال : كنت حيث كنت ، فقال عثمان: وقابلت الرجل الذى طلع عليك من البحر ، ونقلك إلى الغلام الذى جاءك بميخائيل ، فقال بيبرس : ومن أعلمك هذا ؟ اسكت يا عثمان ولا تتكلم ودع الأمر سرًّا ، ومن يكون هذا الغلام يا عثمان ؟ فقال هذا عقيرب ، فضحك بيبرس وقال : جاءتك داهية وعقيرب معك ، خذ ميخائيل هذا عندك ، وحافظ عليه ، ولا تظهره إلى أحد أبداً ، فأخذه وسار به وذهب كل إلى مقره .

وفى الصباح جلس بيبرس فى مكانه فجاءه أيبك والأمراء وقالوا :

إننا اتفقنا على الرحيل فوراً ، فقد نفد صبرنا ، ولا نستطيع أن نتحمل أكثر مما تحملنا ، ولم نجد فائدة فى بقائنا ، ما دمنا لا نستطيع أن نعبر البحر إلى شاطئ المدينة ، فهل نغوص فى الأرض أو نصعد فى السماء لنأتيك بميخائيل ، ونرى أن تعود معنا ، ويكفر الملك عن يمينه ، وإن لم ترجع معنا تركناك وحدك ، فقال بيبرس : ما دمتم رأيتم ذلك فلن أخالفكم ولكن اكتبوا إلى حجة بأنى طلبت منكم الإقامة معى فأبيتم ، فقال لهم أيبك : اكتبوا له الحجة التى يريدها ، فلن يضيركم منها شىء ، فكتبوا له الحجة وأخذها ورحل معهم راجعاً إلى الملك الصالح .

أصبح رجال القسطنطينية ولم يجدوا الملك فيهم ، ووجدوا المسلمين قد رحلوا ، فظنوا أنهم أخذوه من بينهم ، وعجبوا كيف أخذوه والبحر مغلق وهم فى الشاطئ الآخر ولم يعبر منهم أحد البحر ، وكتبوا إلى الفرتما كوس ملك أنطاكية شارحين له قصة مليكهم ، وقالوا : إن المسلمين قادمون به ، فاحصرهم وضايقهم وخذه منهم ، وبعثوا بهذا الكتاب رسولا فوصل إليه قبل مرور المسلمين به . فقام هو من فوره وجعل على الطرق حرساً وجنوداً من قبله .

أما بيبرس فقد سار فى رفقته ، وفى اليوم الثالث نزل بهم للراحة ، فدخل عليه عثمان وهو يبكى ، فقال له : ما يبكيك يا عثمان ؟ فقال : لا يهمك الأمر ، فقد ضاع منى ميخائيل ، وسأحضر لك رجلا غيره من خلق الله ، فكبر عليه الأمر وعظم . وأمسك « اللت » بيده ، وهم أن

يضرب عثمان به ، فجرى أمامه ، والأمير يجرى من خلفه ، فلقيه فارس مقبل عليهما ، فأمسك عثمان جلابيبه واستجار به، فقال له : لا تخف ، ولقى الأمير بيبرس وسأله : لماذا تجرى وراءه ، وتريد أن تضربه ؟ فقال دعنى أقتله قبل أن أقتل بسببه ، فقال : إنه قد استجار بى فأجرته ، ولا بأس عليك إن أخبرتنى بقصتكما ، فربما كان رضاكما على يدى ، فقص عليه قصته، وكان الفارس ملثماً، فلما انتهى من قصته رفع اللثام عن وجهه . فإذا هو سليمان الجاموس من أبناء إسماعيل ، فعجب بيبرس وقال : وما الذى جاء بك إلى هذا المكان؟ فقال : بلغنى أنك رحلت إلى القسطنطينية لإحضار ميخائيل، فجئت برجالى لمعونتك ، ولما وجدتكم قادمين سرقت ميخائيل من عثمان ، ثم رجعت إليكم لأمنع أى أثر يكون بسبب ضياع ميخائيل من عثمان ، فانتظرانى حتى أحضره ثم غاب قليلا ورجع ومعه ميخائيل فسلمه إلى عثمان فلما أخذه قال : جاءتكم داهية، كلكم لصوص!! وجعل رجال الفداوية يسرقون ميخائيل ويردونه سبع مرات على نحو ما سرق فى المرة الأولى،على سبيل المداعبة لأنهم ما جاءوا إلا لمعونة بيبرس ونصره، وقد انضم جمعهم إلى بيبرس وساروا حتى وصلوا أنطاكية، فوجدوا الصليبيين ينتظرونهم ليحاربوهم ، فقال بيبرس : لا يحارب هؤلاء إلا أيبك وأمراؤه ، ومن تخلف منهم أو تكاسل أجلسته على كرسيه ذى الخزوق ، وكان قد أخذ هذه الكراسى معه ، فحاربوا ثلاثة أيام حتى خارت قواهم وتعبوا تعباً شديداً ، فقال أيبك : لعن الله القاضى ، ولعن حيلته ، ولا أراه

الراحة فى حياته ، فما أشأمه ! ! وما أشأم رأيه ! ! فاستجاروا بالأمير أن يقيلهم من هذه الحرب التى أصابتهم بالجروح ، وأرهقتهم من أمرهم عسراً ، فأمر بإحضار طبيب يداوى جروحهم ، فطلبوه هنا وهناك حتى عثروا على رجل يحمل خرجاً وينادى : نداوى المكسور ونداوى الجريح ، فقالوا له أجب الأمير ، فلما حضر بين يديه أمره أن يداوى جروح الأمراء ، فقام إليها ونظفها ووضع عليها دواء من عنده فبرئت فى الحال ، فسر منه الأمير وقال له : ألا تحب أن تكون طبيباً عندى ؟ فقال : يا سيدى إنى رجل طواف على الناس لمعالجتهم ابتغاء مرضاة الله . ولكن خذ علبة الدواء هذه ، فإذا جرح عندك أحد فضع على الجرح بعضاً منه فإنه يبرأ بإذن الله ، وأراد بيبرس أن ينعم عليه بالمال ، فقال : لا يا سيدى ، فإنى لا آخذ شيئاً من أحد ، ولكنى سآخذ هذا المنديل المزخرف الذى كتب عليه اسمك ، كما كتب على العلبة صفتى ، فإذا ما نظر أحدنا إلى اسم صاحبه تذكره ودعا له بخير ، فشكره بيبرس وأثنى عليه وقال : سمعاً وطاعة . ثم ودعه الطبيب ورحل ، وبيبرس فى عجب من أمره ، لأنه لا يدرى سر الرجل ولا سر ما فعله . وكان هذا الطبيب جنيدا الذى سيأتى ذكره .

وفى اليوم الرابع أحاط بيبرس وجماعة الفداوية وبقية جنده وأعوانه أحاطوا بالأعداء ، ثم هجموا عليهم بأسلحتهم ، وما أتى عصر ذلك اليوم حتى كانوا قد قتلوا منهم خمسة آلاف فارس ، وجرحوا كثيراً منهم ، فولوا الأدبار هاربين ، ودخلوا أنطاكية وأغلقوا أبوابها ، فنزل

بيبرس بجنوده حول المدينة وحاصرها ، وهو فرج بنصره . آسف أسفاً شديداً إذ لم يتمكن من أسر الفرتماكوس ملك أنطاكية ، ولما جلس فى خيمته دخل عليه الرجل الذى ضاع اسمه ، فعرفه بيبرس ، واحتفل برؤيته فرحاً به ، وقال له : كيف حالك؟ فقال : لقد فتحت لك أبواب المدينة ، وقتلت لك حرسها . وأتيتك بالفرتماكوس ملكها ، فقوموا وادخلوا المدينة واغزوا أهلها فإن النصر لكم ، فما رأيك فى هذه الصنيعة ؟ فقال : تلك صنيعة كبرى ، لك فيها ما تشاء من المكافأة ، وكتب له حجة بما أراد ، وأخذ منه الفرتماكوس غارقاً فى غشية من البنج فقرنه إلى ميخائيل ، ثم انصرف ضائع الاسم إلى سبيله .

أمر بيبرس رجاله أن يدخلوا المدينة و يبغتوا أهلها بسيوفهم ، فتدافعوا إليها تدافع الإبل العطشانة إلى الماء ، واستيقظ أهلها على ضرب السيوف وإراقة الدماء فنادوا : الأمان . الأمان . وسلموا المدينة ، وغنم بيبرس كثيراً من أموالها ، ثم نزل فى سرادقه ، وبعث فى طلب أيبك وجماعته الأمراء فلم يجد لهم أثراً ، لأنهم انتهزوا فرصة انشغال بيبرس ورفقته بالقتال داخل المدينة ، وهربوا راجعين إلى مصر .

وأحضر بيبرس الفرتماكوس مغشياً عليه ، فأعطاه شيئاً يبطل أثر البنج فلما أفاق وجد نفسه بين يدى الأمير بيبرس فقال : إنى بك مستجير فاعف عنى واطلب منى ما تشاء من الأموال ، فقال : لقد أخذنا أموالاً كثيرة منكم ، ويتمنا أطفالكم ، وقتلنا رجالكم ، وملكنا مدينتكم . ولسنا

فى حاجة إلى فدية ، وستبقى أسيراً فى أيدينا ، جزاء ما قدمت يداك ، إذ أطعت أهل القسطنطينية ، واعترضت سبيلنا بجنودك ، تبغى قتلنا ، وتخليص ميخائيل من أيدينا ، ثم أمر أن يقرن إلى ميخائيل ، وأن يحافظ عليهما . ثم أعطى ثلث المغانم إلى أبناء إسماعيل الذين نصروه وودعهم مشكورين إلى قلاعهم . وأمر بالرحيل إلى مصر . وكان كلما نزل فى مكان سأل عن أيبك والأمراء ، فيقال له : إنهم سبقوك بالأمس إلى مصر .

٧

جد أيبك فى المسير حتى نزل بالعدلية ، وبلغ الملك الصالح نبأ قدومهم ، فسأل : هل وجدتم معه ميخائيل ؟ فقالوا : لم نجد معه أحداً ، فقال لهم : اذهبوا إلى أيبك وبلغوه : إن كان معه ميخائيل فليخبرنى لأستقبله بموكب ملكى كبير ، وإلا فليرجع من حيث أتى ، أو يدخل المدينة كأحد الناس الذين لا قيمة لهم ، فلما بلغه ذلك جمع أمراءه وقال لهم : إن دخلنا المدينة نهاراً كنا أضحوكة لأهل المدينة وسخرية لهم ، ولهذا أرى أن ندخلها ليلا ، ونأوى إلى بيوتنا ، فإذا طلع النهار ذهبنا إلى الملك فى ديوانه وقلت أنا له : إنك ألزمت بيبرس بإحضار ميخائيل ، وليس لنا فى هذا الأمر إلا أن نساعده ونعينه ، وما رجعنا إلا بأمره وإذنه . وأنتم تؤيدون قولى ، وتشهدون به ، وتحلفون على صدقه ، فقالوا : ما أحسن ما رأيت ! وذلك ما فعلوه .

وفى الصباح جلس الملك فى ديوانه فقال : سبحان المنجى من المهالك يا شاهين ، جزاؤهم على الله ، ومن زرع المعروف جنى خيراً ، ومن أسر سريرة ألبسه الله رداءها ، فقال الوزير : ماذا تريد يا مولاى ؟ فقال : هربت الطيور ، وتركت الطير وحده ، والطير أتى بالاثنين ، فقال الوزير

لا إله إلا أنت سبحانك أنت علام الغيوب ، ثم دخل أيبك والأمراء ، فقال الملك : حمداً لله على سلامتكم ، أين بيبرس يا أيبك ؟ فقال : إنه قادم على آثارنا ، فقال : هل أتيتم بميخائيل ؟ فقال أيبك : نحن ذهبنا من عندك إلى بيت المقدس ، وأعطينا بيبرس كتابك ، ثم سرنا معه إلى القسطنطينية ، وعسكر على شاطئ البحر المواجه لها ، وما استطعنا أن نعبر البحر ، وبعد مدة طويلة أقمناها قال بيبرس : هذه حال لا تطاق ، فقد أهلكنا البرد وأفزعتنا العواصف وعلت أجسامنا الأوساخ ، وما دمنا لا نستطيع الوصول إلى القسطنطينية لأن البحر مغلق بالسلاسل ، فلا فائدة من بقائنا ، فهيا للرحيل ، فقلت له لا بد من المقام فى هذا المكان حتى تتاح لنا فرصة للحصول على ميخائيل وأخذه إلى الملك ، فقال : لن أقيم ساعة بعد ذلك ولا بد من الرحيل ، فلما خالفنا رحلنا وتركناه وسبقنا بالحضور إليك ، وقد لقينا الفرتماكوس فحاربناه ورجاله وانتصرنا عليه ، ولولا أنه هرب لجئنا به أسيراً ، أما بيبرس فقد شغلته وليمة الفداوية أبناء إسماعيل . وهذا ما جرى قصصته عليك .

وكان فرح القاضى برجوع بيبرس من غير ميخائيل عظيماً ، فقال : إن أمر الملك واجب التنفيذ والاحترام ، وإن لم يأت بيبرس بميخائيل فليس له عندك إلا السيف ، فقال الملك : وأنا عند رأيك . وسمع الملك صوت مدفع فقال : ما الخبر ؟ فقالوا : وصل الأمير بيبرس ، فأمر أن يستقبله الموكب الملكى ، وفيه الوزراء وجميع الأمراء ، وصاح الملك قائلاً : قم أنت يا أيبك وأمراؤك

واستقبلوه فى الموكب ، فسار أيبك وجماعته ، وكانوا موضع سخرية الناس واستهزائهم وهم سائرون ، فلما وصلوا إلى العدلية سلموا على بيبرس ، وسألهم : أين كنتم ؟ فقالوا : سبقناك إلى بيوتنا لنغير ملابسنا ، فسكت بيبرس ، ولما وصلوا إلى الديوان نزل بيبرس عن جواده ، ودخل إلى الملك الصالح فى ديوانه ، ودخل الوزراء والأمراء ، وسلم بيبرس على الملك وحياه ، ودعا له الملك فقال : اللهم عمر بك الأرض ، وأهلك أعداءك وكل من يبغضك ، أين ميخائيل يا بيبرس ؟ فقال : خذ هذه الحجة يا مولاى واقرأها ، فأخذها وقرأها على مسمع الحاضرين ، وكانت الحجة التى كتبها أيبك وأمراؤه عند ما أرادوا الرحيل تاركين بيبرس على شاطئ البحر ، ثم قال الملك لأيبك وجماعته : إنكم ذكرتم فى قصتكم قولا غير الذى كتبتموه فى هذه الحجة بأيديكم ، فسكتوا ولم ينطقوا بكلمة واحدة . فقال الملك : فأين ميخائيل ؟ فنادى الأمير : يا عثمان ، وإذا به داخل الديوان ومعه ميخائيل والفرتماكوس ، كأنهما قردان فى يد مدربهما ، فكاد القاضى وأيبك وجماعته يصعقون من الخزى والغم ، ولما وقفا بين يديه قال لميخائيل : أأنت الذى سترسل إلىّ حملتين برية وبحرية ، فقال : وحق المسيح ما أعلم بهذا وما زلت على عهدى لكم من الصداقة والولاء ، فقال الملك : سأحضر أمامك الأربعة الذين أرسلتهم إلىّ بكتابك ، فقال : وما أرسلت كتاباً ولا رسلا ولا أدرى شيئاً . فأمر الملك بإحضار الأربعة من سجنهم ، فذهبوا إليهم فوجدوهم قد ماتوا . وكان القاضى قد خشى أن يكشفوا حقيقة الأمر فدس لهم السم

فى طعامهم . فلما بلغ الملك موتهم غضب وثار ، وقال خذوا هذين اللئيمين واقتلوهما ، فنظرا إلى القاضى نظرة فهم منها أنه إن لم يشفع فيهما فضحاه أمام الملك وأخبراه ، وأنه هو الذى يدبر هذه المكايد . فأشار إليهما أن يستجيرا به ، فقالا : إنا مستجيران بقاضى المسلمين ومستشفعين به ، فقال القاضى : يا مولاى . من الهين علينا أن تصاب جسومنا ، وتسلم أعراضنا وعقولنا ، ولا ينبغى أن نضيع فرصة فى أيدينا تعود علينا بالربح الوفير والمال الكثير ، وقتل هذين الرجلين لا يفيدنا فى قليل ولا كثير ، ولكن الرأى أن نبيع لهما أنفسهما بالمال، فقال الملك: لا بد من قتلهما ، فقام القاضى إليهما وجعل يسبهما و يشتمهما ودنا منهما فبصق فى وجه كل منهما وأسر إليهما حينئذ أن اطلبا من الملك أن يقضى فيكما بحكم الإسلام ، ثم جلس ، فقالا أيها الملك: إن لكم ديناً تحكمون به بين الناس ، فاقضوا فينا بحكمه . فقد رضينا بما يقضى به الإسلام ، فقال الملك: ومن علمكم هذا؟ فقال القاضى : إن عندهم بطارقة ورهباناً يعلمونهم الأحكام . فقال الملك للقاضى : اقض فيهم بحكم الإسلام. فتقدم إليه ميخائيل فسأله : ما اسمك؟ فأجاب : اسمى ميخائيل ملك القسطنطينية ، فقال القاضى : ولم أرسلت كتاباً إلى الملك تهدده وتنذره؟ فقال : وحق دينى وما أعتقد فى ملتى ما أرسلت كتاباً ولا أعلم به، فقال القاضى : خذوه وهاتوا الثانى. فلما وقف بين يديه، قال له : ما اسمك ؟ فأجاب : اسمى الفرتماكوس ملك أنطاكية، فسأله : ولماذا وقفت لبيبرس فى الطريق وحاربته؟ فقال : أرسل إلى وزير ميخائيل بذلك،

وهو زوج أختى ، وقد كبر عندى أخذه أسيراً . فقال القاضى : يا مولاى هؤلاء معذورون ، ومن الجائز أن يكون لهم عدو ، فكر بهم ، وأثار الفتنة بينك وبينهم وهم لا يعلمون، فقال الملك: كل من فعل ذلك لا أماته الله إلا محروقاً بالنار. فقال الحاضرون: آمين، وقال القاضى معهم: آمين . ثم قال : وأرى أن يفتدوا أنفسهم بالمال ، فقال ميخائيل : اشترى كل واحد منا نفسه بثلاث خزنات من المال . فقال الملك : رضيت بذلك فأين المال ؟ فقال : اكتبوه علينا إلى أن نصل إلى بلادنا ونرسله . فقال الملك : يأخذكما القاضى عنده ، على أن يكون المال مطلوباً منه ، لأنه هو الذى شفع فيكما . فقال القاضى : سمعاً وطاعة ، ثم أخذهما ومضى بهما إلى داره فرحاً بنجاتهما. ثم أحضر الصيارفة الذين يعاملون جميع البلاد فى الأقطار. فأخذ منهم المال المطلوب، واقترض منهم خزنتين من المال لنفسه . وفى اليوم الثانى أحضر إلى الملك المال المطلوب واستأذنه أن يرحلا إلى بلادهما فأذن لهما ورحلا .

ولما كمل مجلس ديوانه أحضر بيبرس وقال له: لقد تعبت كثيراً فى هذه الرحلة وأنفقت فيها كثيراً من الأموال . فخذ هذه الخزائن من المال منى ، هبة كريم لا يرجع فى عطائه ، ذلك ولك ما غنمت من أنطاكية أيضاً ، فتألم القاضى ، وقال : كتب علينا الحرمان ، كما كتب لبيبرس الغنى والثراء . ثم قام الملك وانفض المجلس .

٨

وفى اليوم الثانى جاء الملك إلى الديوان فقال : سبحان المنجى ، سبحان مالك الملك ، سبحان مسبب الأسباب ، سبحان الهادى الضال ، سبحان المعز المذل ، ثم جاءه رسول من صاحب الإسكندرية ، فقال له: سبحان هادى الطير ، فقال : سبحان عالم الغيب ، فقال : إن صاحب الإسكندرية يقول لك : ظهرت على المدينة فى البحر سفينة حربية كبيرة ، فصوبنا إليها المدافع ورفعنا لها راية الأمر بالوقوف مكانها ، فرفعت لنا راية الأمان والسلام ، فأمرناها بالقدوم إلى الميناء ، وخرج منها رجل يقول : إن هذه السفينة فيها وزير ملك جنوا ، ومعه مائة بطريق وهدية و « فَرَمان » من ملكه بأن يكون تابعاً لك يؤدى لك الخراج كل عام، ومعه خمسة آلاف دينار ، وخزانة من المال ، وهو طالب أن يصاهرك، فإن أردت أرسلناهم إليك ، وإن أردت طردناهم ، وقد بعثنى لأبلغك وتكتب إليه بما تشاء. فقال الملك : يا شاهين ، هؤلاء أناس لا صلة بيننا وبينهم ، فما الذى رغبهم فى مصاهرتنا ؟ فقال : لأنك أعظم الملوك وأفضلهم ،ولأن دينك أفضل الأديان، وهو الذى كفل للناس سعادتهم فى الدنيا والآخرة ، وإن اتصالهم بنا بالمصاهرة وغيرها نوع من الدعوة إلى دين الله ، ونحن مأمورون أن ندعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، فقال الملك : اكتبوا له بأنى رضيت أن يجىء الوزير إلى مجلسى هذا ، وأن يأذن صاحب الإسكندرية للسفينة أن تدخل إلى نهر النيل لتأخذ

سبيلها فيه إلى بولاق، وهناك ينزلون منها ويجيئون إلينا ، فكتب الوزير ذلك إلى صاحب الإسكندرية ، وأخذ رسوله الكتاب وطار إليه ، ولما أعطاه كتاب الملك وقرأه . نفذ ما فيه ، وسارت سفينة الوزير حتى كانت ببولاق . ثم نزل من فيها وحضروا بين يدى الملك فى ديوانه ، واستقبلوا استقبالا كريماً، وسألهم الملك : ما حاجتكم ؟ فقال الوزير : إن لملكنا بنتاً جميلة ، وكانت قد مرضت ، فنذر للمسيح إن شفاها زارت البنية المقدسة فى بيت المقدس،وقد بلغنى أنك أغلقتها،فجئت بها راجياً أن تأمر بزيارتها ، وتكلف من يحرسها من يافا إلى بيت المقدس ذهاباً وعودة ، وقد جعلت لمن يحرسها خمسة آلاف دينار ،وأما الخزانة والهدايا « والفرمان » الذى يقضى بأن يكون الملك من أتباعك الذين يؤدون لك الخراج كل عام ، فهى هبة منه لك . فقال الملك لوزيره شاهين : ما رأيك فيما سمعت ؟ فقال : إن الإسلام دين الخلق الكريم ولين الجانب ومعاملة الناس بالحسنى سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين ، وأرى أن نسهل للفتاة السبيل إلى زيارة البنية ، ونأخذ من أبيها هذه الأموال التى تنفع المسلمين فى شئونهم العامة ، فقال الملك : ولكن ذلك يدعو إلى فتح البنية بعد أن أغلقتها ، فقال : ما علينا فى ذلك من بأس ، فأنت الذى أغلقتها باختيارك ، وأنت الذى فتحتها مختاراً متفضلا ، فقال الملك : اكتبوا إلى على الغمرى صاحب بيت المقدس أن يفتح البنية المقدسة ، وأما أنت يا بيبرس فخذ الدنانير ، وامض بها إلى كبير الفداوية ليقوم بحراسة الفتاة

من يافا إلى بيت المقدس ذهاباً وعودة ، فقال بيبرس : سمعاً وطاعة : وعند ذلك وجد القاضى فرصة قد تسهل له السبيل إلى النكاية بيبرس فقال : نحن لا نعرف كبير الفداوية ، ولكننا نعرف بيبرس الذى هو صديق للفداوية ومعروف عندهم فليكتب لنا حجة بأنه ملزم بحراسة الفتاة ، حتى يكون هو المسئول عنها أمامنا ، فقال بيبرس ـ إنهم أشراف وأنا ضامن لهم ، ثم كتب بيبرس حجة بذلك وأخذها القاضى . ليكون بيبرس مسئولا ما دامت الحجة قائمة . ثم استأذن الوزير وانصرف ، وسأل الملك شاهين عن اسم كبير الفداوية فقال : اسمه معروف بن حجر بن أسد ، فقال اكتبوا له بذلك ، فكتب الوزير الكتاب الآتى :

من الفقير إلى الله تعالى الملك الصالح أيوب إلى ولدى معروف بن حجر سلطان القلاع والحصون ، أما بعد فإنا نريد منك أن تحرس بنت وزير جنوا من يافا إلى بيت المقدس ذهاباً وجيئة ، وقد أرسلنا أجرتك مع ولدنا بيبرس ، ومقدارها خمسة آلاف دينار ، ولك منى بعد ذلك الدعاء ، ومن الله القبول . والسلام . وأعطى بيبرس الكتاب والدنانير ، ووهب له بقية المال ، وأمره أن يمضى إلى معروف كبير الفداوية ، فخرج بيبرس من الديوان ، ولقيه عثمان فقال له : إلى أين ؟ فحكى له ما حصل ، فقال عثمان : لن تجد عند معروف هذا خيراً ولا معروفا ، فقال بيبرس : ولم ذلك يا عثمان ؟ فقال : ذلك ما جرى . فقال بيبرس : سر بنا إليه ، لا شأن لك . فقال عثمان : خذ لنا معك شيئاً نأكله ونقتات به ، لأن

الطريق طويل ، وليس فيه طعام .

فقال بيبرس : لا تحمل لطعامنا همًّا . فسر بنا واعتمد على الله الذى يرزق الأجنة فى بطون أمهاتها . فقال عثمان : لا حول ولا قوة إلا بالله ، إن الأعمى لا يرى ، فسار بيبرس وعثمان معه حتى وصل إلى قلعة سليمان الجاموس ، فوجد أبوابها مغلقة ، فسار إلى دبل البيسانى فوجد قلعته مغلقة الأبواب ، فذهب إلى حوران ، فرأى الفداوية جميعهم ماشين فى قيود وأغلال من حديد ، فأوى إلى مكان بعيد عنهم وقال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، ما لإخوانى هؤلاء يرسفون فى القيود والأغلال ؟ فقال عثمان : أنت سبب نكبتهم هذه ؟ فقال : وكيف كان ذلك يا عثمان ؟ قال : ولتعلم الآن أن صحبتك شؤم ، والصلة بك وخيمة العاقبة ، فقال بيبرس لا بد من السير خلفهم حتى أتبين أمرهم ، وأحاول بقدر ما أستطيع تخليصهم ، وكشف الضر عنهم ، فلما دنا منهم رآه حسن الحورانى فعرفه وأومأ إليه أن ابتعد عنا ، وانج بنفسك ، وإلا وقعت فيما وقعنا فيه ، فتركهم ومشى فى الخلاء حزيناً آسفاً ، وعثمان يقول : أنا جوعان . . . فقال له : اصبر يا عثمان ، فقد أنستنى نكبة الفداوية الطعام والشراب ، وبينما هو سائر لقيه فارس ملثم فقال له · هات أجرة الخفر . فقال بيبرس : وما الذى خفرته معى حتى تأخذ أجرته؟ فقال الفارس : معك ثيابك وجوادك ورأسك الأقرع . قال : ولكنى لا أملك الآن مالا ، فكشف اللثام عن وجهه فإذا هو السيل بن ملهب ، فقال : ولم وقفت فى هذا الخلاء ؟ فقال : بلغنا أنك جئت من

مصر إلى قلاع الفداوية ، فوقفت هنا أنتظرك ، خشية أن يصيبك مكروه فانج بنفسك قبل أن تحل عليك نكبة الفداوية . فقال : وماذا جرى حتّى حلت بهم تلك النكبة ؟ فقال : احلف لى أولا أنك لا تخبر أحداً أنى قابلتك ، فحلف له ، فقال الفارس : كان لنا ملك اسمه حجر بن أسد أعقب رجلين : إسماعيل أبو السباع . ومعروف وهو الأصغر ، فاغتالته أسَدة فى الغابة وقتلته ، فجاءوا به ودفنوه . وبكى عليه إسماعيل ومعروف ابناه بكاء مرًّا ، وكان إسماعيل يألف السباع وتألفه ، فاجتّهد أن يعرف الأسدة التى قتلت والده ، ولما عرفها أتى بها من الغابة موثقة فى أغلال من حديد ، وصلبها وأحرق جسمها ، على مشهد حافل برجال ملكه ، ثم أضرموا النيران على رءوس الجبال فاجتمع الأمراء وتحدثوا فيمن يولونه الملك بعد أبيه وانتهى رأيهم إلى اختيار إسماعيل أبى السباع ، لأنه الأكبر ولكن معروفاً اعترض على رأيهم هذا قائلا : إن أخى وإن كان أكبر منى ولكنه مشغول برياضة السباع وقضاء وقته فى الخلاء ، فهو ليس كفئاً للملك من هذه الناحية ، ومن ناحية أخرى فهو ليس أشجع منى ولا أشد قوة فى مواقف القتال والمناجزة ، ولهذا كنت أحق بالملك منه ، فإن رضى بذلك وإلا كانت المناجزة الفاصلة بينى وبينه ، فمن غلب منا كان الملك له ، فقالوا : ذلك أمرٌ ما نقره ونسير عليه ، فقال أخوه : لا حاجة بنا إلى المناجزة ، فإنى أقل منك شجاعة ، وأضعف قدرة عليها ، وقد تركت لك الملك ، لأنك كفء له ، وأصلح لشئونه منى ، فتولى معروف الملك وقام على

شئونه بالعدل والحكمة حتى ذاع صيته ، ومضت الأيام حتى عرفتهم وعرفوك ، فصار كلما سأل عن واحد منهم وجده عندك ، وكلما احتاج إلى أحد قالوا : عندالأمير بيبرس ، فغضب وتألم ، وسكت على مضض وألم ، ولما أراد أن يجمعهم لينظر فى أمرهم وجدهم عندك . فأمر بإحضارهم إليه فى الأغلال والقيود ، وقد رأيتهم وهم ماشون إليه ، ولا ندرى ماذا يفعل بهم . وأرى أنك لا تذهب إليهم ، لأنى أخشى أن يصيبك ما يصيبهم ، فقال بيبرس : فهمت القصة ، وأشكرك ، ولكنى أحب أن تدلنى على الطريق وما عليك منى ، فقال : طريقكما هذا . وأشار إليه ، ثم غاب فى البرية بين آكامها ووديانها ، وسار الأمير طالباً حصن صهيول حتى وصل إليه ، فوجد الأتباع مجتمعين ، والخيل ترعى ، ومن حولها الرعاة تخدمها وتقوم بشئونها ، فسألهم : أهذا حصن صهيول ؟ فقالوا : نعم ، فقال : امسك يا عثمان الجواد حتى أدخل الحصن وأعود إليك . فقال عثمان : امسك أنت الجواد ودعنى أدخل إلى خالى معروف ، فقال : لا تخالفنى يا عثمان ، فقال : لا بد من دخولى معك وأحمل هذه « الشكمجية » وهى التى — فيها خمسة آلاف دينار — فقال : ومن يمسك الجواد يا عثمان ؟ فقال تابع من أتباعه : ادخل يا سيدى ، واترك الجواد يأكل ويشرب وينام ويمرح ، فهو فى حراسة رجال خواند ، ومهما تغب عنه فإنك واجده فى سلامة إن رجعت إليه ، لأنه فى حراسة معروف بن حجر ، ملك القلاع والحصون ، ففرح بيبرس ودخل وعثمان من ورائه يحمل

« الشكمجية » فاعترض سبيله جماعة من الأتباع المسلحين. وقالوا : من أنت ؟ وإلى أين تريد ؟ فقال : أنا رسول سيد ملوك المسلمين ، ومعى كتاب منه إلى ملككم معروف ، فقالوا : انتظر هنا حتى نستأذن لك ، ومضى الغلمان إلى الملك معروف ، وقالوا : رسول ملك المسلمين يريد أن يجىء إليك ، فرجعوا إليه وأخذوه ومضوا به حتى دخلا عليه فوجداه جالساً وسط الرجال فى مقصورة من العاج ، يتلألأ وجهه كأنه القمر ، الرجال من حوله صامتون خاشعون كأن على رءوسهم الطير ، لا يقدر أحدهم أن ينبس ببنت شفة. فلما كان أمامه قال : من أين؟ وإلى أين؟ فقال : أنا رسول ملك المسلمين الملك الصالح ، فسكت ساعة والأمير بيبرس واقف ينتظر ، فما تكلم الملك وما تكلم أحد ممن حوله ، فتقدم عثمان إليه ووضع « الشكمجية » بين يديه ، فشعر معروف بحب عظيم فى قلبه إلى عثمان . فقال عثمان : إن أمامك بيبرس ، وقال معروف لبيبرس : من أنت؟ فما خاف ولا وجل ، وقال : أنا بيبرس رسول ملك المسلمين إليك ، فقال : وهل لك اسم غير هذا ؟ فقال : أنا بيبرس محمود الخوارزمى ، فصاح صيحة أخرى وقال : اذهبا من قدامى ، وخرج بيبرس وعثمان من خلفه ، وركب جواده ومضى إلى سبيله فى البرية ، فقال عثمان : أنا جوعان . فقال : اصبر يا عثمان حتى يأتينا رزقنا ، وساراو إذا هما بفارس قد أقبل من البرية وهجم على بيبرس ، فتلقاه وانطبقا كالجبلين ، وتناجزا مناجزة معدومة النظير ، فلما أعياه القتال قال للأمير بيبرس : سلام عليكم . فقال : عليكم السلام . ثم

ذهب وغاب كأنه لم يكن ، وجاءه فارس ثان ففعل به ما فعله فى الفارس الأول ، وجاءه فارس ثالث ، وبارزه مبارزة عنيفة وهو قادر على أن ينتصر عليه ، فنزل عن جواده . ونزل بيبرس مثله عن جواده ، فقال الفارس إنك يا بيبرس جدير بأن يحبك الرجال ، ويجتمعوا بك ، ويناصروك ، ويهجرونى فلا تؤاخذنى بذنبى ، فإن الذى وصفك لى ما أبان لى منك إلا قيراطاً واحداً من ألف ، فلو أضفتنا لوجدتنا نحن الضيوف وأنت رب المنزل ، فقال بيبرس : إنك الملك معروف وإنك لجدير بالملك ، وسار إلى الحصن ثلاثتهم : معروف ، وبيبرس ، وعثمان . فجلس معروف فى ديوانه ، وبيبرس بجانبه ، وعثمان قدامهما ، وقال معروف : لا تؤاخذنى أيها الأمير بما فعلته مع إخوانك ، فأنت أهل للعفو والصفح ، وكان لى عذرى ، لأنى كلما سألت عن واحد منهم أوسألت عنهم جميعهم قيل لى : إنهم عند بيبرس فى حلب أو فى مصر أو أنطاكية ، فغاظنى أمرهم . وأحضرتهم وقلت لهم كل من اتصل منكم ببيبرس قطعت رأسه ، وأرقت دمه ، لأنى ما كنت أعرفك حق المعرفة ، ولما جئتنا وعرفناك علمت أن لهم الحق فى أن يهجرونى ويذهبوا عندك ، وقد أصبح من الآن رجالى رجالك ، وأنا أخوك فى الله وعهده ، بما يرضى الله ورسوله ، فقال بيبرس : شأنك وما تريد . فدعا معروف بسليمان الجاموس ، وقال له : أوثق العهد بيننا ، فقبض على يديهما متصافحين وقرأ الفاتحة وأوثق عهد الله بينهما على أنهما أخوان فى الله ، والله شهيد عليهم ، وأمر معروف

بإخلاء سبيل الفداوية وبالطعام فحضروا وأكلوا وشربوا ، ثم ناوله بيبرس كتاب الملك فلما قرأه قال : لن يقوم بحراسة الفتاة أحد غيرى ، وأما المال فخذه لك ، فلن آخذ منه شيئاً ، ثم أمر أن توقد النيران على الجبل . إيذاناً بدعوة السلاطين أتباعه بالاجتماع به ، فلما حضروا أكرم نزولهم وقال لهم : أشهدكم أن بيبرس هذا من أعز إخونى وأصدقائى ، فمن أطاعه منكم فقد أطاعنى ، ومن عصاه فقد عصانى ، ثم ذبح الذبائح وأقام الولائم ، إكراماً لبيبرس وحفاوة به ، ثم انصرف السلاطين إلى قلاعهم وحصونهم ، وبعد عشرة أيام استأذن بيبرس فى الرحيل فأذن له وودعه ، ومضى بيبرس ومعه عثمان طالبًا أرض مصر . ورجع معروف فاستخلف وكيلا عنه ، ورحل هو نفسه ومعه قليل من رجاله إلى يافا .

وقال بيبرس لعثمان فى طريقه : لقد ظهر لى من معروف هذا الكرم والهيبة وعلو المقام ، ولقد أحببته حبًّا كثيراً ، والحمد لله الذى جعله من أصدقائنا وأنصارنا ، واستمرا سائرين حتى وصلا إلى ديوان الملك فدخل بيبرس وسلم . فقال الملك : أهلا وسهلا ، اللهم عمر بك الأرض ، ماذا فعلت ؟ قال : كل خير بعون الله وبركة دعائكم ، وناوله كتاب معروف . فقرأه ووجد فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من خادمكم وتابعكم معروف ابن حجر ، وبعد فقد جاءنى كتابكم وقمت بما فيه ولا أزال لكم خادماً أميناً وأرجو منكم صالح الدعاء والسلام . ففرح الملك وأمر بيبرس بالجلوس فى مكانه من المجلس .

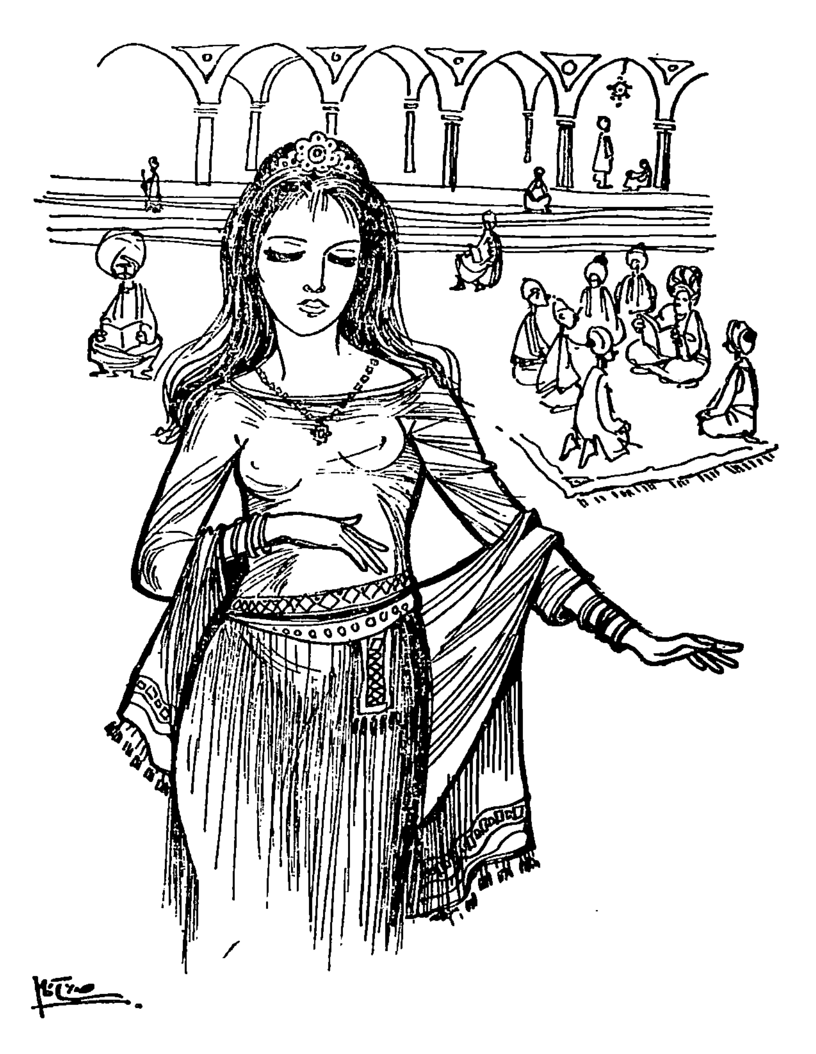
لبث معروف ينتظر فى يافا هو ورجاله خمسة أيام ، وفى اليوم السادس أقبلت مريم الزنارية فى سفينة ذات ستائر من الحرير ، ومعها كثير من الأموال والجواهر ، لتغمسها فى ماء المعمودية ، ومعها مائة من البطارقة ، فأرسل إليها رجلا من رجاله يخبرها أن الخفير الموكل بحراستها فى انتظارها ، فلما ذهب إليها وأخبرها قالت له : إن كنت أنت الخفير فإنى راجعة إلى بلادى لأنك قبيح المنظر ولا تعجبنى ، وإن كان الخفير رجلا غيرك فليحضر إلىّ حتى أراه قبل أن أسير معه ، فرجع الرسول إلى معروف وبلغه كلام مريم الزنارية ، فنهض سائراً إليها ، وكان جميلا حسن القوام ، فلما وصل إلى السفينة وجد مريم جالسة كأنها القمر فى السماء فأطرق حياء وخجلا ، ولما رأته فرحت به وأحبته لأول نظرة ألقتها عليه ، فنهضت واقفة وقالت : أنت خفيرى ؟ فقال : نعم ، فقالت : مرحباً بك ، اجلس يا سيدى ، فجلس وهى شاخصة إليه ، وهو مطرق برأسه ، ثم قامت إلى الطعام فأحضرته هى نفسها ووضعته بين يديه ، وإن قلبها ليستعر حبًّا ، ثم جلست إليه وقالت : ما اسمك ؟ فقال : معروف . فقالت : أنت معروف ومن أهل المعروف فكل مريئاً واشرب هنيئاً ، وعرضت عليه خمراً ، فقال : ما شربتها منذ الصغر ، ثم أمرت وزير أبيها أن يضرب الخيام فى البر ، ففعل ما أمرت ، ثم نزلت فى خيمتها ونزل كل فى خيمته ، وجلس معروف على باب مضربها وهى شاخصة إليه ، لا تلتفت إلى أحد غيره ، ولما جن الليل نام معروف ووقف أتباعه بأسلحتهم عند رأسه ،

ولكن مريم ساهرة لم تنم ، فلما انتصف الليل خرجت إلى معروف وأيقظته بلطف ورقة وقالت : أمن أجلى تتحمل هذه المتاعب ، وتنام خارج المضارب ، قم وادخل خيمتى ، فقال : ولم ذلك ؟ فقالت : إننى أشعر بقلق هذه الليلة ، وأنت خفيرى فلا تخالفنى ، فقال لها : لا تخافى ، فقد استيقظت وسنقوم بحراستك أنا ورجالى ، فادخلى خيمتك واطمئنى ، فقالت : وحق المسيح لا بد أن تدخل خيمتى ، ولن أدخلها حتى تدخل معى . فلم يجد معروف مفرًّا من إجابتها إلى ما طلبت ، ودخل الخيمة واستقر فيها مجلسه ، فقالت له : يا معروف ، أقسمت عليك بحق نبيك أن تخبرنى عن أصلك وحسبك ، ومن أنت من المسلمين ؟ فقال لها : أنا معروف بن حجر بن أسد، يتصل نسبي بعلى بن أبى طالب رضى الله عنه ، وأنا سلطان الرجال ، ولولا أن لك عناية من الله ما أتيت إليك أبداً، فإنه لم يسبق لبنت من بنات الإفرنج أن يحرسها ويخفرها سلطان الرجال ، فقالت له : هل لك زوجة ؟ فقال : ما تزوجت أبداً ، وما زالت تتحدث إليه حتى طلع النهار . فقام وصلى الصبح وجلس يذكر إلى الضحى، ثم أمر بالرحيل إلى البنية المقدسة ، وسار معروف إلى جانب هودجها شاهراً سيفه حتى وصلوا إلى بيت المقدس ونزلوا فيه ولبثوا ثلاثة أيام ، وفى اليوم الرابع أخذها معروف إلى البنية المقدسة وأدخلها ووقف على بابها ، وكانت البنية قد فتحت أبوابها من قبل تنفيذاً لأمر الملك الصالح. وجدت مريم الزنارية البنية مملوءة بالبطارقة والرهبان والقسيسين ،

ووجدت واحداً منهم قد جلس وفى يده كتاب ومن حوله جماعة يسمعون ما يقوله لهم : انظروا يا أولادى : ما أقل عقل المسلمين ! ! وما أجهلهم ! ! إنهم يأكلون لحم الضأن ويتركون لحم الخنزير ، إنهم يشربون عصير الليمون والبرتقال ولا يشربون الخمر . وهكذا جعل يلغو ويهذى ويقول قولا لا معنى له . ولم ينل من مريم قبولا وسألها : من أنت ؟ فقالت : مريم الزنارية بنت صاحب جنوا . فقال : مرحباً بك ، وماذا تريدين ؟ فقالت : رأيت حلماً وأريد تأويله ، فقال : اذكريه لى وأنا أفسره ، فإن عندى كتاب تفسير الأحلام لسيدك زرارة ، وبرسوم ، فقالت له : وجدت نفسى فى واد قفر شديد الحرارة ، واشتد بى العطش فسرت فى هذا الوادى فوجدت بحراً أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى مذاقاً من العسل . فأخذت منه غرفة بيدى وشربتها فانطفأت نار العطش ، وشعرت براحة فى جسمى ، وعافية فى بدنى ، ونور فى فؤادى ، ثم خرجت من فمى ذبابة سوداء فى حجم النحلة ، وسقطت على الأرض والتهبت النار فيها . وبينما أنا أنظر إليها وهى تحترق دخلت ذبابة بيضاء فى فمى واستقرت فى جوفى ، طيبة بها نفسى ، ونظرت إلى البحر فوجدت فيه مركباً فركبت فيه وسار بى حتى نقلنى إلى الشاطئ الآخر ، فرأيتنى فى واد فسيح مخضر الجنبات كثير الأشجار والأنهار . فجلست تحت شجرة عالية ، وكان النسيم عليلا ، فاضطجعت قليلا ، وهبت الريح فكشفت عن ساقى ونزل طير من أعلى الشجرة فنقرنى بينهما ، فكبر بطنى وعلا ، ثم خرج

منه طير أبيض صغير فرحت به ، وأردت أن ألعب به وأتسلى . فانقض عليه طير أسود خطفه من يدى وطار به . وغاب عن عينى ، فجعلت أبكى حتى انتبهت من منامى ، وهذا ما رأيته ، فما تأويله ؟ فقال : أما الوادى القفر فهو الوادى الذى لا نبات فيه ولا ماء ، وأما الوادى الأخضر فهو دين النصرانية ، والبحر الذى شربت منه حوض ماء المعمودية ، والمركب الذى ركبت فيه السفينة التى حملتك من بلادك ، والذبابة السوداء ذبابة سوداء خرجت من فمك ، والذبابة البيضاء دليل على قبول زيارتك هذه ، والطير الذى نقرك بين ساقيك تفسيره أن أقوم وأخلو بك لتحملى منى بولد تفرحين به . فأدركت أنه يهذى وسكتت ، فقال لها : قومى معى إلى الخلوة ، والتمسى منى البركة ، فنهضت قائمة وصفعته على وجهه بيدها وتركته وهى تجرى ، فتبعها اللئام يريدون القبض عليها ، حتى خرجت من البنية المقدسة ، ودخلت مسجد بيت المقدس ، فكفوا عن متابعتها ، ولطموا وجوههم وقالوا : دخلت مسجد المسلمين . فقال البطريق دعوها فقد غضبت عليها .

دخلت مريم الزنارية المسجد وجعلت تنظر فيه هنا وهناك . فوجدت الأستاذ النووى وأصحابه من أهل العلم والمعرفة . وكان يدرس العلم لطلبته الجالسين من حوله . فجاءت إلى واحد من الطلبة وقالت : أهذا بطريق المسلمين ، فصاح فيها قائلا : قبحك الله ، أتقولين للشيخ إنه بطريق ؟ ! فأدرك الشيخ النووى ما حصل وقال للطالب : وماذا عليها لو قالت : إنى



مريم الزنارية فى المسجد

بطريق المسلمين ، أما تعلم أنها جاهلة بديننا ولا تعرف عنه ولا عن أسمائنا شيئاً ، وعليك أن تسألها عما تريده من بطريق المسلمين ، وبلغها ذلك بأمرى وعن لسانى ، فقال لها الطالب : ما تريدين من بطريق المسلمين فقالت : رأيت فى منامى حلماً وأريد تفسيره ، فبلغ شيخه ما قالت فقال الشيخ : خذ هذا الرداء لتلتف هى به . وتجلس خلف ظهرى حتى انتهى من درسى ، ثم أستمع لها وأفسر لها رؤياها . فامتثلت وجلست تسمع ما يقوله الشيخ النووى ، وهى فرحة وتعقل ما تسمع ، ولما انتهى من الدرس قال : والله أعلم . ثم التفت إلى مريم قائلا : يا بنتى ، خيراً تريدين إن شاء الله ، فقصت عليه رؤياها كما قصتها على القسيس ، فابتسم وقال : ما شاء الله ، إنها رؤيا تبشر بالخير ، واعلمى أن الوادى القفر هو دين الكفر وقد أنقذك الله منه ، وأما الوادى الأخضر فهو دين الإسلام ، والذبابة السوداء دين الكفر أيضاً وقد خرجت من قلبك إلى حيث لا تعود . أما الذبابة البيضاء التى استقرت فى جوفك فهى كلمة التوحيد ، وهى « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . ويا سعادة من توفى عليها . وأما السفينة فهى سفينة النجاة من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، وأما الطير الذى نزل من أعلى الشجرة فهو رجل من أشرف الرجال يحكم رجالا شرفاء يتزوج منك فى الحال ، وترزقين منه بذرية صالحة ، ولكنها تربى بعيدة عنك ، وهذا تأويل رؤياك . والعلم عند الله ، فإن أردت السلامة والسعادة فآمنى بالله ورسوله ، وادخلى فى دين الإسلام ،وإن

عصيتنى فقد فسرت حلمك ، وامضى إلى سبيلك . فقالت : وكيف أدخل فى دين الإسلام يا سيدى ؟ فقال : أن تقولى بلسانك مصدقة بقلبك : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فأسلمت مريم ونطقت بالشهادتين ، وأشرق وجهها بنور الإسلام . وقبلت يد الشيخ ودعا لها بالخير والصلاح ، قالت للشيخ النووى : أريد يا سيدى أن أتزوج من هذا الرجل الجالس ، وعلى رأسه رداؤه ، وأشارت إلى معروف بن حجر ، وكان قد دخل المسجد للصلاة والاستماع إلى درس العلم ، ومريم فى البنية المقدسة ، فكلف الشيخ أحد الطلبة أن يذهب إليه ويدعوه . فذهب وقال له : أجب دعوة الشيخ النووى ، فنهض قائماً ومشى إليه ، فلما كان أمامه نهض الشيخ واقفاً واحتضنه وقبل رأسه . وقبل معروف يده ، ثم قال الشيخ : لعلك معروف بن حجر سلطان القلاع والحصون ؟ نعم يا سيدى . فقال الشيخ وعزة الله ما أخبرنى بذلك إلا جدك المصطفى ، صلى الله عليه وسلم . وجلس الشيخ وجلس معروف بجانبه ، ثم قال الشيخ : اعلم أن هذه البنت قد أسلمت ، وطلبتك إلى الزواج منها . فماذا أنت قائل ؟ فاندهش معروف وحكى للشيخ قصتها ، فقال الشيخ : لا تطل الكلام ، وسأعطيك فتوى تكون لك حجة على من يعارضك ، وإذا رآها الملك الصالح فلن يقول شيئاً ، وسيكون سروره بكما عظيماً ، ثم التفت إلى مريم وقال : أتريدين لك وكيلا فى عقد زواجك ؟ فقالت : أنت وكيلى فى هذا الزواج من هذا الرجل وفى جميع أمورى ، وقال الشيخ :

وقد رضيت بذلك وقبلت الوكالة، ثم قال لمعروف : أمهرها ، فأخرج من جيبه عقدين من الجوهر قيمة كل منهما خمسة آلاف دينار وقال: هذا مقدم صداقها ، فأخذهما الشيخ وناولهما إلى مريم وعقد العقد على سنة الله ورسوله ، وفرحت مريم بهذا الدين الكريم ، وهذا الزوج الكريم وقالت : إن الأموال والجواهر التى أتيت بها لا تزال كما هى ، وهى عندى كثيرة ، فخذ منى هذين العقدين هبة لك تنفقهما على العلم وأهله ، وتدعو لنا بالخير والسعادة ، فشكرها الشيخ ودعا لها ، ثم كتب الفتوى وختمها بخاتمه وناولها إلى معروف ، وقال : إن أردتما الرحيل فامضيا على بركة الله ، فسلما عليه وخرجا ، وطلب معروف الهودج فأركبها فيه وأمر بالرحيل ، فاستعدوا وساروا يقطعون الفيافى ومعروف فرح ، ولكنه يخشى أن يعكر فرحه هذا تعب .

ولما وصل إلى مفرق الطرق ، أمر الركب أن يتركوا الطريق إلى يافا ، ويسلكوا الطريق إلى حصن صهيول . فقال وزير أبيها : ولم ذلك يا سيدى؟ دعنا نأخذ ابنتنا إلى يافا ، لنمضى إلى ديارنا ، فقال معروف : وهل يرضيك أن تمروا بقلاعنا من غير أن نقوم بواجب إكرامكم ؟ فقال : شكراً لكم ، ثم ساروا فرحين حتى نزلوا بالحصن ، وكانت مريم فى أعلى مكان، وقامت الأفراح، وجعل البطارقة يمرحون ويلعبون ، وهم لا يعلمون، ثلاثين يوماً ، ثم زفت مريم إلى زوجها معروف ودخل بها وأراد الله أن تحمل منه هذه الليلة .

وفى الصباح جاءه وزير أبيها يطلب منه مريم ويستأذنه فى الرحيل ، فقال له : اذهب إلى أبيها وقل له : إن ابنتك أسلمت وتزوجت من السلطان معروف بن حجر . فقال له : إما أعطيتنى مريم وإما قتلتنى ، ولا أرجو منك إلا أحد هذين الأمرين ، فقال له معروف : أما قتلك فهو علينا هين وضربه بسيفه فشقه نصفين . وهاج البطارقة وثاروا فقال لهم : إما نجوتم بأنفسكم وإما قتلتكم مثله . فهربوا من وجهه وطاروا إلى يافا ، ثم أقلتهم السفينة إلى أبيها فدخلوا عليه باكين يلطمون وجوههم فقال لهم : ما خبركم ؟ فقالوا : إن مريم أسلمت وتزوجت من معروف بن حجر ملك القلاع والحصون وقتل وزيرك . ولولا هربنا من بين يديه ما نجا من سيفه أحد منا . فحزن حزناً أليماً . وبكى بكاء مرًّا ، وقام إلى البطارقة فقطع أعناقهم ، ثم كتب إلى الملك الصالح كتاباً ، وبعث به إليه أربعة من البطارقة . فلما دخلوا عليه قالوا : نحن من جنوه ، ومعنا كتاب إليك من ملكها ، فقال للقاضى : خذ الكتاب واقرأه علينا . فقرأه وكان فيه : من حنا ملك جنوه إلى ملك المسلمين . أرسلت إليك ابنتى فى أمان المسيح وأمانك ، فأدخلها معروف بن حجر فى دين الإسلام وتزوج منها وقتل وزيرى فإذا قرأت كتابى هذا فأرسل إلى ابنتى والسلام .

ففرح القاضى إذ وجد فرصة للكيد لبيبرس وقال : يا مولاى ، لقد أرسل حنا ابنته فى أمان الله وأمانك ، وجعلتها فى زمام بيبرس ، ولكنه خفر الذمام ونقض العهد ، فما جزاؤه إلا القتل العاجل ، وقد وهبت لقتله

عشرة مماليك ، وعشرة من الخيل ، وعشرة أكياس من المال ، وعلى الوزير أيبك مثلها . فقال الملك : يا شاهين . أيحل لبيبرس أن ينقض عهدى ويخون من ائتمننى ، ويتفق هو ومعروف على هذه الفعلة ؟ ولكن هات أيها القاضى المال ، حتى نفرغ لعقوبة بيبرس ، فأحضر القاضى المال وأخذه الملك ، وقال : يا شاهين ، سبحان الأول والآخر ، لم يبق عند الرجل شىء أبداً ، أما الرجل فإنه قوى الشوكة ، وكل من أبطل قوله أبطل الله رجاءه . وقد قيل فى المثل : من يكن على الخير فهنئوه ، ومن يمل عن الحق فعزوه . يا شاهين ، أحضر إلينا بيبرس لنحقق معه ، فلما حضر قال له : أهلا بسيدى بيبرس ، أما تدرى ما جرى ؟ فقال : وماذا يا مولاى ؟ فحكى له قصة مريم وإسلامها . فقال : ورب البيت لا أعلم شيئاً منها إلا هذه الساعة من مولاى. فقال الملك : أمرك مفوض إلى القاضى ، فقال القاضى : إنه ملزم أن يحضر إلينا مريم ، كما أنه مسئول عن أى ضرر يصيبها ، فقال الملك : امض يا بيبرس ، فأحضر لنا مريم أو معروفاً لنتبين الأمر ونكون منه على بينة ، فقال : سمعاً وطاعة .

خرج بيبرس غاضباً . فلقيه عثمان ، وسأله عما أغضبه . فحكى له القصة ، فقال : الحق بيد خالى معروف ، فقال : إنه أمرنى أن أحضر مريم أو معروفاً ، فقال : ذلك لا يضرك ، ولكنك ستلمس فيه الخير لك وسترى ، فهيا بنا على بركة الله ، وقال بيبرس : يحسن أن نأخذ معنا هدية إلى معروف ، فقال عثمان : أتطيعنى إن قلت لك على أحسن هدية

تأخذها ؟ فقال : نعم ، قال : خذ بذلة لمولود ومعها مبراة صغيرة وحزام صغير وإبرة ومنشفة واجعلها فى وعاء من جلد وأغلقه عليها ، وقدمه هدية لمعروف ، ثم مره أن يعطى زوجته الهدية، ويوصيها ألا يفارقها هذا الوعاء فى قيامها وقعودها ونومها أبداً ، وهدى الله الأمير فأطاع عثمان وأخذ الهدية التى أشار بها وأرادها .

سار بيبرس ومعه عثمان حتى كان فى قلعة معروف فاستقبله بالحفاوة والإكرام، ولما جن الليل جلسوا يتحدثون فقال بيبرس : أأنت أرغمت مريم الزنارية على الدخول فى دين الإسلام والزواج منك ، أم كان ذلك بمحض اختيارها ورغبتها ؟ فقال : كان ذلك بمحض اختيارها ورغبتها ، وليس لإنسان أى أثر فيه ، وحكى له قصتها وأراه الفتوى التى كتبها الشيخ النووى ، فقال بيبرس : ما عليك من بأس فى هذا ، وسأرجع إلى الملك الصالح وأخبره بذلك، لأنه جعل يلومنى ويلومك ، إذ أرسل إليه أبوها كتاباً يعتب عليه فيه ، ويقول : إنا ائتمناكم وختنتمونا ، وسأجعله يبعث إليه من يؤدبه ، فقال معروف : لا تتعب نفسك فى تأديبه ، ولا يتعب الملك الصالح نفسه فى أمر أبيها ، وسأذهب إليه وأحضره أسيراً ، لنحاسبه على كتابه هذا ، فقال بيبرس : لقد رأيت الصواب فى إحضاره ، ليقف على حقيقة ابنته ، وليعلم أننا لا نزال أمناء أوفياء نرعى العهد ونحفظ الذمام ، ثم تركهم معروف ورحل إلى يافا ليركب سفينة ذاهبة إلى بلدة أبيها ، فلما كان فى يافا جلس على شاطئ البحر ينتظر سفينة فما وجد فيه

سفينة ، ولبث ينتظر إلى الليل فما جاءته سفينة ، فانتحى ناحية على الشاطئ وتوضأ وصلى ركعتين ، ثم جلس يذكر الله ويدعوه أن ييسر له سبيل السفن إلى جنوه بلد أبي مريم ، وبينما هو جالس وقد غرق فى ذكر الله وتسبيحه جاءه مركب صغير وفيه رجل فناداه وقال : تعال يا معروف لأذهب بك إلى حيث تشاء ، فقال له : ومن أنت يا سيدى ؟ فقال : أنا الفقير إلى الله تعالى عبد الله المغاورى ، فركب فى المركب متوكلا على الله . فقال عبد الله المغاورى : باسم الله مجريه ومرسيه ، سر بنا إلى جنوه بإذن الله وعونه ، فما لبث معروف أن وجد المركب أمام جنوه ، فقال عبد الله المغاورى : انزل إلى البر ، وامش بجوار سور قصر الملك وقل : أين أنت يا صاحب الوقت ، فإذا جاء غلام فقل له : إن عريفك الذى أقرأك فى المكتب يقرئك السلام ويقول : هات الأمانة التى عندك ، فإذا جاءك بحنا والد مريم ، فخذه واسكت ولا تسأله عن شيء بعد ذلك ، فقال : سمعاً وطاعة . ثم طلع إلى البر وفعل ما أمره به عبد الله المغاورى حتى جاءه الغلام وأعطاه حنا فى كيس وهو مغمى عليه من البنج . وأخذه وذهب به إلى الشيخ عبد الله المغاورى حيث ينتظره وركبوا فى فلكه وأمره أن يسير إلى يافا فى لمح البصر ، وبعد برهة يسيرة من الزمن كان فى يافا ، فأخذ حنا وقبل يد عبد الله وطلع إلى البر ، ونظر إلى المركب فلم يجده . ومضى معروف به حتى كان فى دير الشفيق ولقى بيبرس فقال له : قد جئتك بوالد مريم فخذه إلى الملك ليفعل به ما يشاء ،



الغلام (صاحب الوقت) فى جنوه

فعجب بيبرس ، وقال : كيف جئت به من جنوه وأنت لم تغب عنا إلا سواد الليل ؟ ما أظن إلا أنك أحضرته من قبل ، وخبأته فى مكان قريب لتأتى به عند طلبه ! فقال : لا وعزة الله وحكى . له ما حصل ؛ فقال بيبرس : وهذا ما حصل لى وأنا أحضر ميخائيل . ولا بد أن يظهر لنا أمر هذا الغلام فيما بعد ، ثم أخرجوا حنا من الكيس وأعطوه شيئاً يبطل أثر البنج ، ولما أفاق قال : أين أنا الآن ؟ فقال بيبرس : أنت عندى أيها اللئيم ؛ أنت الذى كتبت إلى الملك الصالح مدعياً أنى خفرت ذمامك وخنت أمانتك وأكرهت ابنتك على الإسلام والزواج ، وقلت إن معروف ابن حجر شريكى فى ذلك ؟ والواقع أنها هى التى أسلمت وتزوجت باختيارها ورغبتها ؟ ! فدعنى يا معروف لأمضى به إلى الملك ليقتله جزاء كذبه ، فقال معروف : إنه بين يديك فافعل به ما تشاء ، فقال حنا : إنى أستجير بصهرى معروف بن حجر . فعز على معروف أن يستجير به صهره ولا يجيره وقال : أكرمه يا بيبرس من أجلى ؛ فإن العين يكرم لها ألف عين . فقال بيبرس : أما إكرامك فهو أحب شىء إلى نفسى . ولكنى أرى أنه لا بد من المضى به إلى الملك الصالح وهناك يفعل الله ما يشاء ويختار ، فقال : إذا كان الأمر كذلك فإنى أمضى معكما إليه . لأكون أنا وأنت شفيعين له عند الملك ،وهورجل صالح لا يكره أن يعفو عن المسيء . فقال بيبرس : لقد رأيت فأحسنت . فوصى معروف أتباعه بمريم والمحافظة عليها ، وركبوا إلى مصر وحنا معهم فى حراسة عثمان .

٩

جلس الملك فى ديوانه وقال : يا شاهين ، اجتمع الطائر بالطائر ، وأحضر الطائر الطائر الأسود ، والحق يعلو ولا يعلى عليه ، وسبحان القادر المقتدر ، وما فرغ من قوله هذا حتى كان معروف وبيبرس بين يديه . فقال : أهلا بمعروف بن حجر ، ثم أمر بجلوسهما وقال : يا سيدى معروف ، ما بيدنا حيلة ، ولكنى أسأل الله أن يلطف بك فى قضائه وقدره ، لقد أوغر صدرى عليك هذا القاضى ، وقال : إن معروفًا لا يحترمك ، وقد حقر من شأنك بخيانة الأمانة ، وزواجك من مريم وحرمان أبيها منها ، فما صدقته . وقد أحضرتك من أجل ذلك . فما عندك من الخبر ؟ فأخرج معروف الفتوى من جيبه ، وقال : يا مولاى ، خذ هذه فتوى الشيخ النووى ، فاقرأها ، ومنها تعرف الحقيقة ، ويتبين للناس أننا لا نزال نحترمك ونطيعك ، ونرعى عهدك ، فقال الملك : اقرأ الفتوى علينا أيها القاضى . فلما قرأها كادت مرارته أن تنفطر من الغيظ وقال : هذه الفتوى حق ، ومن أبطلها أبطل الله رجاءه ، فقال الملك : ولمن الحق الآن ؟ فقال القاضى : الحق مع معروف وبيبرس . وما لهما ذنب فى ذلك ، وإن من يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، وذلك تقدير العزيز العليم . فقال الملك : ولم كتب حنا أبو مريم إلينا ما كتب ، ونسب إلينا خفر الذمة وخيانة الأمانة ؟ ! فقال القاضى : إنه رجل قد افترى علينا

الكذب ولا جزاء له إلا القتل ، فالتفت الملك إلى بيبرس وقال : كان من الخير لك أن تأتى به معك . فقال معروف : يا مولاى ، ما جئت إليك إلا وهو معى ، وهو الآن خلف باب الديوان وقد سمع كلام القاضى . فقال الملك : لقد أحسنتم فيما فعلتم ، أحضروه إلينا ، فنادى بيبرس : يا عثمان ، فدخل عليهم ومعه حنا فى قيوده وأغلاله . فلما مثل بين يديه قال : أيصح منك أن ترجم بالغيب، وتفترى علينا الكذب ، وتصفنا بالغدر والخيانة ؟ لا بد من عقوبتك ، خذوه فاضربوه بالعصا سبعاً ، وخذوا منه سبعة أنصاف من الفضة ، فقال الوزير شاهين : هذا ملك جنوه ، وهو عدو الإسلام والمسلمين ، وفى قتله صلاح لنا ، وراحة من شره ، ومكره ، وإن رأيت العفو عنه فليشتر نفسه بالمال ، فقال القاضى : الرأى رأى الملك والحكم حكمه ، فلا تبديل ولا تغيير ، فقال الوزير شاهين ، اسكت ولا تتكلم فيما لا يعنيك ، وقال الملك : إنى لا أخالف وزيرى أبداً، فإما قتل وإما افتدى بالمال، فقال حنا : قد اشتريت نفسى بثلاث خزائن من المال ، فأخلوا سبيلى لأحضر المال لكم ، فقال الملك : ومن يضمنك ؟ فقال القاضى : أنا الضامن والكفيل، فقال الملك : وهل تعرفه حتى تضمنه ؟ فقال : سأحبسه عندى حتى يحضر المال ، وأحضر القاضى الخزائن فى الحال وأخذ حنا وانصرف إلى منزله ، وما كان حنا يعرف أنه جوان ، فلما اطمأن بهما المقام خلع القاضى ملابس المسلمين ، وبانت حقيقته وأنه نصرانى فى باطن أمره

مسلم فى ظاهره ، فعجب حنا وقال : من أنت يا سيدى ؟ فقال : أنا جوان ، فنهض إليه وقبل يديه وقال : ولم فعلت ذلك واخترت أن تكون قاضياً للمسلمين ؟ فقال : ما فعلت ذلك إلا سعياً وراء بيبرس لأقتله وأمحو آثاره ، لأنه خطر على النصرانية وأشد الناس عداوة لها ، فامض يا ولدى إلى بلدك وأرسل خزائن المال ، وأقرضنى معها خزانة لأستعين بها على قتل بيبرس ، فقال إن لى مالا كثيراً بمصر ، فأرسل معى غلامك ليحضر المال معى ، ولما أحضره استأذنه فى الرحيل ، فبعث معه غلامه ليودعه، وأمره أن يسير معه إلى يافا، فسارا حتى وصلا إليها. وهناك كتب حنا إلى القاضى كتاباً ، وقال للغلام : ارجع وسلم على سيدك ، وأعطه كتابى هذا ، فرجع الغلام وناول القاضى الكتاب ، فوجد حنا يقول فيه : اعلم أنى أرسلت ابنتى لزيارة البنية المقدسة ، فأخذها معروف بن حجر ، ثم سرقنى وأحضرنى إلى ملك المسلمين ، وخسرت ثلاث خزائن للملك وخزانة لك ، كما خسرت ابنتى ووزيرى الذى قتله معروف ، ولحقنى من ذلك الخزى والفضيحة ، فإما سرقت ابنتى وأرسلتها إلىّ ، وإما بعثت إلى الملك الصالح كتاباً أبين فيه حقيقة أمرك ، وأنك نصرانى متنكر فى زى المسلمين لتكيد للإسلام وملكه ، وحينئذ يسفك دمك ويأخذ أموالك ، ويجعل منك عظة وعبرة .

خاف القاضى على نفسه ، وبدأ يعمل لسرقة مريم الزنارية وإرسالها إلى أبيها حنا ، فكتب كتاباً وسلمه إلى سيف الروم وقال له : سر بهذا

الكتاب يا ولدى إلى دير الزيتون ، وسلمه إلى نعنع إميلى ، فإذا قرأه أعطاك مائة بغل محملة قماشاً ، فسر بها إلى دير الشقيق ، وانزل عنده . وليكن نزولك تحت الدير عند الغروب ، فإذا سألك الأتباع من أنت ؟ فقل لهم : أنا تاجر طواف ، أجوب البلاد ببضاعتى ، وقد أمسى على المساء ، فنزلت هنا لأبيت فى رعاية الله ورعاية سيدى معروف ابن حجر ، ولأستريح من متاعب السفر ، ثم أمضى إلى سبيلى ، فإذا رأيت معروفا قد حضر فخذ معك هدية سنية ، وادخل عليه وامنحه إياها ، وارج منه أن يعطيك كتاباً تسير به ليلا إلى حصن صهيول . فلا يطردك أحد أو يتعرض لك بأذى ، فإذا أخذت منه هذا الكتاب الذى هو حماية لك ، فارحل ببضاعتك وسر حتى تكون فى منتصف الطريق ، ثم كلف أتباعك أن يسيروا بالبضاعة إلى نعنع إميلى فى دير الزيتون ، وانتظر بمقدار ما تصل البضاعة إلى نعنع ، ثم مزق ثيابك وارجع إلى دير الشقيق ، فإذا رآك أتباع معروف أخذوك إليه ، فإذا سألك عن شأنك فقل له : لقينى عماد الدين وطلب منى أجرة الخفر وحراسة الطريق فناولته كتابك ، فقال : أنا لا أعرف معروفاً ولا غير معروف . ونهب بضاعتى وشرد أتباعى وعمالى وجعلنى كما ترى ، وقال : إن الرجل الذى يتزوج من بنات النصارى لا سلطان له علينا ، ولسنا منه ولا هو منا ، وإنا لا ندين إلا للأشراف الذين لا يتزوجون من بنات النصارى ، فإذا أخذك معه إلى حصن صهيول ، فقف فى منتصف الطريق

معتذراً بأنك لا تستطيع المسير ، فإنه سيتركك ويقول : سر على مهلك وأدركني هناك ، فإذا تركك ومضى فارجع أنت إلى دير الشقيق واسرق مريم الزنارية واهرب بها إلى أبيها حنا فى جنوة ، وهذا ما أريده منك ، فقال سيف الروم : ما أقدرك على الكيد وحسن التدبير ! !

أقام معروف عند أخيه بيبرس ثلاثة أيام ثم استأذنه ليرجع إلى دير الشقيق ليطمئن على زوجته مريم ، وكان وصوله إلى الدير قبل مجىء سيف الروم ببضاعته بيومين وليلة ، ثم أقبل سيف الروم ونفذ ما أشار به القاضى إلى أن جاءه ممزق الثياب شاكياً مستجيراً به من ابن أخته عماد الدين ، فاغتاظ معروف غيظاً شديداً ، وقال له : انتظرنى هنا حتى أعود إليك ، ووصى به أتباعه وغلمانه .

كان القاضى جوان قد كتب إلى حنا كتاباً قال فيه : اعلم أنى قد كلفت سيف الروم بسرقة ابنتك ، وستكون قريباً لديك حاضرة ، وقد دبرت حيلة لأسر بيبرس وإرساله إليك ليسير بين يدى جوادك ذليلا ، فأرسل إلى الإسكندرية أولاد أختك : ماتون وبراميل وأتباعهما ، وكلفهم أن يسرقوا أموال التجار ، ويزعزعوا الأمن فيها ، حتى يعجز حاكمها ويلجأ إلى الملك الصالح شاكياً راجياً منه أن يضرب على أيدى اللصوص فى المدينة ليأمن الناس على أموالهم ويطمئنوا ويذهب فزعهم ورعبهم ، وسأشير على الملك أن يرسل بيبرس إلى الإسكندرية لمعالجة هذه الحالة ، وسأكون معه ، لأمكن رجالك من القبض عليه ، والرحيل به إليك ؛

وكن مطمئناً على عودة ابنتك . فإن قلبي معك ، وعنايتي لك . فلما قرأ كتابه هذا فرح فرحاً عظيماً ، وأحضر أولاد أخته : ماتون وبراميل وأخبرهما بما فى هذا الكتاب وما يريده القاضى . فأخذا أعوانهما ورحلا إلى الإسكندرية . وكان قاضيها نصرانياً من أتباع جوان .

انطلت حيلة سيف الروم على معروف . فدخل على أخته فى حصن صهيول وقال لها : أيصح من ابنك عماد الدين أن أرسل إليه كتاباً مع تاجر طواف أوصيه به ليكرمه ويسهل له أموره ، فلا يحفل بكتابى ، وينهب بضاعة التاجر ويشرد أتباعه وعماله ويطرده على حالة شنيعة لا تسر الحبيب ؟ إننى إن أغضبته بعد ذلك وأهنته فلا لوم على . فاندهشت أمه وقالت : يا أخى ، إن ابنى عماد الدين مريض بالحمى . وهو ملازم فراشه لا يفارقه منذ شهر ، وما فعل ذلك أبداً ، ولا عنده علم به . ولأجل أن يطمئن قلبك تعال معى إليه ، لتلمس بنفسك صدق ما أقول ، ولتعلم أنها فتنة هو منها برىء . ثم سارت به إليه ، فوجده طريح الفراش لا يقدر على النهوض والحركة . فضاق صدر معروف وحار فى أمره ، وقال له : سلمت يا عماد الدين . فقال : سلمك الله وعافاك . ثم سأله عن التاجر وما جرى له ، فقال عماد الدين : ليس عندى علم بذلك يا خالى ، وأعتقد أنها مكيدة دبرت لك لخطف مريم فى غيبتك . فارجع من فورك إلى دير الشقيق . فلعلك تدرك مريم قبل أن تسرق . فثارت الحمية فى صدره ، ورجع إليه صوابه ، وقال : لا إخالك إلا صادقاً

فيما اعتقدت ، ولا إخالها إلا مكيدة دبرت وأحكمت . ثم انفلت حزيناً يحمل من الهم والغم ما لا تحمله الجبال ، وطار إلى دير الشقيق .

أقام سيف الروم فى دير الشقيق ، فأخذ يلاطف الأتباع والغلمان ويمازحهم حتى ملك قلوبهم ، واطمأنوا إليه، وأمنوا جانبه، وسلموا إليه، وتركوه يجول فى الدير كما يشاء وحيث أراد، حتى عرفه وعرف أين مريم الزنارية والطريق إليها ، ومن أين يهرب دون أن يراه رقيب .

وذات ليلة ادعى المرض ، فارتعش وارتعد ، وقال : أدركونى بالنار وأوقدوها أمامى ، فإنى معتاد أن أصرف بها المرض عنى ، فأوقدوا له النار وأحاطوا بها ، ورمى فيها البنج خفية، فلما شموا رائحته أغمى عليهم وانطرحوا على الأرض كالأموات . وكان هو قد تناول شيئاً يبطل فيه أثر البنج ، فتسلل مسرعاً إلى مريم فوجدها نائمة، فوضع منديلا ملوثاً بالبنج على وجهها فأغمى عليها، ثم حملها وهرب بها إلى البرية، وما زال سائراً حتى دخل بها على صاحب يافا فقال له : أمرنى جوان عالم الملة أن أسرق مريم وقد سرقتها وهى معى . فقال : وماذا تريد ؟ قال : أريد أن أسافر بها إلى أبيها فى جنوة . فقال : قم الآن واركب البحر من فورك ، فإنى لا أستطيع حمايتك ، لأنى لا أقدر على معروف بن حجر ، ولا أريد أن أقدم له إساءة ، لأنى لست من رجاله ، فارحل عنى بهذه المصيبة . فذهب إلى البحر ووجد سفينة على أهبة السفر إلى جنوة ، فركب فيها ومعه مريم ، ثم جرت بهم السفينة فى البحر إلى مقصدها ، وبعد

ثلاثة أيام أفاقت مريم فوجدت نفسها فى السفينة أمام سيف الروم، فقالت له : أأنت سيف الروم؟ فقال : نعم، فقالت : ولم فعلت ذلك ؟فقال : أمرنى القاضى جوان أن أسرقك وأمضى بك إلى أبيك، فسرقتك من دير الشقيق، وذهبت بك إلى زنقيط فطردنى، وإلى باقيل فطردنى، فركبت بك البحر، ولما أفقت سألتنى فأجبتك . فحزنت مريم وبكت وأسلمت أمرها إلى الله، وكانت قد حملت من معروف وأشرفت على الوضع، ثم ثار البحر وهاج واستمر ثائراً ثلاثة أيام. ولما رست السفينة على جزيرة جاء مريم المخاض وأحست تعب الوضع فقالت : إنى أريد أن أخرج إلى الجزيرة لأقضى حاجة لى. وكان فى الجزيرة دير خرب مهجور، وهو مأوى العفاريت والجان، ولا يستطيع أن يدخله إنسان . فقال لها سيف الروم : اذهبى فى هذه الجزيرة واقضى حاجتك بعيدة عن أعين الرجال، وتركها تسير وحدها؛ لأنه لا سبيل لها إلى أن تهرب فى هذه الجزيرة، وما زالت سائرة تذكر ربها وتصلى على نبيه حتى دخلت الدير، فوجدت فيه حوضاً كبيراً من الحجر الأزرق فنزلت فيه وابتهلت إلى الله أن يلطف بها، وييسر أمرها، فما لبثت أن وضعت غلاماً كأنه البدر، له خال أخضر على خده، فحارت فى أمرها، ولم تدر ماذا تفعل، فشكت إلى ربها باكية، فسمعت من داخل الدير من يقول لها : يا أمة الله، أحرقتنا ببكائك، فافتحى كيس الجلد الذى معك، وأخرجى منه ملابس المولود وما تحتاجين إليه من أجله، وافعلى كذا وكذا، وأرشدها إلى ما تفعله من قطع حبل البطن وغيره، وكانت لا تعرف شيئاً من

ذلك . ثم فرشت لابنها وأضجعته ، ونهضت باكية قائلة : أودعتك عند الملك الديان ، وما تركتك يا ولدى عقوقاً ولا بغضاً ، ولكنى خشيت عليك من الكفار أن يقتلوك ويلقوك فى اليم ، فآثرت أن أدعك عند من خلقك حرصاً على حياتك ، وما بى رغبة فى فراقك ، ولقاؤنا عند الله يوم القيامة . ولما كانت بباب الدير قالت : أقسمت عليكم يا خدام هذا المكان بحق من خلقكم ويعلم سركم ونجواكم أن تحرسوا هذا الغلام الصغير ، وتحفظوه من كل صغير وكبير ، وألا تسلموه إلى أحد إلا لمن يقسم لكم أنه سيوصله إلى أمه أو أبيه ، وإن فرطتم فى جنبه استعنت عليكم بالله الذى يجمع الناس ليوم لا خلة فيه ولا شفاعة . ثم رجعت إلى السفينة كاتمة أمرها كاظمة حزنها .

وعجب سيف الروم منها فقال : خرجت من السفينة وبطنك كبير ، ثم رجعت إليها وبطنك صغير ، فما سبب ذلك ؟ فقالت : كنت مريضة وعندى ريح وانتفخ من أجلها بطنى ، فلما ذهبت لقضاء حاجتى صرف ربى السوء عنى ، ورجع بطنى إلى ما كان عليه قبل مرضى . فقال : لقد كذبت وما كان فى بطنك إلا غلامان لا غلام واحد ، وسأذهب إلى الجزيرة لأتبين الأمر . ثم نزل من السفينة ومشى وظن أنها لا تضع إلا فى الدير لأنه يحجبها عن الأعين . فذهب إليه ولما هم أن يدخله وجد دخاناً كثيفاً يتخلله شرر نار ملتهب مقبلا عليه ، فخاف وانقلب إلى سفينته ، ترتعد فرائصه رعباً . ثم أقلعت السفينة حتى رست على الشاطئ وخرج منها سيف الروم ومعه مريم ، وسار حتى دخل على أبيها وقال : هذه مريم ابنتك ، فقام إليها

واحتضنها فى شوق وفرحة ، وقال : مرحباً يابنتى العزيزة : لقد حزنت على غيبتك وبكت أمك لفراقك آناء الليل وأطراف النهار . فقالت : الحمد لله فقد وجدتكم فى عافية ، وأين سيف الروم ؟ فقال : ها هو ذا قد جلس إلى جانبى ، وله فضل قدومك إلينا . فقالت : إن لم توجعه ضرباً وتطرده من عندك فإنى سأقتل نفسى . فقد آليت على نفسى ألا تطأ قدماى أرضاً هذا اللئيم يقيم فيها، فأمر بضربه وطرده ، فأخذه الغلمان وأوجعوه ضرباً حتى أشرف على الهلاك ، ثم طردوه، فخرج يئن من الألم ويدعو على جوان أن ينتقم الله منه ولا يذيقه طعم الراحة ، واستمر سائراً إليه ليخبره بما حصل .

أما مريم فقد أخذها أبوها وذهب بها إلى أمها فسلمت عليها وأجلستها بجانبها وجعلت أمها تعتب عليها إذ صبأت ، ودخلت فى دين الإسلام ، وشاركها حنا فى هذا العتاب وطلبا منها أن ترجع إلى النصرانية ، فصاحت فيهما قائلة : لا كفر بعد إيمان ، ولا شك بعد يقين ، وكيف أرجع إلى الضلال بعد الهدى ، وإلى ظلمات الكفر بعد أن أخرجنى الله منها ؟ ثم تركتهما وذهبت إلى سجن هناك اسمه سجن الحسرات وجلست فيه ، فجعل أبوها يسترضيها ويتلطف فى حديثه معها ليحملها على مغادرة السجن إلى قصر أمها ، فقالت : وعزة الله لا أعيش فى قصر ولا يهنأ لى عيش ، ولا أفارق هذا السجن حتى يرجع إلى ولدى وفلذة كبدى . فتركها أبوها ومضى يتعثر فى حسرته .

رجع معروف بن حجر من عند ابن أخته عماد الدين إلى دير الشقيق، فوجد أتباعه فى غشية البنج وإغمائه ، ودخل على مريم فى مخدعها فلم يجدها ، فجعل يبحث عنها هنا وهناك فلم يجد لها أثراً ، فقال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، خدعت يابن حجر ، ومكر بك أعداؤك .

وذهب إلى أتباعه فأعطاهم شيئاً أيقظهم ثم قص عليهم القصة كما فهمها وقال : وذلك قضاء الله الذى لا مرد له ، ولا بد أن أمشى فى مناكب الأرض باحثاً عن مريم ، وعن ذلك اللئيم الذى خدعنى لأقطعه إرباً إرباً ، فانتبهوا لشأنكم ، وكونوا حماة لأوطانكم حتى أعود إليكم . ثم سار حتى وصل إلى يافا وكان الليل قد أرخى سدوله فتوضأ وصلى ركعتين ، وجاءه عبد الله المغاورى فى مركبه ، فناداه وقال : تعال يا معروف حتى أذهب بك إلى جنوة ، واعلم أن كل شىء بإرادة الله ، فهو الفاعل المختار. وفى طرفة العين كان معروف عند جنوة ، فوصاه عبد الله المغاورى وقال له : إذا رجعت إلى رجالك فقل لهم إن جاءكم رجل أسمر اللون قصير القامة وطلب أن يكون سلطاناً عليهم فليقبلوا ، وليولوه أمرهم ، ثم نزل معروف من المركب وسار حتى دخل على حنا ، فلما رآه ارتعدت فرائصه ، وقام إليه مرحباً بقدومه ، فقال له : أين مريم زوجتى ؟ فقال : إنها عندى ، فجلس معروف مطمئناً ، وجعل أبوها يحدثه بما كان منها وقال إنها فى سجن الحسرات ، وآلت على نفسها ألا تغادره حتى تموت أو يأتيها ابنها . فقام معروف ودخل عليها فى سجنها فلما رأته قامت إليه وسلمت عليه

وقالت : أتبحث عنى وتترك ابنك الذى هو قطعة منك ؟! لقد أقسمت ألا أغادر سجنى هذا حتى يأتينى ابنى ! فقال : وأين وضعته ؟ فقالت : فى جزيرة العرانيس ، وقصت عليه قصتها ، وقصة وضعه ، وما أوصت به خدام الدير . فقال : وبماذا أسميته ؟ فقالت : سمعت بعد وضعه قائلاً يقول : سميه محمد سيف الدين العرنوسى . نسبة إلى هذه الجزيرة ، ومتى سميته بهذا الاسم حفظه الله ، فسميته بهذا الاسم . فقال معروف : وأنا يا مريم لن أرجع إليك إلا ومعى ابنى محمد . ثم خلع من زنده دملجاً ذهبياً ، وقال خذى هذا . فإن احتجت إلى ثمنه فأنفقيه فيما تشائين ، فأخذته وألقته بين يديها . وقالت : لا أترك أكل الخبز والملح حتى يجيئنى ولدى ، وبكت وبكى معروف وودعها ومضى إلى جزيرة العرانيس التى فيها ابنه ، ولما دخل الدير لم يجده ؛ فذهب إلى دير الشقيق ورحل منه برجاله إلى حصن صهيول ، وهناك قال لهم : إنى ذاهب فى الأرض لأبحث عن ابنى ؛ فإن غبت طويلا فابحثوا عنى ؛ ثم قال لهم : وإن جاءكم رجل أسمر اللون قصير القامة وطلب أن يكون سلطاناً عليكم ، فولوه وأجلسوه على عرش ملككم . فقالوا : سمعاً وطاعة. ثم ودعهم ومضى هائماً على وجهه ، تتلقفه الأماكن والبقاع والبلاد ؛ حتى تلقفته مدينة اسمها مدينة التلاطم .

أما محمد سيف الدين العرنوسى بن معروف ، فقد أجدك مشغوفاً بمعرفة من أخذه من الدير ، وكيف احتال وأخذه وأين هو ؟

١٠

كان كنيار القيطلانى صاحب ملك القيطلان، قد اعترض سبل البحر برجاله لينهب أموال المسافرين من التجار وغيرهم ، فهاج البحر وكسر « دفة » فلكه ، فذهب به إلى جزيرة العرانيس ليصنع « دفة » من أخشابها ، إذ كانت أخشاب تلك الجزيرة هى التى تصنع منها « الدفة » لأية فلك . ونزل كنيار فى الجزيرة يجوس خلالها فى المدة التى يصنع فيها « الدفة »، فمر بالدير وسمع بكاء طفل صغير فيه ، فقال كنيار فى نفسه : إما أن يكون هذا عفريتاً أو ابن امرأة ألقته فى هذا الدير لتستر نفسها وتنجو من العار والفضيحة ، ويحسن أن أذهب إليه وأتبين الأمر. فلما هم بالدخول وجد دخاناً وشرراً ، وكاد الجن أن يخنقوه ، فألهمه الله أن يقول : إن هذا الغلام ابنى وأنا والده، وأريد أنأحمله إلى أمه. فذهب الدخان والشرر ، وذهب عنه ضيقه . ولما نظر إلى الغلام وجده جميلا ، ففرح به وأحبه ، حتى كأنه ابنه ، وحمله ورجع إلى فلكه ، وكان رجاله قد صنعوا « الدفة » ، ثم ساروا فى البحر فعثروا بمركب به مسلمون مسافرون إلى تأدية فريضة الحج ، فقبض عليهم، فاستغاثوا به وقالوا إنا نريد حج بيت الله الحرام ، فقال كنيار : إن كان فيكم امرأة تأتى لترضع هذا الطفل وتربيه، عفوت عنكم من أجله . وكانت فيهم امرأة جميلة سليمة الجسم ، فقالت لهم : أنا أفديكم بنفسى ، وعليكم أن

تبلغوا سلامى إلى المصطفى وأن يقرأ كل منكم لى عنده فاتحة الكتاب . فقالوا : نشكرك ولك علينا ذلك . وكانت هذه المرأة من الأشراف ، وتسمى علوية بنت السيد العلوى ، فتقدمت إليه وقالت : أنا أرضع هذا الطفل الصغير وأربيه ، ثم وضعت الغلام فى حجرها ، وقالت : اللهم إن كان هذا الغلام من سلالة طاهرة ، ومن أهل الإسلام فزهده فى ثديى اليسرى واصرفه عنه ، ثم أعطته ثديها اليسرى فأعرض الغلام عنها ، وحرك رجليه ، ومعَّك عينيه بيديه ، فحولته إلى الثدى اليمنى ، وقالت : اللهم أنزل له اللبن وأطعمه ، إن كان من أهل الإسلام ، ثم وضعتها فى فمه فدر اللبن والتقمه الغلام وصار يرضع حتى شبع ، ففرحت المرأة وحمدت ربها وأحبت هذا الغلام محبة الأم لواحدها ، وقالت : اللهم ألهم أهل هذا الغلام الصبر والسلوان. ولما رأى كنيار أن الغلام أقبل على الرضاع وألف السيدة علوية أحبها ، وأخلى سبيل من كانوا معها إكراماً لها ، ثم أخذها إلى موطنه ، وأخلى لها مكاناً تعيش فيه ، وجعل لها خدماً يقومون بشئونها وما تحتاج إليه ، لتكون مقصورة على إرضاع الغلام وتربيته ، واستمرت على هذه الحال عامين كاملين ، ثم أخذت تطعم الغلام قليلا من الطعام ، حتى ألف الأكل وسلا عن الرضاع ، وذات ليلة اعتدلت وتوجهت إلى القبلة ، وقالت : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، اشهد لى بها يا عرنوسى عند ربك يوم يقوم الناس لرب العالمين . وفهقت فهقة فارقت الدنيا بها ، فجاء الغلام إلى حضنها ونام وهو لا يدرى شيئاً ، وفى النهار مر كنيار على

ذلك المكان فوجده مغلقاً، فطرق الباب فلم يجبه أحد . فاحتال وفتحه ، ودخل عليها، فوجدها ميتةوالغلام يلعب بجانبها، فأحضر عشرة من المسلمين، وأمرهم أن يغسلوها ويكفنوها ويدفنوها ويقرءوا عليها من كلامهم ما شاءوا ، ووعدهم بالعفو عنهم، ففعلوا ما أمر به وبنوا لها قبة ودفنوها فيها ، وانصرفوا .

أما الغلام فقد أخذه كنيار وجلس به على تخته وجعل يلاعبه ، وبينما هو يلاعبه ، ضربه الغلام فى عينه فأتلفها ، فصرخ كنيار متألماً ، ونادى : اقتلوه ، اقتلوه . فقال وزيره : تأن يا سيدى ولا تعجل، فإن هذا الغلام صغير لا يدرى شيئاً مما يفعل . ولكى تطمئن إلى قولى فأحضر أمامه البلح الأحمر وجمر نار ، فإن أخذ البلح فاقتله ،لأنه يكون إذ ذاك عاقلاً مميزاً ، وإن أخذ الجمر فلا تقتله ، لأنه جاهل غير مميز ، لا يدرى شيئاً مما يفعله، ولا يميز بين النافع والضار. فقال: حسناً رأيت . ثم وضعوا أمام الغلام البلح والجمر ، فأخذ الجمرة ولسعته فى يده وبكى . فقال كنيار : لا ذنب عليه فهو صغير لا يدرى ما يضر وما ينفع ، ثم وضع الرفادة على عينه ، ورضى عن الغلام ، فأخذه بطريق ليقوم بخدمته ففعل بعينه ما فعل بعين كنيار، وما زال يفعل ذلك بعين من يأخذه من البطارقة حتى أتلف عيون عشرة منهم ، فعافه البطارقة وزهدوا فيه، وأعرضوا عن قبوله ، فأمر كنيار أن ينادى المنادى : من كان خالياً من العمل وأراد أن يقوم بخدمة ابن كنيار فليذهب إليه وله ما يشاء عنده . وكان معروف ابن حجر قد نزل فى هذا المكان إذ ذاك ، فسمع المنادى يقول ذلك

القول فأقبل عليه وقال : أنا الخالى من العمل . فأخذه المنادى ومضى به إلى كنيار ، فقال له : أتأخذ ولدى هذا لتلاعبه وتقيم به عندى فى أحسن مكان ؟ فقال : نعم . فأخذه إلى المكان الذى كانت فيه المرأة وقال : هذا مكانك أنت والغلام ، ثم أخذه وسار إلى الغلام ، فما كاد معروف ينظر إليه حتى أحبه ، وأحس فى نفسه حناناً وشفقة من أجله ، فناداه : تعال يا ولدى . فأسرع العرنوسى إليه ، ورمى بنفسه بين يديه ، فحمله على صدره ، ونام الغلام مطمئناً ، وكأنه على صدر أمه . وجعل يمشى بالغلام إلى الخلاء يلاعبه ويداعبه ، ثم يعود به إلى مكان إقامتهما ، وكان يزيد فى البعد به فى الخلاء يوماً عن يوم ، ليمهد لنفسه سبيل الهرب به .

وفى يوم جلس معروف إلى الغلام فى الميناء ونظر إليه قائلا : أنت ولدى ورب الكعبة ، وما أنت إلا شريف من ظهر شريف ، ثم جعل يقول هذا القول كل يوم . فسمعه كناس ، وذهب إلى كنيار وقال له : إن الرجل الذى يلاعب ابنك يقول : إنه ابنه وهو أبوه ، فقال كنيار : ولكن البطريق الذى وراءك يكذبك ، فالتفت الكناس إلى الوراء ، وهوى كنيار عليه بسيفه إذ ذاك فشقه نصفين ، وأمر أن يلقى به فى الخلاء ، ثم انطلق إلى المكان الذى يقيم فيه معروف والغلام فوضع بنجاً فى جميع ما فيه من أنواع الطعام ، بحيث إذا جاء معروف وتناول أى شىء من الطعام تناول البنج معه . ثم رجع دون أن يشعر أحد بذلك ، ولما رجع معروف والغلام معه أكل لقمة وابتلعها فشم رائحة البنج فيها ، فأدرك

ما يراد به ونهض ليتناول شيئاً يبطل أثر البنج . ولكن البنج سبقه فخدره ووقع معروف على الأرض مغشيًّا عليه . وانتظر كنيار حتى هجع الناس وناموا ثم ذهب إليه فحمله وذهب به إلى سجن من الرصاص الأسود ، كان قد عمل من قديم الزمن فى البحر ، وتحيط به المياه من جهاته الأربع ، يصلون إليه فى درجات من الرصاص عدتها إحدى وأربعون درجة ، ثم أجلسه على سرج من خشب مبطن باللبد ، وجعل فيه خرقاً يقضى منه حاجته ، وجعل عنقه فى طوق به أربع سلاسل مشدودة إلى جدران السجن ، وجعل فى وسطه طوقاً بأربع سلاسل مثله ، وشد كلا من يديه ورجليه فى سلسلة أيضاً ، ثم أعطاه شيئاً يوقظه من إغمائه ، فلما أفاق قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، أين أنا الآن ؟ فقال كنيار : أنت عندى ، وهل أنت الذى أردت أن تأخذ ابنى وتهرب ؟ هذا قبرك الذى ستلقى فيه ربك . فأدرك معروف الخطر الذى يحدق به وقال : أطلق سبيلى لأكون لك صديقاً أعادى من تعاديه . فقال : اسكت وهل سمعت أن نصرانيًّا قد قدم معروفاً لمسلم ؟ !

فقال معروف : ورب العزة إن نجانى ربى مما أنا فيه لأجعلن دياركم أنهاراً تجرى بدمائكم . فقال : إن نجوت فافعل ما أردت . ثم وكله إلى جارية سوداء تأتى له بالطعام الذى أعده له ، وهو خبز جاف وملح ، ثم تركه وأغلق عليه باب السجن ، وأسلم معروف أمره إلى ربه الذى ما فتئ يذكره ويناجيه ، ويطلب منه خلاصه مما هو فيه .

١١

جلس الملك الصالح فى ديوانه وقال: يا شاهين، لا راد لقضاء الله، من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه؟ ما بيدى حيلة، لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم! ثم بكى الملك الصالح، فبكى الوزير لبكائه، وقال: ما الخبر يا ملك؟ فقال: قبض الطير الأسود على الطير الأبيض، وحبسه فى القفص، وأغلق عليه الباب وهو فى أسوأ حال! وجاءه إذ ذاك رسول من حاكم الإسكندرية، فقال الملك له: فيم جئت يا هذا؟ فقال: جئت بهذا الكتاب من حاكم الإسكندرية، فقال: ما صفا الدهر لإنسان نصف يوم وأتمه، خذ الكتاب منه يا قاضى الديوان واقرأه علينا. فأخذه وقرأ: «من والى الإسكندرية إلى الملك الصالح، لقد ظهر فى المدينة أناس يسرقون الأموال، فأزعجوا التجار، والأغنياء والأعيان، وقد ضاق صدرى منهم، لأنى لم أستطع معرفتهم، فابعث إلى من يضرب على أيديهم ويحفظ المدينة من شرورهم». فقال الملك: ومن نبعثه ليكشف عن الإسكندرية هذه الغمة؟ فقال القاضى: ليس لدينا إلا الأمير بيبرس، فهو سيف الإسلام وحمى المسلمين، الذى منحه الله معونته ونصره، وسأسافر معه لأكون كاتباً له. فقال الملك: عجبت منك كيف تكون قاضى الديوان وترضى أن تكون كاتباً لبعض الغلمان؟!

فقال القاضى: لأنا نحب بيبرس، ونتمنى له النصر والفوز. وصدر

أمر الملك لبيبرس بالرحيل إلى الإسكندرية ومعه القاضى ، فجمع رجاله ، وسافروا إليها ، ونزل بيبرس ورجاله فى ديوان الحاكم ، أما القاضى فقد اختفى بعد دخوله الإسكندرية ولم يعرف له خبر ، وفى الليل خرج بيبرس فى هيئة تاجر وجعل يطوف بالمدينة ، حتى عثر على رجلين : أحدهما يحمل « شكمجية » والآخر يمشى وراءه ، ويحرسه بسيفه ، فتبعهما بيبرس ليقف على حقيقتهما ، واستمرا سائرين حتى خرجا من المدينة وذهبا إلى مكان خال فى الخلاء ، فدخلاه وأغلقا عليهما بابه ، وبيبرس من خلفهما يمشى حتى وقف أمام باب ذلك المكان فنظر من ثقب صغير فيه ، فوجد القاضى جوان جالساً مع سيف الروم وجماعة يبلغون الأربعين ، ثم سأل القادمين : ماذا فعلتما الليلة ؟ فقالا : سرقنا « شكمجية » مملوءة بالمال من قصر حسن الكردى حاكم الإسكندرية ، وتبعنا بيبرس حتى دخلنا هذا المكان ، وهو واقف الآن أمام الباب ويسمع ما نقول ، فقال القاضى : لا يقف خلف الأبواب إلا النساء ، ولو كان بيبرس رجلا لدخل علينا وقضى علينا بما يشاء . فلم يطق بيبرس هذا الكلام وأمسك « اللت » بيده ودخل عليهم كأنه أسد هجم على قطيع من الغنم ، فهاج القوم ورفعوا سيوفهم يدافعون بها عن أنفسهم ، فقال القاضى : لا تعجلوا فإن البنج سيكفيكم شره ، وكان القاضى قد وضع له فى طريقه بنجاً ، فما لبث أن وقع على الأرض مغشياً عليه ، فكتفوه ووضعوه فى صندوق ، ووضعوا أمتعتهم فى صناديق ، وأمرهم القاضى أن يحملوها فى الصباح إلى الميناء ،

وقال لهم : سأكون معكم وسأجلس على الصناديق ، فإذا رآنى أمير البحر لا يعترض سبيلكم، وحينئذ تضعونها فى الفلك وتسافرون بها إلى جنوة . ففعلوا ما أمر ، وكانت الصناديق فى الميناء والقاضى قد جلس على الصندوق الذى فيه بيبرس .

وكان أمير البحر اسمه محمد بن جمعة ، وهو من أولياء الله ذوى الكرامات المشهورة ، ومعه جريدة خضراء، إذا ضرب بها أى صندوق مغلق عرف ما فيه دون أن يفتحه ، فجاءهم وأقبل على الصناديق . وكلما ضرب صندوقاً من صناديق البضاعة أمر بوضعه فى الفُلك . حتى أقبل الصندوق الجالس عليه القاضى وهو الذى فيه بيبرس ، فقال : قف أيها القاضى حتى أختبر هذا الصندوق . فقال : لا تختبر هذا الصندوق إكراماً لى . فقال : لا شأن لك بهذا فقف حتى أختبره . فقال القاضى : وإنى أمنعك عن تفتيشه واختباره . فقال : ولا بد من اختباره . وكان عثمان ابن الحبلى قد دخل على بيبرس فى الصباح فلم يجده ، فسأل عنه حسن الكردى ، فقال : إنه خرج بالليل متنكراً ولما يعد . فخرج عثمان هائماً على وجهه يبحث عنه حتى أقبل على القاضى وأمير البحر وهما يتنازعان ، هذا يريد اختبار الصندوق وذلك يمنعه ، فقال عثمان للقاضى : قف ودعه يفتش الصندوق . فقال : امض إلى شأنك يا أقبح خلق الله ! فلطمه عثمان بيده على وجهه لطمة أفقدته صوابه ، فاستغاث استغاثة النصارى ، فقال عثمان : أنت نصرانى يابن الفاعلة ! ! واجتمع

الناس واشتد الزحام ، وعثمان لا يزال يضربه ، والناس يتداخلون لإسكات ثورته وإبعاد القاضى عنه . وانتهز أصحاب القاضى فرصة انشغال عثمان بضربه، فسرقوا الصندوق الذى فيه بيبرس ووضعوه فى الفلك وسافروا ، وانتهز القاضى فرصة الزحام والتفاف الناس حول عثمان لتهدئته وركب فلكاً آخر وسافر .

ولما هدأت الحال وسأل عثمان عن القاضى والصندوق ، قيل له إن القاضى قد هرب . وإن الصندوق حمل ووضع فى الفلك مع بقية الصناديق . وسافر الفلك إلى جنوة ، فرجع عثمان إلى القاهرة ودخل على الملك وأخبره بما حدث لبيبرس . وما حدث من القاضى الذى كشف عن حقيقته وظهر أنه نصرانى ، وأبان الله خبيئة نفسه ، فقال الملك : يا عثمان ، أنا أعلم أنه جوان النصرانى ، وقد ساررته وقلت له : إنك جوان النصرانى ، ولكن لك رزقاً عندنا تأخذه، ولك أيام فينا تقضيها. فقال أيبك : ضاعت صلاتى التى صليتها من خلفه، وضاعت أموالى التى أخذها منى . وقال شاهين متحسراً : سأعيد الصلاة التى صليتها من خلفه ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، فقال عثمان للملك : كيف السبيل إلى خلاص بيبرس ؟! فقال الملك : اسبقنى يا عثمان إلى الإسكندرية ، وسألحقك فيها ، لندبر أمر خلاصه .

أناب الملك عنه الوزير شاهين ، وجمع الأكراد وسافر إلى الإسكندرية ، ونزل عند حاكمها الذى استقبله خير استقبال . وفى الصباح أخذ عثمان

فى يده ، وسار به إلى البحر ، فرأيا سفينة مقبلة عليهما ، فتبينا من فيها فإذا هم جماعة مسلمون جاءوا مع محمد بن كامل الهجان من أولاد إسماعيل فقال لهم الملك : سيروا معى إلى جنوة فإن أخاكم بيبرس فيها ، وركب معهم هو وعثمان ، فلما قربوا من الميناء وجدوا النار مشتعلة فيها ، فقال الملك : لنرجع إلى البحر حتى نبتعد عن هذه النار ، وفى ظلام الليل نعود إلى الميناء ونستولى عليها .

ركب سيف الروم والبطارقة الذين كانوا معه فى الإسكندرية الفلك ، وجروا به فى البحر إلى جنوة ومعهم صناديق البضاعة والصندوق الذى فيه بيبرس ، وهناك التقوا بحنا وقالوا : قد جئناك ببيبرس ، وبينما هم يخرجونه من الصندوق قدم القاضى جوان عليهم ففرح حنا به وبأسر بيبرس .

وطلب القاضى جوان أن يحضروا بيبرس بين يديه فجاءوه به وكان لا يزال مغشياً عليه من البنج ، فأمر أن يوقظوه ، فلما أفاق بيبرس قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، أين أنا الآن؟ فقال جوان : أنت أمامى أيها اللئيم ، أخذت أموالى وأموال الوزير أيبك ، ولبثت من أجلك سبع سنوات وأربعة أشهر وأنا أصوم شهر المسلمين وأصلى صلاة المسلمين وآكل كما يأكل المسلمون ، وما بلغت فيك ما أردته من قتلك ، وقد بلغنى المسيح الآن مرادى فيك ، ثم أمر أن يأخذوه إلى النطع ليقتل ، وبينما هم جادون فى قتله دخل عليهم غلام ، فوقف حنا إجلالا لقدومه ، ووقف الحاضرون أيضاً ، فقال : يا أبى ، من هذا الذى تريدون أن

تقتلوه ؟ فقال حنا : هذا بيبرس تابع ملك المسلمين ، وعدو عالم الملة النصرانية، وقد أشار علينا جوان بقتله لنستريح منه. فقال: إن جوان هذا رجل جاهل أحمق ، وما يريد إلا أن يشفى غليل صدره على يديك ، ثم لا يهمه بعد ذلك إن قُتلت وقُتل رجالك وضاع ملكك وبلادك ، أنسيت أن ملك المسلمين لن يسكت عن طلب بيبرس وما أنت بقادر على أن تحاربه وتدفع عدوانه ؟ ! أنسيت أن واحداً من المسلمين وهو معروف سرقك من بيتك ومن حولك رجالك وجنودك وما نفعك أحد منهم؟! أنسيت أن ملك المسلمين أسبغ عليك نعمة عفوه ، وأنت تحت ضربة السيف ؟ لاتطع جوان فهو حقود أحمق، لا يهمه غير نفسه وشهوته، وإن ذبح فى سبيلها جميع من أحسنوا إليه . ولا تنس بعد ذلك أن جوان عاجز ضعيف لا ينفعك ، وكما عاش فى ظل ملك المسلمين ونعمته وهو يضمر له الخيانة والغدر ، فسيعيش معك على هذه الحال الخبيثة التى لن تجدها فى أحقر حيوان .

سمع الحاضرون هذا القول فوجموا وعقدت ألسنتهم فى أفواههم ، وأسر سيف الروم إلى القاضى وقال له : ألا تعرف هذا الغلام الذى تكلم ؟ فقال : لا ، قال : إنه جنيد بن حنا .

وبعد فترة من ذلك الوجوم الحائر الذى شمل الحاضرين قال جنيد لأبيه حنا : أعطنى يا أبى هذا الغلام — بيبرس — لأتخذه لى أسيراً وخادماً ، ولأعذبه العذاب الموجع. فقال : خذه يا ولدى ، فهو لك ،

وافعل به ما شئت . فقال القاضى : وكيف يكون ذلك ؟ ! فقال جنيد: ألم يعجبك قولى أيها الخائن القذر ؟ ! ورأس أبى لا بد أن تضرب ، وإلا غضبت وكان لى شأن آخر . فأمر حنا بضربه ، فأخذوه وضربوه ضرباً مبرحاً وهو يستغيث ولا مغيث . أما جنيد فإنه أخذ بيبرس ودخل به مخدعاً كبيراً . وصلبه على عمود فيه ، وقال له : إذا ضربت العمود بهذا السوط فصح مستغيثاً . فقال بيبرس : وكيف أستغيث من غير ضرب ولا أذى؟! فقال : سأضربك بهذا السوط ضرباً خفيفاً غير موجع ، فلما ضربه صاح واستغاث . وكان سيف الروم قد تبع جنيداً خفية . وقال فى نفسه : إن ضربه فهو لا يعرفه وإن لم يضربه ثبتت معرفته به . فلما ضربه رجع إلى جوان وقال له : إن جنيداً لا يعرف بيبرس ، وهو يعذبه الآن بالضرب الأليم . فقال القاضى : حمداً للمسيح إذ كان لا يعرفه . ثم التفت القاضى إلى حنا وقال : إن ملك المسلمين سيأتيك بجنوده فى طلب بيبرس . فقال : وماذا نفعل ؟ فقال : اكتب إلى ملك الروم وملك الفرنجة على لسانك كتابين لينجدانا بجنودهما استعداداً للقاء جيش المسلمين .

ابتعد الملك الصالح ومن معه فى البحر عن الميناء. فلقيه فى البحر عشر سفن تحمل جنوداً أرسلها ملك الروم . فأحاطت بفلك الملك الصالح . ولكنه ابتهل إلى الله أن ينجيه ومن معه من شرورهم ، فبان فى البحر فلك كبير . وهجم على سفن الروم ، فكان يرفع مقدمه وينزل به على سفينة الروم فيغرقها . فأغرق ست سفن وهمت الأربع الباقية بالفرار

فلم تجد لها مفرًّا ، واشتد عزم الجنود الذين فى ذلك الفلك وعزم الذين مع الملك الصالح فقتلوا من فيها ، ومن نجا من القتل مات بالغرق فى البحر ، واستولوا على هذه السفن الأربع . ثم أقبل قائد الفلك إلى الملك الصالح فقبل يده فقال له الملك : أهلاً وسهلاً بأبى بكر البطرنى. فقال : كيف عرفتنى ؟ قال : هذا سر يهبه الله لمن يشاء من عباده !

أما البطرنى فقال : إنى ابن ملك المغرب ، شببت على حب ركوب البحر فحذقت فنونه وطلبت من والدى أن يأمر بصنع سفينة حربية ، وحببت بعض أصدقائى من لداتى فى ركوب البحر ، وأخذت أدربهم فوق ظهرها على شتى فنون البحر والقتال ، حتى حذقوها ، ثم أخذنا نجوب البحار ، واستأذنت أبى فى الرحيل بها ، فقال : يا ولدى إنى أخشى عليك من القيطلانى عدو الإسلام ، فإنه قطع سبل البحر ، وهو يبغض المسلمين وينكل بهم ، ويقتلهم وينهب أموالهم فقلت : من حفظه الله لا يناله أحد بسوء .

وركبنا فى السفينة ، وجرت بنا فى البحر حتى وصلنا إلى جزيرة فنزلنا فيها ونمنا ، وقد أراد الله أن يأتى القيطلانى وطائفته إلى هذه الجزيرة ، فوجدونا نائمين . فقبضوا علينا وكتفونا بعمائمنا ، وأرادوا أن يقتلونا ، فقال القيطلانى لهم : هؤلاء غلمان صغار ، لا يخشى لهم بأس ، فدعوهم حتى نأكل ونشرب خمرنا ، ولما سكروا أخذهم نوم عميق ، فقلت لرجالى : إذا كان فيكم رجل أسنانه حادة فليقرض بها العمامة

التى أنا موثق بها ، فجاء وقرضها وانطلقت من وثاقى ، ثم أخذت أطلق أصحابى ، وساعدنى فى ذلك من أطلقته منهم ، حتى انطلقنا جميعنا ، ثم هجمنا على القيطلانى وطائفته وهم فى نومهم غارقون ، فجعلنا نذبحهم ونلقى بهم فى البحر حتى أفنيناهم جميعهم ، وصلبنا القيطلانى فى سارية سفينته بعد قتله ، ورجعنا بها إلى طنجة وأخبرنا أهلها بما فعلناه ، ففرحوا وجعلوا يرشقون جسم القيطلانى بسهامهم حتى كان كالقنفد ، ثم ألقيناه فى البحر وذهب إلى النار وبئس القرار . وقوت هذه الحادثة عزمنا ، وجرأتنا على المسير فى البحر ، فخرجنا مرة ثانية ، وسارت بنا سفينتنا التى أسميناها الغراب المنصور حتى ضللنا وتهنا ، فطلبنا من الله الهداية والفرج ، فهاج البحر ثم سكن ، وإذا عبد الله المغاورى مقبل علينا ، فسلمنا عليه وقبلنا يديه ، ثم أعطانى كتاباً يقال له « دائرة البحر » ، وبشرنى بأنى سأكون سلطاناً ولو بعد حين ، ثم دعا لى وأمرنى بالرجوع إلى طنجة ، فودعناه ورجعنا وسرنا فما تهنا ولا ضللنا حتى وصلنا ، وأخبرت أبى بذلك ، فقال : قواك الله وهداك وأعانك . وركبنا فى السفينة وسرنا بها فى البحر متوكلين على الله . فالتقى بنا عبد الله المغاورى ، وأخبرنا بأنكم فى ضيق ، فسرت كما أمرت أيها الملك حتى جئناكم ، وقد رأيتم ما فعلناه فى حرب الكفار ، وهذه قصتنا .

فأمر الملك أن يكون أبو بكر سلطان البحرين ، وانتقل الملك الصالح ومن معه إلى الغراب المنصور ، وسارت بهم السفينة إلى ميناء جنوة ، وكانت

مجهزة بالمدافع وأدوات الحرب والقتال ، فأطلقت عليهم من الكفار نيران المدافع فأجابوها بنار مدافعهم ، وكانت أشد خطراً وأقوى أثراً ، وما زالوا فى حرب حتى ملك المسلمون الميناء ، وخرجوا إلى البر ونصبوا خيامهم وأقاموا فيها ، وخاف أهل جنوة وأغلقوا أبواب المدينة . وكان ملك الفرنجة وجنوده حينئذ فيها ، وكان قد جاء تلبية لطلب حنا ومعونته على نحو ما فعل ملك الروم الذى غرقت جنوده . فأشار عليه حنا بقتال المسلمين ، فقال : وما جئت إلا لقتالهم ، وفتحت أبواب المدينة وخرج ملك الفرنجة إلى ميدان القتال يطلب المبارزة متحدياً من يبرز إليه .

فأقسم الملك الصالح أن يخرج هو نفسه إليه ، فركب جواده وأخذ سيفه الخشبى وترسه الجميزى . ولما كان فى الميدان قال لملك الفرنجة : اقترب منى يا من هو منا ونحن منه ، فاقترب ، وأشار الملك الصالح بيده فنام ، ورأى فى منامه أن الملك الصالح يقول له : أنت من الفئة الناجية يوم القيامة ، فما تقول فى الإسلام ؟ فقال : أنا يا سيدى أسلم على يديك. ثم لوح الملك الصالح بيده ، فانتبه وهو يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، وأنك يا سيدى ولىّ الله . فقال الملك الصالح : الآن فزت ورب الكعبة ، فسر إلى جماعة المسلمين . فقبل ملك الفرنجة يده ، ومضى إلى جماعة المسلمين وكان منهم .

وعجب حنا وجوان وسيف الروم ، وضرب الملك حنا كفـًّا بكف ، وقال : إن ملك الفرنجة أسلم ، اخترايا جوان بطريقاً آخر يبارزه وليكن ممن

يعجل بقتل الملك الصالح ، فاختار جوان بطريقاً آخر وزجّ به فى الميدان ، ولكن الملك الصالح عجل بقتله ، وجعل كلما أرسلوا إليه بطريقاً آخر يقتله حتى بهتوا ، وقال حنا : اتسع الخرق على الراقع ، ودهينا بهؤلاء المسلمين وملكهم الذى يفعل بسيفه الخشبى ما لا تفعله السيوف الماضية ، فقال جوان : لا تخف فإنى معكم فقال حنا : وماذا ينفعنا وجودك معنا ورجالنا يقتلون ، ويعمل فيهم السيف الخشبى ما تعمله السكين فى قطعة الزبد ، فقال : أبطلوا القتال ، وأغلقوا أبواب المدينة ، فلما أغلقوها رجع الملك الصالح إلى خيمته ، فأقبل إليه أولاد إسماعيل ، فسلم عليهم وسألهم عما أتى بهم ، فقال كبيرهم : كنا مجتمعين فى حصن صهيول فسقطت علينا من الجو جريدة خضراء . فأخذتها وفحصتها فوجدت فيها رسالة منك أيها الملك تدعونا فيها إلى نجدة الإسلام ومعونة المسلمين فى مدينة جنوة ، فركبنا سفينة وأسرعنا إليك ملبين طائعين ، وقالوا : لقد حاربتهم بالنهار يا أمير المؤمنين ، وسترى حربنا بالليل .

غمّ على جوان أمره واضطرب ، إذ عرف أن أولاد إسماعيل قد حضروا ، ووجد أن ملك الروم وجنوده قد قتلوا ، وأن ملك الفرنجة قد صبأ ودخل فى دين الإسلام ، وأن بيبرس عند جنيد لا يزال حيًّا ، وأن كثيراً من البطارقة قد قتلوا بسيف الملك الصالح الخشبى ، فقال لسيف الروم : لقد أصبحت فى أحرج المواقف وأدناها إلى الخطر ، وإن وقعت فى يد المسلمين فإنى هالك لا محالة ، وهذا حنا قد سُقِطَ فى يده ، ولا قدرة

له على رد عدوان المسلمين عن نفسه ، فلا طمع لنا فيه ، ولا أمل لنا عنده ، ومن المحتوم لنجاتى أن أهرب فى ظلام هذا الليل قبل أن أقع فى الفخ ولا أجد لخلاصى حيلة ، فأخذه معه وهرب من جنوة ليلا :

ولما جن الليل نهض سليمان الجاموس وقال للملك الصالح : علىّ أن أفتح أبواب المدينة ، وأقتل الملك حنا وخفراءه ، وآتيكم بيبرس . فقال الملك : امض لما عزمت عليه ، ولما قرب سليمان من سور المدينة رأته جارية على ضوء قنديل فى يدها ، وكانت على مقربة منه ، فخافت ووقعت على الأرض ، فانطفأ القنديل ، وتصاعد منه دخان ، ولما شم سليمان رائحته سقط مغشياً عليه ، فتقدمت إليه الجارية وأوثقت كتافه وأخذته إلى سجن مظلم فأدخلته فيه ، ثم أيقظته من غشيته ، وأغلقت عليه الباب ، وتركته فيه وحده . ولما طالت غيبته قال الملك الصالح : يا شاهين ، دخل الطير القفص ! يا حسن يا حورانى : امض الآن ، واكشف لنا عن سليمان ! فقال: سمعًا وطاعة. وبينما هو سائر لقيه غلام فقال له: أنت غريب يا سيدى ؟ فقال : نعم ، فقال : وأنت مسلم يا سيدى ؟ فقال : إن الإسلام لهو الدين الحق . فقال الغلام : إن بيتى قريب من بيت الملك حنا ، فهل تحب أن تجىء معى ، لتأوى إليه حتى مطلع النهار ؟! فقال : أود ذلك ، وشكرى لك . وظن حسن أن فى قربه من بيت الملك حنا ما يساعده على معرفة ما جرى لسليمان ، فسار مع الغلام ، وبعد قليل رآه يمضغ شيئاً ، فقال له : ماذا تأكل ؟ فقال الغلام : آكل بعضاً

من الحلوى ، فتفضل وخذ هذه القطعة فكلها . فأخذها حسن وأكلها فوقع على الأرض مغشيًّا عليه ، فكتفه الغلام وأخذه إلى السجن الذى فيه سليمان الجاموس ، ثم أيقظه من إغماءة البنج الذى كان فى الحلوى ، وأغلق الباب عليه وتركه ، فقال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، أين أنا الآن ؟! فقال سليمان : أنت معى ، ومن جاء بك إلى هذا السجن ؟ فحكى له ما وقع له ، وحكى سليمان ما وقع له أيضاً ، وهكذا جعل كل من نهض من أولاد إسماعيل ليكشف أمر إخوانه وقع له ما وقع لسليمان وحسن الحورانى حتى كانوا جميعهم فى ذلك السجن ، وجاءهم رجل فى سجنهم فى هيئة جوان وقال لهم : وقعتم أيها اللئام . وأفل نجمكم ، فانتظروا فى سجنكم هذا حتى يأتيكم الملك حنا وأصحابه ، لينظروا ما أنتم فيه من الهوان والمذلة ، ثم غاب عنهم ورجع إليهم فى هيئة الملك حنا ، ثم فى هيئة سيف الروم ، ثم فى هيئات عدة لأصحاب حنا ، وكلما جاءهم أنبهم وسخر منهم ، فكان هذا مثار خوف فى نفوسهم ، وإنذاراً بشر يتوقعونه ، ثم دخل عليهم فى هيئته وقال : السلام عليكم ، فقالوا : وعلى المؤمنين السلام ، من أنت ؟ فقال : أنا الذى جئت بكم إلى هذا المكان ، أنا الجارية ، وأنا الغلام ... فقالوا له : أنت « الشوح » ، وشبهوه بالطير الذى اسمه « شوح » وهو يغير لونه فى اليوم ثلاث مرات ، فقال : وهذا اسم آخر أيضاً .

وكان عثمان قد قال للملك الصالح : قم وهات لنا بيبرس . فقال له : تعال معى لنمضى إلى أولاد إسماعيل وننظر ماذا جرى ، فإنهم ذهبوا ولم

يرجعوا . ولما قربوا من سور المدينة أقبل عليهم عبد الله المغاورى ، فسلم عليهم وقال : اعلم أيها الملك أنك ربيت ملكاً وهو بيبرس ، وأنا ربيت ملكاً وهو أبو بكر البطرنى ، والملك الثالث فى عالم الغيب ، وسيظهر أمره هذه الليلة ، ولما وصلوا إلى سور المدينة أشار الملك إليه فانشق جداره ودخل الثلاثة ، فقال عثمان : حانت منيتك ، فإن الولىّ إذا بانت كراماته قرب أجله . ثم أقبلوا إلى السجن الذى فيه أولاد إسماعيل ، وأشار عبد الله المغاورى إليه . بيده ، فانشق جداره ودخلوا ، فلما رآهم أولاد إسماعيل فرحوا بقدومهم واطمأنوا ، فنظر الملك الصالح إلى ذلك الرجل الذى أدخلهم هذا السجن وقال : فعلتها يا جمال الدين ؟ ! فقال عبد الله المغاورى : وذلك الاسم الرابع . فقال الملك الصالح : وماذا تريد يا جمال الدين ؟ فقال : أريد أن أكون سلطاناً على هؤلاء الجماعة يطيعوننى ويسمعون قولى . فقال : دع القول فيهم الآن وائتنى ببيبرس والملك حنا ، وبعد ذلك ننظر فيما تريد ، وتقص علينا أصلك ونسبك ، ومن أين أنت؟ وكيف فعلت هذا بهؤلاء ، وسبب ذلك؟ فقال : سمعاً وطاعة ، ثم غاب عنهم قليلا ، ثم خضر ومعه بيبرس وحنا ، وكان حنا فى إغماءة البنج ، أما بيبرس فقد فرح بلقائهم ، فقال الملك الصالح : ماذا تريد الآن يا جمال الدين ؟ فقال : أن أكون سلطاناً على هؤلاء الجماعة ، فقال أولاد إسماعيل : لن يكون ذلك أبداً ، فقال جمال الدين : يا قوم ، إنكم فى حضرة ملك الإسلام ، والأمر بيده ، وكما يشاء ، ومع هذا فإن معى سوطاً ، ومن

ضربته به ثلاث ضربات ولم يتأوه ولم يتوجع فلا سلطان لى عليه .
فقال : سليمان الجاموس : تعال واضرب ما تشاء فمن العار أن أتوجع من ضربك أو أتأوه فضربه ضربة واحدة ، فأحس كأن النار اشتعلت فى جسمه فصاح قائلاً : ارجع عنى ، فلا أراك الله خيراً ، يا قصير ، يا مشئوم . وكان كل من تقدم بعده ، وضربه ضربة بالسوط صاح مستغيثاً وقال : حدّ الله بينى و بينك .

وقال الملك الصالح : يا رجال ! أما أمركم معروف بن حجر أن تطيعوا رجلاً قصيراً إذا طلب أن يكون سلطاناً عليكم ؟ فقالوا : أمرنا بذلك يا ملك ، ثم قال : يا جمال الدين ، إنهم يطيعونك ما دام معروف ابن حجر غائباً ، وتكون أنت نائباً عنه فى غيبته ، فإذا حضر كان السلطان له ، ورجعوا إلى طاعته ، فماذا تقول فى ذلك ؟ فقال : رضيت بذلك ، فقال الملك : وهم بذلك راضون ، ونريد منك الآن أن تذكر لنا أصلك ونسبك وكيف فعلت بهم ذلك وأنت مسلم تؤمن بالله ورسوله ؟ وكيف أكرمت بيبرس وأنت لا تعرفه؟ فقال : كان قبل ظهور النبى عليه الصلاة والسلام كاهن يونانى اسمه يونان ، وكان ماهراً فى السحر والكهانة ، وله قول نافذ فى أرهاط من الجن ، وكانوا يصعدون إلى السماء ويسترقون السمع من الملائكة ، ويخبرون الكاهن بما يسمعون ، وكان مما أخبروه به أن قالوا له : يظهر فى آخر الزمان رسول عربى اسمه محمد دينه الإسلام ، وسيظهر هذا الدين على الدين كله ولو كره الكافرون ، وسيكون على دينه رجال



شيحة يضرب أولاد إسماعيل

أشراف يقال لهم أولاد إسماعيل ، ويظهر فيهم رجل بدوى من عرب غزة يكون سلطاناً فيهم ويطيعونه ويلتفون حوله ، ثم يؤاخى رجلا من بلاد خوارزم ويتعاونان على إعزاز دين الإسلام وإعلاء كلمته ، فيهدمان الصوامع ، ويبنيان المساجد ، ويقيمان المدارس ، وينشران بين الناس العلم والمعرفة بأحكام الدين ، ولكن يظهر لهم عدو من نسل اليونانيين اسمه جرجس ، ثم يتغير اسمه هذا إلى جوان ، ويطيعانه غصباً ، وفى آخر حياته يقطعانه ويمزقانه ، ولما عرف الكاهن يونان هذا من الجان قال فى نفسه : لا بد أن أحمى جوان هذا من أعدائه المسلمين ما دام هو من نسلنا ، وجعل يدون ما يجىء به الجان من أخبار السماء فى صحف من ذهب ، وكتب فيها الأخطار التى تحيق بدين الإسلام ، والمصائب التى تحيق بجوان وسبل نجاته منها من بدء حياته إلى مماته ، وعلم الجن طرق حماية جوان من أعدائه ، ودفع كل شر يراد به. ولما مات ذلك الكاهن ظهر من بعده ابنه إينان ، فخلف أباه فى السحر والكهانة ونفوذ الكلمة فى أرهاط الجن ، وعرف أن النبى محمداً صلى الله عليه وسلم على الحق المبين ، وأنه يدعو إلى الإيمان الذى دعا إليه إبراهيم الخليل وسائر الأنبياء والمرسلين فآمن به وصدقه ، ودخل فى دين الإسلام عن يقين ومعرفة ، وجعل الجن يسترقون السمع من السماء ويأتونه بأخبارها ، ويكتبها فى صحف من فضة على نحو ما كان يفعل أبوه ، ولكنه كان يكتب وجوه الخير للإسلام ، وسبل نجاته من الأخطار التى تنزل به ، كما كان يكتب وجوه الكيد لجوان وسبل هلاكه ، ثم قرن

صحفه إلى صحف أبيه ، وسماها كتاب اليونان وحفظه عنده إلى أن مات وتوارثه الكفار حتى انتهى إلى البطريق كرسميون ، وكان الإسلام قد ظهر وأصبحت له دولة وصولة ، ومر على ظهوره أزمان .

وكان البطريق كرسميون له أخ اسمه أصفوطة ، وهو معروف بالفسق والفجور وسوء السلوك ، أما كرسميون فكان رجلا مستقيماً ملازماً للأديرة ، مستمسكاً برسومها وأحكامها ، وكان يطلع على ما فى كتاب اليونان ويقول للناس : سيظهر فى هذا العام كذا وكذا ، وهم يصدقونه ، لأنهم يجدون ما يقول ، وذاع أمره ، فكان مقصد الناس ، يهرعون إليه من كل حدب وناحية ، وهو يذكر لهم ما يجرى وما يكون .

وذات يوم دخل عليه وهو فى الدير أخوه أصفوطة ، ومعه أربعون بطريقاً ، فوجدوا فى ذلك الدير امرأة راهبة ، فلما جن الليل دخل عليها أصفوطة و بطارقته الأربعون واجتمعوا بها ، وشاء الله أن تحمل هذه المرأة الراهبة بولد ذكر فى تلك الليلة ، ولما وضعته نشأ وترعرع حتى كبر ، فكان أفسق أهل زمانه ، وألف له عصبة على شاكلته من إخوان السوء ، واختار من بينهم غلاماً اسمه سيف الروم من بحيرة إيفره ، فلازم صحبته . وكان لا يأكل ولا يشرب إلا معه ، ولما علم أن عمه كرسميون ذهب إليه وقبل يده وقال : أنا ابن أخيك أصفوطة ، واسمى جرجس ، فأكرمه عمه وأقام معه فى الدير مدة من الزمان . وذات يوم رأى جرجس فى الدير سجناً فيه رجل اسمه صلاح الدين العراقى . فتظاهر له بالإسلام ، وحفظ منه القرآن وتعلم العلوم .

وذات ليلة دخل جرجس عليه وهو نائم فذبحه ، وأخذ ملابسه ، فوجد فيها كتاباً من الوزير شاهين يقول لصلاح الدين فيه : إذا أتيت إلى ديوان الملك بمصر جعلتك قاضي الإسلام ، وهذا الكتاب حجة منى بذلك . فأخذ الكتاب وأطلع سيف الروم عليه وقال له : اخف أمر هذا الكتاب إلى أن يجيء وقته ، ثم حفظ الملابس والكتاب عنده ، وقال لسيف الروم : إن عمى كرسميون يخبر الناس بما يجرى من الأمور كل عام . وقد حفظت القرآن وعلمت منه أنه لا يعلم الغيب إلا الله ، فهل تعرف السبب ؟ فقال : اصبر حتى أعرف لك السبب وحقيقة الأمر . ثم جعلا يراقبان كرسميون ، ليقفا على جميع أفعاله وحركاته وسكناته ، لعلهم يعرفون سبب إخباره الناس بما يجرى من الأمور كل عام ، فرأوه إذا أقبل الليل ذهب إلى غطاء فى ناحية من أرض الدير ، فرفعه عن سلم ، ونزل فيه ، إلى مكان فجلس وقرأ فى كتاب اليونان حتى شبع ، ثم وضعه فى مكانه وصعد إلى أرض الدير وأرجع الغطاء كما كان ، ثم ذهب إلى مضجعه ونام .

ولما انصرف رفع جرجس وسيف الروم الغطاء ونزلا إلى مكان الكتاب ، وجعل جرجس يقرأ فى صحف الذهب التى فيها وجوه حمايته ونفعه ، وسبل الكيد للإسلام والنيل منه ، ثم خرجا ووضعا الغطاء كما كان ، وجعلا يختلفان إلى ذلك المكان مدة من الزمان حتى قرأ جرجس جميع ما فى الصحف .

وذات ليلة ذهب كرسميون إلى ذلك المكان فوجد جرجس فيه وسيف الروم على أول درجة من درجات السلم يرقب الواشى والرقيب ، فلما رآهما

كرسميون قال لهما : لقد ختنمانى ودخلتما مكان السر من غير إذنى ، وليس لكما عندى إلا الطرد من الدير . فقال جوان : يا عمى لقد أغلقت هذا المكان الذى ليس فيه إلا كتاب اليونان ، وقد قرأته جميعه وعرفت ما فيه ، فما الفائدة التى تعود عليك من طردنا ؟ فقال كرسميون : أجل لا فائدة من طردكما وقد مضى ما مضى ، وعكف على أن يعظ الناس ، وجوان يخبرهم سرًّا ببعض الأخبار ، حتى اعتقدوا أنه فوق كرسميون وأعظم منه . وقال جوان لسيف الروم : إن لى خصمين ، أحدهما شعبان من عرب غزة وقد بان لى أنه سيقتلنى ، والثانى بيبرس ، فسر بنا إلى شعبان لنظفر به ونقتله قبل أن يظفر بنا ويقتلنا ، وحينما يظهر الخصم الثانى نحتال فى قتله . ثم استأذن عمه كرسميون أن يزور الأديرة فأذن له . ولما بعد عن الدير لبس بذلة الشيخ صلاح الدين العراقى . وأخذ يبحث عنى — وكان قد عرف صفاتى من الكتاب — حتى وجدنى فى المكتب ، فارتعدت فرائصه لرؤيتى ، وتقدم إلى وسألنى : ما اسمك أيها الغلام؟ فقلت : شعبان ؛ ومن أى القبائل ، وإلى من ينتهى نسبك ؟ فقلت : إلى نوح عليه السلام . وما السورة التى تقرؤها لتحفظها ؟ قلت : قل يا أيها الكافرون . وأخذ يتردد على المكتب بإذن من فقيهه ثم جعل يحفظنى القرآن ويكرمنى ، وأخبرت والدى بذلك . فدعاه إليه ، وأكرمه وكساه ، وقال له : أرجو أن تستمر فى تحفيظ ابنى القرآن الكريم . وعكف على تحفيظى القرآن مدة ، حتى حانت له الفرصة ، فسرقنى وذهب بى إلى الدير . ولما هم أن يقتلنى قال له

عمه : دعه فإنه حدث صغير لا ينفع ولا يضر ، فقال : إنى قرأت فى كتاب اليونان أن هذا الغلام هو الذى سيقتلنى ، ولهذا فإنى أريد أن أعجل بقتله ، فقال سيف الروم : دعه يجرى خلف ركوبتك ويخدمك حتى يكبر ثم نقتله ، وقال عمه كرسميون : ذلك رأى حسن ، فاتخذنى له خادماً .

ومرت أيام كنت فيها صاحباً وصديقاً لسيف الروم ، وذات يوم سألت صاحبى سيف الروم : إنى أرى جوان وعمه يخبران بالغيب وهما يعظان الناس فكيف كان ذلك ؟ فقال : سأطلعك على سرهما هذا . ثم أخذنى ونزل بى إلى مكان كتاب اليونان ، وناولنى إياه وقال لى : اقرأ فيه ، فجعلت أقرأ ما فيه حتى حفظته ، وعرفت جميع ما فى الكتاب . وكنت أذهب إلى هذا الكتاب كل يوم .

وذات يوم وجدنى عند ذلك الكتاب ، فأقسم ليقتلنى ، فاستغثت بسيف الروم ، فحمانى منه وحال بينى وبينه ، فقال : حينئذ أغلق عليه باب هذا المكان واتركه فيه وحده يمت صبراً ، ثم أغلق الباب وتركنى فى ذلك المكان كما يترك الميت فى قبره ، فجعلت أقرأ فى كتاب اليونان حتى سمعت صوت متكلم لم أره يقول : انظر يا شعبان فوق رأسك ، تجد جريدة خضراء . فخذها واضرب بها العمود الذى أمامك ، والذى نقشت عليه رسوم وطلاسم ، ولما ضربته بالجريدة سمعت من داخله صوتاً يقول : لا شلت يداك ، اذكر نسبك يفتح لك باب هذا المكان ، ثم ادخل فيه تجد الخادم جالساً على سريره ، فقف أمامه واقرأ الفاتحة ، وهب ثوابها

للحكيم يونان ، فإن فعلت ذلك تحرك الخادم وأعطاك ما أعده لك الحكيم يونان من الهدايا ! ففعلت ما أمرنى به ، وتحرك الخادم وناوانى ذلك السوط الذى معى ، وقال : خذ هذا يا شعبان واضرب به كل من عصاك وأتعبك وأطاع غيرك ، ثم ناولنى جعبة الحيل وحُللها وقال لى : إن الحكيم جعل لك فى كل مكان حلة ، لتستعملها فى حيلك ، وتساعدك على تحقيق بغيتك ، وأعطانى هذه « الشاكرية » ، ثم قال لى : سر إلى آخر هذا المكان ، وافتح الباب الذى تجده ، وستجد من خلفه بحراً متلاطم الأمواج ، على شاطئه مركب من النحاس ، وعليه تماثيل من النحاس للملاحين ، فقف أمام المركب واذكر نسبك ، فإن الملاحين يتحركون ويقدمون إليك المركب ، فإذا فعلوا ذلك فاركب فيه ، وسيسيرون بك إلى الشاطئ الآخر ، فإذا وصلت إليه فاخرج ، وامش فى هذا البر الثانى متوكلا على الله ، وستجد فيه وليًّا من أولياء الله اسمه عبد الله المغاورى ، وهو الذى يرشدك إلى ما تفعله . ففعلت ما أمرونى به ، ولقينى ولى الله عبد الله المغاورى وهو الجالس بجانبك أيها الملك ، وهذه قصتى .

أما جوان فإنه لمَّا حبس شعبان ، اعتقد أنه مات صبراً ، واعتزل كرسميون وأخذ يضل الناس ، ويحرم عليهم الحلال ، ويحل الحرام ، حتى شاع ذكره ، وعرف بين الناس بأنه عالم الملة ، وذات يوم جاءه كتاب من الملك حنا يقول : كان لى ولد يقال له جنيد ، وقد مات وأورثنى حزناً وغمًّا ، وقد بلغنى أنك تعلم الغيب وتحيي الموتى ، لأن المسيح يسمع قولك

ويلبي رجاءك . فأقبل إلينا لتحيي ابنى ، ولك عندى ما تريد . قرأ جوان الكتاب فزاده ضلالا وغروراً . وقال لسيف الروم : ماذا ترى فى إحياء هذا الغلام؟ فقال : إنى أرى أن تذهب إلى حنا . وتطلب منه أموالا كثيرة ، ثم تقول له : أريد أن أعتكف وأخلو إلى نفسى لأطلب من المسيح أن يحيي ابنك ، وقد وعدنى أن يجيبنى إلى مثل هذا بعد ثلاثة شهور . وبعد مضى هذه المدة يكون الفرج قد جاء . فوافقه جوان ومضى معه إلى جنوة . ودخلوا على الملك حنا ففرح بهم وأكرمهم . ثم قص عليهم ما يريده من إحياء ابنه جنيد . فقال له جوان : سأفعل ذلك . وأحيي ابنك . وسأعتزلكم لأتلو العزائم وأخاطب المسيح فى أمر ابنك وبعد ثلاثة أيام من اعتزالى افتحوا قبره . فإن وجدتموه قد حيي فخذوه . وإلا فأغلقوا عليه القبر ، ثم افتحوه بعد ثلاثة أشهر . فإنكم ستجدونه قد بعث حيًّا .

وكان سيدى عبد الله المغاورى هذا قد سار بى إلى المقابر وأجلسنى هناك وقال لى : إذا مر بك جوان وأخذك وحبسك فى أى مكان فأطعه ولا تخالفه ، فإنك ستنتصر عليه وتغلبه . ثم تركنى ومضى .

ولما جاء الليل قال جوان لسيف الروم : ماذا ترى ؟ لقد أوقعت نفسى فى ورطة لا أجد منها مخرجاً . فقال له قم بنا إلى المقبرة ، لنرى قبر جنيد بن حنا ، وعسى أن يأتينا الفرج هناك ، ولعلنا نجد شيئاً لم يكن لنا على بال . فأطاع جوان مشورة سيف الروم ، وجاء معه إلى المقبرة

فوجدنى جالساً فيها ، فأقبل إلى وكنت أشبه الناس بجنيد ، فقال لى وقد صرفه الله عن معرفتى : من أنت أيها الغلام؟ فقلت : غريب عن هذه الديار، ساقنى القدر إلى هذا المكان ، ولا أعرف شيئاً عن هذه البقاع ، ولا أعرف فيها إنساناً . فقال : أتحب أن أجعلك جنيد بن حنا ، وسيكون لك نعمة الملك وعزته وسلطانه ؟ فقلت : لك ما شئت فإنى لا أخالف لك أمراً . فأخذنى وأخفانى عند سيف الروم ، ثم قال للملك حنا : إن المسيح أمرنى بإحياء ابنك ، على شرط أن تذهب إلى قبره فى موكب حافل جامع ، وستجدنى عند القبر ، وحينئذ تفتحه وتخرج منه ابنك حيًّا ، ثم ناولنى حبتين وقال : ابلع هذه ، واجعل الأخرى تحت لسانك ، وكانت الأولى من البنج ، وكانت الثانية لبعثى من إغماءة البنج بعد أربع وعشرين ساعة ، ففعلت ما أمرنى به ، ثم كفننى وأدخلنى القبر وأغلق بابه ، وجلس عنده ينتظر الملك وموكبه ، وكان قد أخرج رفات ابنه ورماه فى البحر .

وجاء الملك فى موكبه وحفروا القبر وأخرجونى منه حيًّا ، وألبسنى جوان حلة كان قد أعدها لى ، وكان لإخراجى من القبر فرحة وضجة وعجب ، ولما أطال جوان النظر إلى عرف أننى شعبان فالتفت إلى سيف الروم وقال له : لا إخال هذا الغلام إلا شعبان ، فقال له : ومن أين أتى إلينا شعبان أو رمضان ، إن شعبان قد مات واندثر ؟ ! فقال له : وحق المسيح إن هذا الغلام شعبان ! فقال : وماذا تفعل إن كان شعبان ؟ إنه أشبه الناس بجنيد بن حنا ، وإن قلت شيئاً قتلوك ، وصلبوك ، فاسكت ولا

تنطق بكلمة ، واتركهم فى غيهم وضلالهم ، لتكون بينهم ذا هيبة وكرامة .
وضمنى حنا إلى صدره ، وكاد يطير من الفرح بى ، وأركبنى جواداً وسار بى فى موكبه إلى جنوة ، التى زينت وأقيمت فيها الأفراح ابتهاجاً بحياتى بعد موتى . وأقمت فى قصر حنا ولى منزلة لا تساميها منزلة ، فأمرى مطاع ، وقولى مسموع ، بين الكبير والصغير ، والملك حنا نفسه .
أما جوان فقد اتقد غيظاً وحسرة ، وقال : أردت أن أقتل هذا الغلام ولكنى كنت السبب فى الإتيان به ليقتلنى ، فهيا بنا يا سيف الروم نغادر هذه المدينة إلى المحروسة لنهرب ، ونحتال هناك فى قتل العدو الآخر ، فلما وصلوا إلى مصر دخلوا على الوزير شاهين وكان جوان قد لبس حلة الشيخ صلاح الدين العراقى ، فناوله الكتاب الذى كان قد أعطاه إياه فى البيت الحرام ، وظن شاهين أنه صلاح الدين العراقى نفسه ، فولاه قضاء المسلمين كما وعده فى كتابه هذا . وتولى جوان القضاء . وجعل يحيك المكائد لبيبرس على نحو ما تعلمون ، حتى سرق بيبرس وأتى به إلى الملك حنا ، وأراد أن يقتله ، فأخذته منه وحبسته عندى وأخبرته أنى مسلم ولا خوف عليه . ولما حضر أولاد إسماعيل احتلت عليهم حتى حبستهم فى هذا السجن حتى حضرت أنت أيها الملك ، وقلت لى فعلتها يا جمال الدين؟! وطلبت منى أن أقص عليك قصتى ، فقصصت عليكم ما سمعتم ، وذلك ما عندى .
وكانت هذه القصة مثار عجب فى نفوسهم ، وقال الملك : الآن أنت سلطان أولاد إسماعيل حتى يحضر كبيرهم معروف بن حجر .

١٢

رضى أولاد إسماعيل أن يدخلوا فى طاعة جمال الدين ، وقام هو إليهم فحل وثاقهم ، وأحضر لهم طعاماً فأكلوا وشربوا ، وقبلوا يدى الملك الصالح وعثمان وعبد الله المغاورى ، واعترفوا بأن لهم كرامات ، أظهرها الله على أيديهم ، ثم جمع الملك الصالح أيدى بيبرس وجمال الدين وأبى بكر ووضع يده فوق أيديهم ، وجعلهم يتعاهدون على الإخاء والولاء والتعاون فيما يرضى الله ورسوله ، ودعا لهم بالهداية والتوفيق ، ثم أمر جمال الدين أن يحضر إليه الملك حنا ، وجوان ، وسيف الروم ، وأنطون ، وبراميل ، فقال : هذا هو الملك حنا فى غشية البنج ، وأما الآخرون أصحابه فقد هربوا خوفاً ، وأعطى حنا شيئاً أيقظه ، فقال : أين أنا الآن ؟ فقال الملك : أنت أمامى أيها اللئيم الخائن ! ولما رأى ابنه جنيد وهم أن ينطق بما فى نفسه سبقه ابنه فقال : إياك أن تنسبنى إليك ، وأن تدعى أننى ابنك ، فإن ابنك جنيداً قد مات وقبر وأصبح تراباً ، وما أنا إلا جمال الدين ، سرقنى جوان . ووضعنى فى قبر ابنك ، ثم أخرجنى منه مدعياً أنه بعث ابنك جنيداً من مرقده ، وأحياه بعد موته ، وصدقتموه بجهلكم وضلالكم ، فسخر منكم وخدعكم وأخذ أموالكم ! فقال حنا : وإنى مستجير بك يا سيدى ! فقال : افتد نفسك بالمال . فقال : رضيت أن أشتريها بما تشاءون من المال . فقال : فديتك خمسون خزانة من المال ، وخزانة

لكل من أولاد إسماعيل ، وبيت المال والوزير شاهين . فقال : رضيت أن أعطيكم كل أولئك ، فقال جمال الدين ، وأن ترد إلينا ما أخذتموه من الأموال فى الإسكندرية سرقة واختلاساً . فقال : لكم ذلك أيضاً . فقال : وأن تقتل الأربعين رجلا أصحاب أنطون وبراميل ، الذين أزعجوا أمن الناس فى الإسكندرية وسرقوا أموالهم . فقال ورضيت بذلك أيضاً . فقال جمال الدين : الصلح خير أيها الملك ، فاعف عنه .

أحضر حنا المال ورءوس الأربعين لصاً ، وطلب أن يطلق سراحه ، فقال له الملك : فى قصرك ثلاثة شبابيك فأحضرها لنخلى سبيلك ، فلما أحضرها عفا عنه وأخلى سبيله .

ثم أمر الملك بالرحيل إلى الإسكندرية ، فركبوا فى الفلك « الغراب المنصور » وهم لا يعرفون الحكمة فى طلب الملك هذه الشبابيك ، وأسر جمال الدين فى أذن بيبرس وقال له : ستكون ملكاً ، فإذا جاء الأوان فلا تقبل الملك إلا بعد مشورتى وإذنى . فقال : سمعاً وطاعة ، وجرت بهم الفلك فى البحر حتى وصلوا الإسكندرية ، فدخلوها مشرقة وجوههم بما نالوه من نصر عظيم .

ثم رحل الملك ورجاله إلى مصر ، وأراد الله أن يمرض الملك فى سفره ، ودخل مصر دون زينة ولا مهرجان لاستقباله ، لأنه يحس وطأة مرض شديد .

وبعد أيام من مقامه فى قصره زاره الوزير ، فقال له الملك : احرص على ألا تعطل أعمال الديوان ، وليكن بيبرس نائباً عنى ، ولا تؤخر عملاً

أو قضية . فصدع الوزير بأمره ، وأجلس بيبرس فى الديوان على كرسى حكمه نائباً عن الملك الصالح ، فاغتاظ أيبك وشكا إلى أصحابه ؛ بشتك ، وسنقر ، والجوالى ، والحطيرى ، وقلاوون . فقالوا : إن منجم طيلون هو الذى يكتب له بالمحبة فى قلب الملك وتقربه منه . وبعد سبعة أيام من مرضه استأذنه الوزير أن يدعو إليه الطبيب فقال له : افعل ما شئت . فدعاه إليه وفحصه ، وبشره بالشفاء العاجل ، وقال : إنك فى حاجة إلى المقام فى مكان هادئ على شاطئ النيل ، وذلك كل ما تحتاج إليه ، فاختار المنصورة له مقاماً ، وسافر إليها وبنوا له مصطبة على شاطئ النيل أقام فيها سبعة أيام وبرئ من مرضه ، فأمر أن يبنى فى هذا المكان مسجد وحمام ، فصدعوا بأمره فى الحال ، وصلى الملك فى المسجد ، ودعا ربه أن كل من استحم فى هذا الحمام من المرضى برئ من مرضه ، وكل من صلى فى هذا المسجد ودعا ربه استجاب له ، ثم رحل إلى مصر ، سليماً معافى ، فاستقبل بالحفاوة ومظاهر البهجة والسرور ، وبعد أيام مرض مرض الموت فلزم فراشه ، واستأذنه الوزير أن يحضر إليه الطبيب ؛ فقال : إن الأجل أوشك أن ينتهى ولا حاجة بى إلى طبيب ، فليس له فى الأجل تقديم ولا تأخير .

اشتد المرض على الملك الصالح ، ثم قال : أين عثمان ؟ فقال عثمان : ماذا تريد ؟ فقال : أريد منك الدعاء ، فقال : أسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يخرج روحك الآن ؟ فقال الملك : آمين ، ثم قال للسيدة فاطمة شجرة الدر : إذا قضيت العدة وأيام الحداد وطلبت إلى

الزواج فلا ترفضى الزواج ، وإن امتنعت فإنى برىء منك يوم القيامة .
ثم قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وفهق فهقة خرجت فيها روحه ، تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جناته .

فأمر الوزير أن تطلق المدافع ، وأن يعلن وفاة الملك الصالح ، واجتمع الناس من كل ناحية ثم جهزوه وحملوه على الأعناق وصلوا عليه فى مسجد الحسين ، ثم دفنوه وأقاموا له مأتماً حافلا تلى فيه القرآن ووزعت الصدقات على الفقراء ، وسبحان الحى الذى لا يموت .

جمع الوزير رجال الدولة وأمراءها وقادتها وقال لهم اختاروا ملكاً يخلف الملك الصالح ، فقال الأكراد ، لا يتولى أمر الملك إلا من كتبت له الحجة بذلك . فقال الوزير : لقد كتبت الحجة إليك يا بيبرس فماذا تقول ؟ فقال : لن يكون ذلك ، فإنى ما بلغت مقام الملك ، وأنا أول من أطاع وآخر من عصى ، فقال أيبك : إنى أتولى الملك من بعده ، أو يتولاه بشتك أو سنقر . فقال الوزير : لا تعق كرامة الملك بمثل قولك هذا ، فإن الملك أكبر من أن يسند إلى أمثالكم . فقال الحاضرون : وكيف يكون أمرنا حينئذ ؟ فقال الوزير : ما دام بيبرس قد أبى أن يكون ملكاً فإننا نختار أحداً من أولاد عم الملك الصالح ، أو من أقاربه ، أو من الأفراد الأيوبيين ، فقالوا : إن للملك الصالح ابناً اسمه عيسى توران شاه ، ابن بنت ملك الكرج ، فالرأى أن نرسل إليه عثمان بن الحبلى بكتاب . فذهب عثمان إليه فوجده جالساً فى بستان تحت شجرة وبين يديه الكأس والخمر ، فسأله

عيسى : من أنت ؟ فقال : أنا عثمان بن الحبلى ، أتيت إليك بكتاب من الوزير شاهين ، لأن أباك الملك الصالح قد مات . فقال : كلنا نموت ، وما نحن إلا أموات ، فقال عثمان : إن أباك الملك الصالح ما كان يذوق اللحم إلا فى العيد ، وأنت تشرب الخمر ؟ ! فقال : اجلس يا عثمان واشرب معى ، فإن لقاء الأحباب عيد . فقال : إنى لا أشربها ثم جلس وناوله كتاب الوزير ، فقرأه ووجد فيه : اعلم أن الدنيا لا تدوم لأحد ، وأن أباك الملك الصالح قد فارق الدنيا وانتقل إلى رحمة الله ، وقد اخترناك لتكون ملكاً بعد أبيك ، وقد أرسلنا إليك عثمان بهذا الكتاب لتحضر إلينا من فورك . فلما قرأه قال : انتظر هنا يا عثمان حتى نستريح ، فانتظر عنده .

وأراد الوزير أن يرحل فى أثر عثمان فرغب الحاضرون أن يكونوا معه ، فقال لهم : أخشى أن تثيروا الفتن وتفرقوا وحدة الناس واجتماعهم على ما أرادوا ، فأقسموا له ألا يكونوا مثار فتنة ، وأن يكونوا من دعاة السلام والوحدة وجمع الكلمة ، فقال لهم : أكنتم حاضرين وفاة الملك ؟ فقالوا : نعم ، فقال : هل مات قتيلا ؟ فقالوا : لا ، إنه مات على فراشه ، ولم تمسسه يد أحد بسوء ، وقد استأثر الله بموته ، ولا يد لأحد من الخلق فى وفاته ، فقال لهم : اكتبوا لى حجة بقولكم هذا ووقعوا عليها بأسمائكم ، فكتبوا له ما أراد ، وأخذ الحجة منهم وحفظها عنده ، ثم ساروا حتى وصلوا إلى الشام ، فقال الأمراء : نريد أن نسبقك إلى الكرد فائذن لنا ،

فأذن لهم ، ومضوا إلى سبيلهم ، وقال الوزير لبيبرس : انتظر أنت هنا عند أملك ، فإنى أخاف عليك من أعدائك ، وإن قلبى يحدثنى بأن الأمراء ما سبقوا إلى الكرد إلا ليثيروا فتنة ، فكن بعيداً عنها ، وهأنذا سائر إليهم لأرى ماذا يفعلون . فقال : سمعاً وطاعة .

دخل الأمراء السابقون على عيسى توران شاه ، فسلموا عليه ، فقال : أهلاً بالأمراء ، ماذا تريدون ؟ فقالوا : إن أباك قد مات . فقال : كلنا إلى الموت ، وما نحن بمخلدين فى الدنيا . فقالوا : إن أباك قد مات قتيلا ، وما قتله إلا بيبرس ، فقد وضع له السم فى طعامه ، فلم يمهله ساعة . فقال : هل معكم بينة ؟ فقالوا : كلنا شهود على ذلك ، فقال : اكتبوا عليكم حجة بما تقولون ، فكتبوها وأخذها منهم وقال : ولن أكون ملكاً حتى آخذ بثأر أبى وأقتل من قتله .

وجاء الوزير شاهين فدخل عليهم وسلم ثم جلس ، ثم قال عيسى : أيها الوزير ، الأمر كله لله ، وكل شىء من الله ، ولكن لكل شىء سبباً ، وقد بلغنى أنكم تريدون أن أكون ملكاً لأخلف أبى الملك الصالح ، ولكنى عزمت على ألا أتولى الملك حتى أثأر لأبى من بيبرس وأقتله ، لأنه وضع السم لأبى فى طعامه ، وكان ذلك سبب موته ، فقال الوزير : ومن قال هذا القول ؟ فقال : هؤلاء القوم ، وقد أخذت عليهم حجة بقولهم هذا . فالتفت الوزير إليهم ، وقال : أحق ما تقولونه يا رجال ؟ فقالوا : سمعنا ذلك من الناس ، وما رأينا شيئاً بأعيننا ، فقال عيسى :

محق الله الباطل وأهله ، فقال الوزير : لنرجئ القول فى هذا حتى نذهب إلى دمشق ونتبين الحق من الباطل عند بيبرس ، فإنه هناك ، فقال عيسى : ذلك هو الحق . ثم استأذن الوزير وذهب إلى خيمته التى ضربها لمقامه .

وكتب إلى بيبرس كتاباً شرح له فيه ما قاله الأعداء ، ونسبوه إليه ، ثم بعث به عثمان إليه ، فذهب إليه وقبل يديه وناوله الكتاب ، فقرأه وعرف ما فيه .

أقام عيسى نائباً عنه ورحل هو والوزير شاهين والأمراء الذين شهدوا بأن بيبرس قتل الملك ، ولما وصلوا إلى دمشق ضربوا خيامهم ونزلوا فيها ، ولم يخرج بيبرس للقاء عيسى ، فسأل عن ذلك فقال الأمراء : إنه أحس خطيئته ، فخاف منك ، وامتنع عن لقائك ، فقال عيسى : أصبح الآن حضوره إلينا أمراً محتوماً ، لنتبين الحق من الباطل ، وأرى أن يذهب إليه الوزير شاهين ليبلغه رغبتى !

فذهب إليه الوزير وقال له : إن الملك توران شاه يدعوك إليه ! فلبس بيبرس وسار معه حتى كان بين يديه ، فلما رآه عيسى قام إليه وقال : اللهم عمر بك البلاد ، اللهم أهلك أعداءك ، ثم سأله : هل قتلت أبى يا بيبرس ؟ فقال : هل رأيت أو سمعت أن إنساناً يقتل والده وسيده وولى نعمته ؟ ! فقال : ذكروا لى أنك فعلت ذلك من أجل الملك . فقال بيبرس : عرضوه علىّ فامتنعت وأبيت ، مع أنى أحمل حجة

بخاتم أبيك يعهد فيها بالملك لى من بعده . فقال عيسى : بلغنى ذلك من هؤلاء الامراء ، ومعى حجة بخطهم بما قالوا ، وهى شاهدة عليهم ، ولما قرأ الحجة قال لهم : ما رأيكم وما تقولون ؟ ! فقالوا : ما رأينا بأعيننا ، ولكنا سمعنا الناس يقولون ، فقلنا مثل ما سمعنا ، فقال عيسى : وأين الحجة التى كتبها إليك أبى ؟ فناوله إياها ، ولما قرأها قال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، والتفت إلى الطائفة المنافقة الكاذبة ، وقال لهم : لقد صفحت عنكم ، وما كنتم تستحقون إلا أن أقطع رقابكم ! والتفت إلى بيبرس وقال : اصفح عنى يا بيبرس ، والحمد لله الذى جعلنى لا أفعل شيئاً حتى أتبين وأتثبت ، فصفح عنه بيبرس ، ثم بويع بولاية الشام .

وأقيمت الأفراح والولائم سبعة أيام ، وقال بيبرس له : إن المسلم لا يستحيي من الحق ، وقد بلغنى أنك شربت الخمر ، وأنت تعلم أنها رجس من عمل الشيطان ، وأنها أم الكبائر المحرمة ، وأنت إمام المسلمين ، ومن الواجب عليك أن تكون قدوة حسنة ، فقال عيسى : إنك سمعت ذلك ولم ترنى ، وقد أذنتك أن تقيم علىّ الحد وتضربنى ثمانين جلدة إن رأيتنى شربت الخمر ، فقال اكتب لى حجة بإذنك هذا ، فكتبها وسلمها إليه ، ثم رحلوا إلى مصر ، وهناك بايعه الناس ولقبوه بالمعظم .

١٣

أما بيبرس فإنه كان يمشى فى الجزيرة يوماً ، فوجد فلاحاً يشكو إلى يهودى ويقول : إن البهائم قد قل لبنها ، فبعد أن كانت البهيمة تدر علينا ملء وعاءين كبيرين فى الصباح ، ومثلهما فى المساء ، أصبحنا لا نملأ وعاء واحداً إلا من أربع بهائم ! فقال اليهودى : نزع الله الملك من عيسى الذى تولاه بعد الملك الصالح ، فإنه يجترح أكبر خطيئة ، فإنه مكتوب فى التوراة : إذا اجترح الملك أكبر خطيئة زال الخير من الأرض ، وقل لبن البهائم . فأمسك بيبرس اليهودى وأودعه فى السجن ، وقال : لقد اتهمت الملك بأنه آثم ويفعل المحرم ، فإن كنت صادقاً أطلقتك ، وإن كنت كاذباً قتلتك ، ثم مضى إلى الديوان ، وقال الملك عيسى : إنى عطشان يا أبا الخير ، فناولنى القلة ، فناوله إياها ، ولكن بيبرس أسرع وأمسكها قبل أن يشرب الملك منها ، فقال : ما هذا يا بيبرس ؟ فقال : إن الماء لا يمر بعطشان حتى يشرب ، فقال : إنه ليس بماء ، ولكنه شراب النعناع ، أتناوله لعلة فى جسمى ، فقال : ذلك ما أبحث عنه وأود أن أشرب منه ، فقال : وما هو شراب نعناع ، ولكنه ماء الورد ، فقال : وذلك ما أريده أيضاً ، فقال عيسى : إنه خمر ، فقال : والله لقد صدق اليهودى ، وما قولك فى حد الله الذى أوجبه على شارب الخمر ؟ فقال : لا أقول شيئاً ، وأخذه بيبرس واختلى به فى مكان ، وضربه ثمانين جلدة

وتركه ، وذهب إلى اليهودى فأنعم عليه وأطلقه .

وجد الأمراء فى هذه الحادثة فرصة فاتفقوا على أن يوغروا صدر الملك على بيبرس ، وذهبوا إليه ليلا ، وقالوا له : لقد كبر عندنا أن يأخذك بيبرس من بين أيدينا ويضربك ، وكان من الواجب أن يمهلك حتى ينفض المجلس ، محافظة على كرامتك ومنزلتك . فقال لهم : إن الحق معه ، وأنا الذى أمرته ، فلا لوم عليه . فقالوا : ولكن أباك كان إذا ارتكب أحد من رجاله إثماً ستره ولم يفضحه ، فقال : ولكنى أنا المذنب ، وعلىّ عقوبة ما اجترحته من خطيئة ، فقالوا : حصل خير ، ولكن أباك كان يحب بيبرس محبة كثيرة وقد منحه أموالاً كثيرة ، وقد توليت الملك وأنت فقير وأنت أحق بهذه الأموال منه ، فإذا كان الغد فاطلبها منه ، لأنها أموال أبيك ، وأنت أولى بها منه . وكان مرادهم أن يمرض بيبرس حزناً على الأموال التى سيأخذها منه الملك عيسى ، وإن خالفه أمر بقتله ، فقال عيسى : صدقتم فى ذلك ، وغداً يفعل الله ما يشاء .

ولما جاء الغد وكمل الديوان بجلسائه وفيهم بيبرس قال الملك عيسى : ما قولكم يا علماء الإسلام فى رجل توفى وله ذرية ، أيرثونه أم لا ؟ فقالوا : إنهم يرثونه ، سواء أكانوا ذكوراً أم إناثاً ، فقال الملك لبيبرس : وما قولك فى هذا يا بيبرس ؟ فقال : إنه الحق الذى أقره الإسلام وفرضه ، فقال الملك : وإنك قد أخذت أموال أبى ، وأريد منك أن تحصيها وتردها إلىّ ، فأنا ابنه ووارثه ، فأحضر الكتبة وجعلوا يحصونها ، فألفوها أموالاً كثيرة ،

وهم بيبرس أن يقوم لإحضارها ، ولكن الوزير شاهين أشار إليه أن يمتنع ، فقال : إن ذلك عسير علينا أيها الملك ، فهى أموال قد منحتها وأنفقت منها شيئاً كثيراً ، فأمر بحبسه ، وأشار إليه الوزير أن يذهب إلى السجن ولا يعصى ، وأفهمه بالإشارة أنه لا خوف عليه .

ذهب بيبرس إلى السجن وجلس فيه صابراً ، مرتقباً ما يجرى به القدر ، وفى آخر النهار جاءه الوزير شاهين وجلس إليه ، فقال له : لا تخف يا بيبرس ، واعلم أن الملك سيأتيك ويترك لك هذه الأموال ، ويصفح عنك وينعم عليك ، ولكن احرص على ألا تأكل أو تشرب شيئاً من عند أحد من الأمراء أو غيرهم ، وسأرسل إليك الطعام والشراب من عندى ، وهو مختوم بخاتمى ، وكل شىء غير مختوم بخاتمى لا تأكل منه ولا تشرب ، قال : سمعاً وطاعة . وسلم عليه وانصرف ، ولبث بيبرس فى السجن حريصاً على تنفيذ ما أمره به الوزير شاهين .

وفى اليوم الثالث من سجنه جاء إلى الملك رسول من صاحب دمياط ، وأعطى الملك كتاباً ، فأمر القاضى أن يقرأه عليهم فقرأه وإذا هو فيه : من صاحب دمياط إلى الملك المعظم ، لقد عسكر بظاهر المدينة جيش جرار لأربعة ملوك ، وفيهم جوان وسيف الروم ، فأدركنا بجنودك قبل أن نمزق ، فقال الملك : لا حول ولا قوة إلا الله ، ماذا جرى يا شاهين ؟ فقال : أرسل إليهم أيبك فى عسكره ، ليطرد المغيرين ويعود إلينا منصوراً غانماً ، فأمر الملك أيبك أن يسير إليهم ، ومعه الأمراء والجنود فسار حتى

وصل إلى ظاهر المدينة فضرب خيامه ونزل بها ينتظر يوم القتال . وعرف جوان بقدوم أيبك فدبر حيلة للقبض عليه ، وكتب إلى أيبك يقول : من شيخ الإسلام صلاح الدين العراقى إلى الوزير أيبك ، اعلم أنى كافر خوان ، وما كان إسلامى إلا نفاقاً ورياء ، وإنى لأشد الناس بغضاً وعداوة للإسلام والمسلمين ، وما حملنى على هذا النفاق والقيام بفرائض الإسلام أمام الناس إلا غيظى من بيبرس وخوفى منه على ملة المسيح يدحضها ، وقد ضيعت فى سبيل قتله أموالى ، وضيعت من أجل ذلك كثيراً من أموالك ، وأريد الآن أن أعوضك من أموالك أضعافاً مضاعفة ، وأن أكيد لبيبرس وأغمه ، بأن أجعلك تنتصر على هذه الجيوش وتغنم أموالها ، وترجع إلى مصر ظافراً غانماً ، فانتظرنى بعد مطلع الفجر فى مكان العرضين ومعك الأمراء ، حتى أشير عليك بما تفعله للفتك بهذه الجيوش ، وطردها وأخذ أموالها وأسلابها ، ولا تخبر أحداً من رفقائك بكتابى هذا ، ليكون الأمر سرًّا بينى وبينك . ثم بعث جوان بكتابه هذا إلى أيبك ، فلما قرأه : عجب واندهش ، وما كاد يصدق أن عالماً من علماء الإسلام ، وشيخاً كبيراً من شيوخه ، يكون كافراً بالرحمن ، وصابراً على أن يكيد له سرًّا ، وقرأ الكتاب على رفقائه ، فقال بشتك : إنه معذور ، وقال سنقر : حمله على هذا النفاق شدة غيظه ، ثم قال أيبك : وما الرأى حينئذ ؟ فقالوا : ابعث كتاباً مع رسوله إليه ، وعده بأننا سنلتقى به عند العرضين لنفعل ما يشير علينا به ، ونهزم الكفار ونأخذ أموالهم ، ونعود إلى مصر



بيبرس فى سجنه

غانمين منصورين ، فإذا رجعنا إلى مصر على هذه الحال أصاب بيبرس فى سجنه غم شديد ربما قضى عليه ، وإن لم يمت أفدنا ضياع ثقة الملك به وحللنا محله فى القرب من الملك وثقته بنا . واتفقوا على ذلك وكتب الكتاب وناوله إلى رسول جوان وودعه .

فلما أعطاه الكتاب وقرأه فرح واستبشر ، وكان جوان قد أعلم الملوك الأربعة بما دبره من المكيدة ، وقال لهم : اجعلوا فى أربع جهات من العرضين كميناً من الرجال ، فإذا سمعوا صوتى خرجوا من مكامنهم مسرعين وقبضوا على أيبك ومن معه من الأمراء ، وفى الليل أخذ جوان الجنود ووزعهم على مخابئهم ، ولبثوا فيها حتى أقبل أيبك والأمراء ، فجاءه جوان ومسبحته فى يده وهو يقول : هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس ، فسلم عليهم ، ورفع صوته بذكر الله قائلا : الله ، الله ، فسمعه الجنود ، وجاءوه مسرعين ، فقبضوا على أيبك ومن معه ، وجردوهم من أسلحتهم ودوابهم ، وكان قد أرسل إلى بقية رجاله جنوداً آخرين فطردوهم وأخذوا ما معهم من الأموال والدواب ، وأراد الجنود أن يقتلوا أيبك وأمراءه فاستجار بجوان ، فشفع فيهم على أن يرجعوا إلى ديارهم مجردين من الأموال .

ورجع أيبك ورجاله إلى مصر خائبين ، وكانوا موضع سخرية الناس واحتقارهم حتى دخلوا ديوان الملك ، فقال لهم : ماذا جرى يا أيبك ؟ فقال : غلبنا الكفار بكثرتهم ونهبوا أموالنا ودوابنا ، وحمدنا الله الذى كتب لنا السلامة

والهرب من بين أيديهم ، فقال : وما رأيك يا شاهين ؟ فقال : إن أردت نصراً مؤزراً أيها الملك فعليك بالأمير بيبرس ، فقد كان أبوك يعتمد عليه بعد الله فى قتال الأعداء، وما ذهب إلى عدو إلا كبته وخذله ورجع منصوراً غانماً ، ومن أجل ذلك كان أبوك يحبه ، ويقربه منه ، حتى إنه اتخذه ولداً ، فقال الملك : هيا بنا إليه الساعة ! فلما دخلوا عليه ، وسلموا عليه ، استقبلهم بالترحيب والتكريم ، ثم قال الملك : جئت الآن إليك لأبشرك بعفوى عنك وتوليتك قيادة الجند ، لتذهب بهم إلى دمياط ، وتدفع عنها جنود الكفار المعسكرين عندها ، والذين جاءوا لينهبوا أموالها ، ويقتلوا رجالها . فقل بيبرس : إنى رجل مدين ، ولا ينبغى أن أخرج من سجنى حتى أوفى أصحاب الديون ديونهم .

فقال الملك: لقد أبرأتك من دينك، ثم أمر أن تكتب حجة بأن بيبرس يتولى الملك من بعده ، فكتبت الحجة وختمها الملك بخاتمه ، وأخذها بيبرس ، وخرج من سجنه مكرماً مرفوع الرأس .

١٤

جهز بيبرس الجند وهم بالمسير ، فقال له الملك : سأخرج معك يا بيبرس ، لأنى راغب فى الجهاد دفاعاً عن الإسلام والمسلمين ، وعسى أن يكتبنى الله فى الشهداء المقبولين ! فقال بيبرس : إن فى مصاحبتك لنا كل خير وبركة ، وسارا متوكلين على الله إلى دمياط .

وزع جوان الغنائم على الملوك الأربعة ، وجعلهم لأربع فرق ، فرقة تغزو دمياط ، وفرقة تذهب إلى المنصورة ، وفرقة تذهب إلى فارسكور ، وفرقة فى البرية لإسعاف من يحتاجون إليها من هؤلاء الجنود . وكان سبب قدوم هؤلاء الأربعة من الملوك ، أن جوان حينما هرب من عند الملك حنا سأله سيف الروم عما عزم أن يفعله ، فقال : أريد أن أسلط الملوك على بلاد المسلمين ، لعلى أنتقم لنفسى منهم ، وأشفى صدرى بإهانتهم ، ثم كتب إلى ملوك أربعة يعرفهم يشكو لهم ضعف الملة . وهدم كنائسها ، وصوامعها ، ويقول لهم إن المسيح قد جاءه فى المنام وقال : لا يكتب النصر على المسلمين إلا على أيديكم ، وأنى قد أنبأتكم بما قاله لى المسيح ، ففرحوا وجمعوا رجالهم ، وساروا وهو معهم إلى دمياط ، حيث التقوا بأبيك ومن معه ، وفعلوا بهم ما فعلوا .

وسار بيبرس وجنوده ، والملك عيسى معهم ، وضربوا خيامهم عند دمياط ، حيث تشتعل نار الحرب بينهم وبين الملوك الأربعة ، وابتدأت

الحرب بالمبارزة ، فجعل بيبرس يقتل كل من برز إليه ، حتى فزع الكفار وهجموا عليه بجموعهم ، فتلقاهم بيبرس وجنوده وجعلوا يقتلونهم حتى ألقى الله الرعب فى قلوبهم وولوا هاربين ، واقتفى بيبرس وجنوده آثارهم من خلفهم ، وقامت بينهما معركة حامية عند المنصورة ، قتل فيها كثير من الكفار ، ولم يطيقوا لها صبراً ، ففروا ناجين بأنفسهم إلى فارسكور ، وتبعهم بيبرس وجنوده ، وضرب خيامه عند فارسكور حيث ضربوا خيامهم ، وأمر الملك عيسى أن يقيموا « تختبوشاً » سقيفة مرتفعة من الخشب يجلس فوقها ليشاهد معركة الحرب ، وهى قائمة بين الفريقين ، فأقيمت السقيفة كما أمر وجلس فوقها ، فكان على مرأى من الجميع ، ثم أمر أن يبنى له مسجد وقبة يدفن فيها فى ذلك المكان ، وكلف عثمان أن يشرف على حركة البناء ، وبينما كانت الحرب قائمة ، طلب الملك من أبى الخير أن يسقيه فجاءه بكأس من الخمر ، ولمعت فى يده على ضوء الشمس فرآها بيبرس وترك القتال وأسرع بسيفه إليه فوقف تحت السقيفة وقال : أيها الملك لا تشرب الخمر ، ولا تأت المنكر فى مواقف القتال والرجاء ، ولكن تب إلى الله واسأله النصر والمعونة ! فقال الملك : لا تحزن يا بيبرس ، فما أنا بشارب ، وقام ليرد الكأس إلى أبى الخير فسقط على الأرض على رأسه ومات لساعته ، فحمله الحماة والحرس ، وأضجعوه على فراش فى مكان بجوار السقيفة ، ورجع بيبرس إلى الميدان ، وصار هو وجنوده يقتلون الكفار حتى ولوا الأدبار ، وهرب جوان وسيف الروم وهلك الملوك الأربعة ،

وجمع المسلمون الأسلاب والمغانم ورجعوا إلى خيامهم ، وعرفوا أن ملكهم قد قتل .

اتهم الأمراء بيبرس بقتل الملك، وقالوا: لا يحل لك يا بيبرس أن تقتل ملكنا ، فقال : أمعكم بينة ؟ فقالوا : رأينا ذلك بأعيننا ، فسكت بيبرس وأسلم أمره إلى الله الذى لا تخفى عليه خافية ، وتوسل إليه أن ينجيه من القوم الظالمين .

فما أتم توسله ودعاءه ، حتى بان لقومه رجل فى أسلحته ، طويل القامة ، مقبل عليهم فى سرعة من البرية ، ولما وصل إليهم سلم عليهم ، فردوا عليه السلام ، وقال لهم : هل رأيتم هذا الغلام قتل ملك الإسلام ؟ فقالوا : نعم . رأيناه بأعيننا ، فقال: وما قولك يا شاهين ؟ قال: وماذا أقول وقد أجمعوا على أنهم رأوه بأعينهم؟! أما أنا فما رأيت شيئاً مما يقولون ! فقال الرجل: هل هؤلاء الذين يدعون أنهم رأوه من الأكراد؟ فقال: نعم، فقال الرجل: تأخروا عن بيبرس، وأفسحوا المكان من حوله، فتأخروا ، ثم تقدم هو إليه وجرد سيفه وقال: ورب الكعبة إن لم تظهر الآن كرامة بين هؤلاء الأكراد مزقت جسمك بسيفى هذا ، فتحرك الملك عيسى بإذن الله وقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، يا إخوانى عليكم بتقوى الله وطاعته ، واعلموا أن بيبرس برىء من دمى براءة الذئب من دم يوسف ، ولكنى وقعت على رأسى ، فقضى علىّ ربى ، وانتهى أجلى ، وهذه إرادة ربى ، وما مسنى بيبرس ولا أحد غيره بسوء ولا أذى .

ثم فهق فهقة مات على أثرها ، فحمله القوم ووضعوه فى صوانه وقال الرجل لبيبرس : ما رأيك فى هذه النجدة والمعونة ، فقال : يفوق جزاؤها عرض الدنيا ، فقال : اكتب حجة عليك بخمسة آلاف دينار لرجل ضاع اسمه ولم يجده . فكتب الحجة وأخذها ومضى إلى سبيله .

أما بيبرس فإنه كفن الملك ودفنه فى قبته ، ولما أتم بناء المسجد الذى كان الملك قد أمر به رحل هو وجنوده إلى مصر ، ودخلوها منصورين غانمين ، دون مهرجان ولا زينة ، لأن النفوس حزينة لموت الملك .

وجمع الوزير شاهين كبار رجال الدولة وأمراءها لاختيار ملك لهم ، فطمع أيبك أن يكون ملكاً ، وعارضه الوزير وقال : لن تكون ملكاً علينا ولا فى منامك ! وقامت بينهما مشادة ومنازعة ، فأرسلت إليهم السيدة فاطمة شجرة الدر ، وقالت : إن معى حجة بأن البلاد بلادى ، وفضًّا للنزاع على الملك ، فلأكن الملكة ، وليكن لى وكيل يقوم بإدارة شئون الملك وتصريف أموره ، فرضى جميع الحاضرين ، وانفض النزاع ونودى بفاطمة شجرة الدر ملكة ، وجعلت الأمير بيبرس نائباً عنها ووكيلا .

ولما بلغ الخليفة ببغداد تولية شجرة الدر الملك ، بعث إليهم يلومهم ، ويقول : إن هذه خطة الكفار ، يولون النساء أمورهم ، ويتخذون منهن ملكات عليهم ، فإما اخترتم من بينكم رجلاً يكون ملكاً لكم ، وإلا أرسلنا رجلاً ليكونه . فلما بلغ الملكة هذا قالت : ليس فى القرآن

ما يمنع النساء من ولاية أمور المسلمين ، ولكنى متنازلة عن الملك مختارة فولوه من تشاءون من الرجال .

تفرقت الكلمة ، واشتد النزاع ، فأشار عليهم العلماء أن يقترعوا ، فكانت القرعة لأيبك ، وكرروا الاقتراع مرات عدة ، وفى كل مرة يكون أيبك الملك ، فقال بيبرس : لا بأس أن يكون أيبك ملكاً على شرط ألا يبرم أمراً ، أو يفعل شيئاً إلا بأمرنا . فقال أيبك : ولن أبرم أمراً إلا بأمركم . فولوه عليهم وبايعوه ، واقترعوا على لقبه ، فكان لقبه المعز . وتولى أيبك الملك ، ولكن الناس له كارهون ، وكلما مر بهم فى طريق أو شارع ضحكوا منه ، وتغامزوا عليه ، وآذوا سمعه بألفاظ السخرية والتهكم ، ولم يخفف عنه هذه الحالة ما كان يبذله ويتصدق به من المال ، وبعد سبعة أيام من توليته الملك نفد صبره ، وفنى تجلده ، فلما انفض مجلس الديوان ، وخرج من فيه ، ولم يبق إلا أصحابه بشتك وسنقر وقلاوون وعلاء الدين ، قال لهم : لقد طفح صدرى غيظاً من بيبرس ، وسخرية الناس بى ، لأنهم يحبونه ، ويكرهون من يكرهه وأريد منكم أن تدبروا أمراً يكون فيه هلاك بيبرس ، فقالوا : إن المال شقيق الروح ، وإذا أنت كلفته بعمل ينفق فيه ماله ، وضيعته من يده ، حزن وربما اشتد به الحزن فمات ، فقال : وما العمل يا رجال ، فقالوا : أحضره بين يديك ، وقل له : هل يرضيك يا بيبرس أن أكون سخرية الناس فى غدوى ورواحى ، وجيئتى وذهابى ؟ فإن قال : وما العمل ؟ فقل له : أن تبنى لى طريقاً تحت الأرض ، أسلكه

بعيداً عن الناس فى ذهابى وأوبتى ، فإذا أنشأ لك هذا الطريق وأنفق فيه أمواله ، ثم طلبها منك، فقل : كثيراً ما أخذت منى أموالا ، وإنى أعزك وأحبك كأنك ابنى ، وحيئنذ يسكت وهو فى أشد حالات الحزن والتحسر ، وقد يكون ذلك سبباً فى موته ، فرضى أيبك عن رأيهم هذا وانصرفوا . ولما جلس أيبك فى ديوانه ، قال : يا بيبرس : لا ينبغى للملك أن يكون بين الناس فى كل حين ، وأريدأن تبنى لى طريقاً تحت الأرض من القلعة إلى بيتى لأسلكه بعيداً عن الأعين فى غدوى ورواحى ، فقال بيبرس : سأطيع أمر الملك على شرط أن تكون نفقات إنشاء هذا الطريق من أمواله ، وإن أراد أن تكون من مالى فليكتب لى حجة بالملك من بعده . فقال العلماء : ذلك هو الحق ، وكتب له أيبك الحجة ، وختمها بخاتمه ، وناوله إياها .

وانفض المجلس إلا من أصحابه ورفقائه ، فلما خلا بهم المكان جعلوا يلومونه ، لأنه عهد بالملك إلى بيبرس من بعده ، فقال لهم : لا يحزنكم هذا فإن أجلى طويل ، وسأدبر أمر قتله قبل أن يأتينى أجلى ، وبذلك أكون قد أفدت منه إنشاء الطريق على نفقته ومن ماله ، فقالوا : ولا بد من تدبير سريع ليلقى حتفه عاجلا ، فقال : عليكم ذلك التدبير ، فقالوا : إذا فرغ من إنشاء الطريق فقل له : أريد أن أتزوج من أملك فاطمة شجرة الدر ، فإذا ذهب إليها وعرض عليها أمر زواجك منها غضبت عليه وشتمته ، وحينئذ إما قتلها وإما قتلته ، فإن قتلها قتلناه فيها بحكم الإسلام ،

وأخذت أنت أموالهما ، وإن قتلته هى فلك أن تقتلها وأن تعفو عنها على أن تتزوج منك، والغنم لك فى كلتا الحالتين ، فقال : ذلك تدبير محكم قوى ، وأرجو أن يتم ، فقالوا : الأمر واضح ، ولا نرى فيه مانعاً ولا معوقاً ، ثم انصرفوا .

فرغ بيبرس من إنشاء الطريق وانتظم المجلس بالوزراء والأمراء والكبراء وعالج الملك ما شاء من الأمور ، ثم انفض المجلس ، ولم يبق مع الملك إلا قليل من العلماء والوزراء ، فقال أيبك : يا بيبرس ، إنى أريد أن أتزوج من أمك السيدة فاطمة شجرة الدر ، فبدا الغضب فى وجه بيبرس ، فقال الوزير شاهين : لا تغضب فأنت رسول أيبك إلى أمك فاطمة ، وما على الرسول إلا البلاغ ، فاذهب إليها وأخبرها ، فإن رضيت فلا بأس ، وإن أبت وأعرضت فقد أديت الرسالة ، فذهب بيبرس إليها ، فلما رأته قالت : أهلاً وسهلا ، ماذا تريد يا ولدى ؟ فقال : أريدك طيبة وفى عافية. وكان قد وصل إليها نبأ خطبة أيبك لها فغضبت وتوعدت كل من يطلب منها ذلك أن تقتله وإن كان أعز الناس عندها . ثم أخذتها سنة من النوم ، فرأت الملك الصالح يقول لها : لاعيب فيما أحله الله ، وقد وصيتك ألا تمتنعى عن الزواج إذا طلبت إليه ، وإن لم تقبلى كلام بيبرس وتطيعيه غضبت عليك يوم القيامة . ثم استيقظت وقالت : يا بيبرس قل ما عندك من الكلام ولا خوف عليك ، فقد رضيت بك وسيلة إلى تنفيذ هذه المكيدة ، والله يتولانا ويحمينا ، ويجعل كيد أعدائنا عليهم ، فأخبرنى بما جرى فى ديوان الملك ، فأخبرها وشرح لها رغبة أيبك فى الزواج منها ،

فقالت : رضيت بذلك على أن يكون الوزير شاهين وكيلى ، وعلى أن ينفذ الشروط التى أشترطها ، فذهب بيبرس إلى الوزير وأخبره بما قالت : فقال ارجع إليها وقل لها : اجلسى خلف الستارة واذكرى ما تشائين من الشروط أمام العلماء والأمراء ، فجاءت وجلست خلف الستارة ، وقال الوزير : يا أيبك ، أنا وكيل السيدة فاطمة ، فهل رضيت بذلك ؟ فقال : رضيت ، فقال الوزير : وأنت يا سيدتى ماذا تريدين من الشروط فى زواجك من أيبك ؟ فقالت : لا أحتجب عن ابنى بيبرس ، فهو يدخل فى أى وقت يشاء ، فقال الوزير : رضيت بذلك يا أيبك ؟ فقال : رضيت ، فقالت : وكل ما أملكه من المال لابنى بيبرس ، وتكتب له حجة بذلك ، فقال الوزير : رضيت يا أيبك ؟ فقال : رضيت ، فقالت : لا أنتقل من قصرى ، فقال أيبك : رضيت . فقالت : يكون مهرى ست خزائن من المال ، المقدم منه أربع ، والمؤخر اثنتان ، فقال أيبك : رضيت ، فقالت : إذا جاءنى بيبرس أدخله الحمام وأحضر له أفخر الملابس ، فقال أيبك رضيت ، وكل شىء أردته لبيبرس فهو لك ، ثم قرئت الفاتحة على ذلك ، وقال الوزير : أين المهر؟ فقال أيبك : سأحضره غداً ، وانفض المجلس .

اجتمع أيبك بأصحابه الأربعة وقال : لقد كان تدبيركم علينا شراً وبيلا فقد جعلت السيدة فاطمة لبيبرس جميع ما تملك من المال ، وجعلت مقدم الصداق أربع خزائن ، وأنى لى بها ؟ فقالوا : خذها من بيت المال ،

فقال : إن فعلت ذلك صلبت فى رابعة النهار ، ولكن أرى من المحتوم عليكم أن يعطينى كل منكم خزانة من المال ، وإلا أمرت بشنقكم ، لأنكم أنتم الذين دبرتم هذه المكيدة ، وكانت أخطر مكيدة جرت علينا الوبال والخيبة ، فقالوا : لا يضق صدرك ، فسوف نحضرها إليك ليلا ، وقاموا لشأنهم ، ثم جاءوه بها ليلا ، وقالوا : ليس أمامك الآن إلا التفكير فى هلاك بيبرس ، لتستريح منه .

١٥

جلس أيبك فى ديوانه ، وأحضر الخزائن ، فأخذها الوزير ، وأرسلها إلى السيدة فاطمة فى قصرها ، ثم ذهب أيبك والوزير والعلماء إلى السيدة فاطمة ، وهناك أبرموا عقد الزواج ، ومنحت بيبرس الخزائن الأربع هبة منها له ، وكاد أيبك يموت كمداً من بيبرس حينما أخذ الخزائن ، وفى ليلة دخوله بالسيدة فاطمة أمرت الجوارى ألا يدخلوه عليها إلا بعد مضى أربع ساعات من الليل ، ولما جاء الليل أجلسه المماليك فى حجرة الجلوس ، وسقوه شراباً لذيذاً ، ثم أخذوه ، ودخلوا به سبعة أواوين ، وفى كل إيوان يجلسونه ويسقونه شراباً شهيًّا ، وينعم عليهم بالمال ، ولما دخل عليها وجدها جالسة على سرير مرصع بالجواهر والذهب ، وقد لبست حلة لم يرها من قبل فى قصر من القصور ، فسلم عليها فردت عليه السلام ، ولما جلس أمرت أن يأتيه الطعام والشراب ، ولما حضر الطعام دعاها إلى أن تأكل معه فأبت ، فألح عليها ، فغضبت فى وجهه ، فاضطجع فى فراشه ونام والغم يملأ صدره ، وفى الصباح رغب أن يستر موقفه . فدخل الحمام واغتسل ، ولبس حلة أخرى غير التى كان يلبسها ، ونزل إلى الديوان وجلس فى أصحابه ، وما لبث قليلا حتى جاء فيروز الصالح ونادى بيبرس من بينهم قائلا : أمك السيدة فاطمة تدعوك إليها فقم وأجب دعوتها ، فذهب إليها ، وبعد قليل رجع إليهم ، وعليه حلة أخرى ، أغلى وأجمل من الحلة التى

لبسها أيبك ، فكظم غيظه ، وانتظر حتى خلا الديوان إلا من أصحابه ، فقال لهم : كيف رأيتم ما فعلته فاطمة اليوم مع بيبرس ؟ ! فقالوا : جاءتك مصيبة أعظم من تلك التى أنت فيها ، لقد كنت معنا منزوياً مستريحاً ، ولكنك طمعت فى الملك ، فحقر شأنك ، وما أفادك الملك إلا الصغار والمذلة ، فقال لهم : وماذا أفعل ؟ فقالوا : إذا اجتمع العلماء فى مجلسك من الغد ، فقل لهم : إذا كان لى ابن بلغ الحلم ، ومنعته من الدخول علينا أنا وزوجتى ، فهل علىَّ من حَرَج فى الدين؟ وسيفتونك بأنه لا حرج عليك ، وحينئذ كلِّف الوزير أن يمنع بيبرس من الدخول عليها والاتصال بها . فلما اجتمع المجلس وسأل العلماء قالوا : لا حرج عليك إن منعته ، فقال أيبك : يا بيبرس من الآن لا تدخل على أمك ، ولا تذهب إليها فى قصرها ، وانتقل هذا الخبر إلى شجرة الدر سريعاً ، فقالت : لا ضرر فى ذلك ، وله أن يمنعه ، وإن خالف شرطى ، ثم أمرت الغلمان والجوارى أن يجمعوا الفرش والأثاث ويتركوا الأواوين خالية ، أفرغ من كف السائل ، وألا يضيئوا المصابيح إلا مصباحين ، أحدهما عند السلم والثانى داخل القصر فى إيوان من الأواين ، ففعلوا ما أمرت ، ثم دعت إليها جارية لها اسمها غيلانة سوداء بشعة المنظر ، فقالت لها : إذا جاء أيبك فخذيه عندك ، فقد خلعته عليك الليلة ، وضايقيه حتى ينام باكياً ، فقالت : سمعاً وطاعة .

ولما حضر لم يجد الغلمان فى استقباله ، ووجد الأواوين غير مفروشة ،

والقناديل غير مضاءة ، فسكت على مضض وحيرة ، واستقبلته الجارية غيلانة ، فأخذته إلى حجرتها وأجلسته فيها ، فما ظنها جارية ، وظن أنها عفريت خطفه وأجلسه فى مكانه الذى يسكن فيه ، وساوره الرعب والفزع ، وزاد فزعه حينما رآها قد أغلقت باب الحجرة عليها وعليه ، ثم خلعت ملابسها فبان جسم كأنه الفحم ، وجلست إليه فنفر منها ، فجعلت تضربه وهو يستغيث ويقول : ارحمنى أيها العفريت ، أنا فى جاهك أيها العفريت ، وما زالت تضربه حتى أشرف على الهلاك ، ثم جاءت إليه شجرة الدر ففتحت الباب عليهما وشفعت له عند الجارية أن تمسك عن ضربه وأخذته إلى حجرتها ، فلما ذهب عنه الروع قالت له : أيهما أحسن وأجمل ، هذه الليلة أم حجزك بيبرس عن اتصاله بأمه ودخوله عليها ؟ ! فقال : أنا مخطئ ، وأقسم بيمين الطلاق ثلاثاً ألا يمنع بيبرس عن الدخول عليك ، وإن لبث معك آناء الليل والنهار . ثم أمرت له بالطعام ، فأكل ونام وحده دون أن تقترب منه أو تتصل به ، وفى الصباح ذهب إلى الديوان فجلس فى خاصته من الوزراء والأمراء والعلماء وكبار الدولة الذين يجلسون معه كل يوم ، ولما استقر به المكان قال : يا بيبرس ، اذهب إلى أمك فى قصرها ، فقال بيبرس : لقد منعتنى من الذهاب إليها ، فقال : منعتك الليلة الماضية فحسب ، وبعدها فلك أن تذهب إليها متى شئت ليلا ونهاراً ، فلن يمنعك عنها أحد ، فذهب إليها وأخبرته بما جرى فضحك الأمير وفرح .

حرم أيبك على نفسه أن يذهب إلى قصر شجرة الدر . وكان إذا عرضت عليه قضية فى مجلسه وأصدر فيها حكمه عقب عليه بيبرس وقال : ما هذا بصواب ، ولكن الحكم فى هذه القضية كيت وكيت ، فيتبع العلماء والحاضرون حكم بيبرس ويمضونه ، وما زال على هذه الحال حتى عرف الناس أن بيبرس واسع المعرفة ، كثير الخبرة ، صائب الرأى ، سليم الحكم .

وذات يوم اجتمع أيبك برفقائه الأربعة ، وشكا إليهم همه ، وقال : لقد ضقت ذرعاً ببيبرس ؟ فقالوا : هاك تدبيراً آخر لا منجاة لبيبرس من الهلاك به ، وذلك أن تقول غداً فى مجلسك : يا بيبرس لقد اخترتك وزيرى الأكبر ، ولذلك لا أستغنى عنك ليلا أو نهاراً ومن أجل ذلك أمرتك أن تبنى لك بيتاً قريباً من القلعة ، لأدعوك إلى الحضور لدى عند الحاجة ، من غير أن أرسل إليك رسولا يدعوك ، فربما كان الأمر الذى أدعوك من أجله سرًّا لا ينبغى لأحد أن يعرفه ، ولا يعرف أنا اجتمعنا وتشاورنا ، وسيجيبك بيبرس إلى ما طلبت ، ويبنى بيتاً واسعاً كبيراً ، لأن همته عالية ، وشخصيته قوية بارزة ، وبعد أن يتم البناء سندبر لك ماستفعله لتقتله ، فنفذ الملك ما قالوا . وعرف عثمان من بيبرس ما طلبه أيبك فقال له : لا تتعب نفسك . والزم بيتك وعملك ، واترك لى أمر هذا البيت ، لأبنيه على النظام الذى أريده ، والشكل الذى أرتضيه ، فقال بيبرس : هذا مالى بين يديك فافعل ما شئت .

وبنى عثمان البيت وجعل فيه ديواناً أوسع وأجمل من ديوان الملك بالقلعة ، ووضع فيه عرشاً كعرش الملك ، وكراسى أكثر عدداً من التى بديوان أيبك ، ثم أمر عثمان المهندس أن يضع فى الديوان مدفعاً كبيراً تكون فوهته مصوبة إلى أيبك إذا جلس على عرشه ، وأن يضع مدفعاً آخر على رأس السلّم ، وأن يضع الثالث فى حجرة الجلوس ، والرابع فى المرحاض ، فوضع المهندس المدافع حيث أراد عثمان ، وأحكم وضعها ، ثم أمر القاضى أن يكتب حجة شرعية يكون بها ربع هذا البيت للحرمين ، والربع الثانى للعلماء والأشراف ، والنصف للفقراء والمحتاجين . وتقضى على من سكن فيه ، وإن كان صاحبه ومالكه أن يدفع أجرة سكنه إلى هؤلاء . فكتب القاضى ذلك وختمه بخاتمه ، وأمر بيبرس أن ينقش ما فى هذه الحجة على الحجارة من باب البيت ، لتثبت الكتابة وتدوم ، ويراها كل ناظر ، فكتبوا ما أراده وسماه بيت الوزير ، ثم ذهب إلى بيبرس وبلغه أنه قد فرغ من بناء البيت ، فابتهج بيبرس وذهب فى الصباح إلى ديوان الملك وأخبر أيبك أن البيت قد تم بناؤه ، فقال أيبك : هيا بنا لنراه ، ونفرح ببنائه ، فلما دخلوه وجد أيبك فيه ديواناً فخماً به عرش الملك ، وكثير من الكراسى ، فجلس أيبك على العرش وجعل ينظر ويتأمل ، فرأى مدفعاً كبيراً قد صوّب إلى صدره وهو جالس ، ففزع ونهض قائماً ، وطلع سلم البيت فوجد على رأسه مدفعاً مصوّباً إلى الصاعد فيه ، فزاد فزعه ، وذهب إلى حجرة الجلوس ، فوجد فيها مدفعاً ، فشعر من شدة فزعه أنه يريد أن ينفس عن بطنه ، ويقضى

حاجته ، فطلب المرحاض ، ولما دخله جلس ليقضى الحاجة ، وينشد الراحة ، ثم رفع بصره فوجد مدفعاً مصوباً إليه ، فنهض واقفاً ، ونزل إلى الديوان فى هذا البيت ، وأجلس بيبرس على عرش الملك فيه وقال له : انظر : ماذا ترى أمامك ؟ فقال أرى مدفعاً مصوّباً إلى صدرى . فأخذه ومضى إلى المدافع الباقية ، وأطلعه عليها ، ثم قال له : أهذا يرضى الله ورسوله ؟ ثم قال لمن معه من العلماء والأمراء : تعالوا معى لأريكم ما فعل بيبرس ليقتلنى ، وأطلعهم على المدافع الأربعة ، وعرفهم أنها ما وضعت فى هذه الأماكن ، وعلى هذه الصورة إلا ليقتله بيبرس بها ، فالتفتوا إلى بيبرس وسألوه : أأنت وضعت هذه المدافع ؟ فقال : لا علم لى بها ، وما رأيتها من قبل ، وما فعلها إلا عثمان ! فقال أيبك : دعنا من هذا كله ، وقد أمرتك أن تهدمه ، فقال : سمعاً وطاعة ، ثم تركه وانصرف ، أما بيبرس فإنه دعا إليه عثمان وهو غضبان أسف ، فلما حضر بين يديه فى ديوان البيت أشار إلى المدفع وسأله : ما هذا يا عثمان ؟ — مدفع : ولماذا وضعته هنا ؟ — ليضرب أيبك فى صدره إذا جلس على عرش هذا الديوان ، ثم أخذه إلى رأس السلم وقال : وما هذا يا عثمان ؟ — مدفع ليضرب أيبك وهو صاعد فى السلم ، فمضى به إلى حجرة الجلوس وسأله : وما هذا يا عثمان ؟ — مدفع يضرب أيبك إذا ما هرب إلى هذه الحجرة . فذهب به إلى المرحاض وقال : وما هذا يا عثمان ؟ — مدفع يضرب أيبك إذا فزع ومشت عليه أمعاؤه وجاء إلى المرحاض ليريح نفسه .

فقال بيبرس : جزاك الله بما فعلت يا عثمان ، لقد أغضب أيبك ما فعلته ، وأمرنى بهدم البيت ، فقال عثمان : لا ضرر فى ذلك ، فاذهب أنت إلى شغلك ، وسأقوم أنا بهدم البيت ، ومحو آثاره من مكانه هذا ، فإذا فرغت من ذلك جئتك وأخبرتك ، فقال : عجل يا عثمان وائتنى سريعاً ، ثم تركه ومضى .

ذهب عثمان إلى نقيب الأشراف البكرية ، وشيخ السادات ، وشيخ الإسلام ، فقال : أيها السادة الأفاضل ، بنيت بيتاً وجعلت ربعه للعلماء ومشايخ الإسلام ، ولكن أيبك أمر بهدمه ، فقالوا : لئن كان ما تقول هدمنا قلعته على أم رأسه ، فقال : انطلقوا غداً إليه فى ديوانه ، وامنعوه عن هدم البيت ، ثم ذهب إلى ناظر الحرمين وقال له : بنيت بيتاً وجعلت ربعه للحرمين ، ولكن أيبك يريد هدمه ، فقال : هدم الله أجله ، ولا يسر له أموره . فقال : اذهب إليه غداً فى الديوان لتحمى البيت من الهدم ، ثم انصرف عثمان إلى الفقراء والمساكين وذوى الحاجة من البائسين والضعفاء وجعل يطوف بهم ، ويخبرهم بما لهم فى البيت ، وأن أيبك أمر بهدمه ، وحرضهم على أن يجمعوا جموعهم ويذهبوا إليه فى ديوانه ليرغموه على ترك البيت وعدم هدمه ، لينتفعوا بنصيبهم فيه .

ثم رجع عثمان إلى بيبرس فى بيته وقال له : قد هدمت البيت ، وأزلت أنقاضه ، وما تركت له أثراً يدل عليه ، فقال : جزاك الله خيراً ، وغداً

نبلغ أيبك فى مجلسه أننا هدمناه .

وفى الصباح ركب الأمير بيبرس ومضى إلى الديوان ، فسار به عثمان فى طرق أخرى بعيدة عن البيت ، لم يكن قد سلكها إلى الديوان من قبل ، فسأله : لم غيرت الطريق هذا اليوم يا عثمان ؟ فقال : وجدت الطريق الذى كنا نسير فيه غير ممهد هذا اليوم للسير ، وذلك بسبب هدم البيت وشغله ببعض أنقاضه وترابه ، فجئت من هذا الطريق اليوم حتى ينظف ويمهد ، ويستقيم السير فيه ، فصدقه بيبرس ومضى إلى الديوان ، فدخل وجلس فى مكانه بجوار الملك ، وما لبث أن دخل الأشراف على أيبك وهم يقولون : كيف تحل ما حرم الله يا أيبك ؟ ! إنا لقادرون على أن نخلعك ونولى غيرك . فحار أيبك واضطرب ، وقال لهم : ماذا جرى ؟ فمنعتهم شدة غيظهم عن إجابته ، فقام إليهم بيبرس ، وتلطف بهم وأجلسهم ، وما كادوا يجلسون حتى أقبل العلماء والطلبة والفقهاء وهم يقولون : ما هذا الظلم الفادح الذى أمرت به يا أيبك ؟ كيف تخرج عن الشريعة وتطيع هواك؟ فتلطف بهم بيبرس وقال : اجلسوا وارفقوا بأنفسكم حتى نعلم ما جرى ، وما كادوا يجلسون حتى دخل عليهم ناظر الحرمين وشيخ السادات وجموع الفقراء والمحتاجين وهم يقولون : والله إن هدم أيبك بيتنا هدمنا قلعته على رأسه ، فابتأس أيبك وقال : ماذا حصل منى فأغضبكم ؟ فقالوا : إن الأمير بيبرس بنى بيتاً وجعل ربعه للحرمين وربعه للعلماء ، ونصفه للفقراء فكيف تأمر بهدمه ، وتغفل أمرنا طوعاً لهواك ؟ ! فقال أيبك : والله

ما علمت أنه موقوف ، وإن الحق معكم ، ولن أتعرض بعد اليوم لبيتكم .
وفرح بيبرس فى نفسه وقال : لأن يأخذ هؤلاء الناس أجرة البيت ينتفعون بها خير من هدمه . ولقد أحسن عثمان صنعاً فيما فعل ، إذ حمى البيت بوقفه على هؤلاء المستحقين . وكاد الغيظ يقتل أيبك ففض المجلس وذهب كل إلى شأنه ، ولكنه حجز معه رفقاءه الأربعة . فلما خلوا إلى أنفسهم قال لهم : لقد فضحتمونى وقد رأيتم ذلك بأعينكم ، وإنى لا أقدر على العلماء والأشراف والفقراء ، فإن لم تدبروا لى أمراً أرد به اعتبارى وينفذ به مرادى قطعت رقابكم .
فقال علاء الدين : الأمر علينا أهون ما يكون ، فإذا جاءك بيبرس فى ديوانك فانظر إليه فى غضب وقوة ، وقل له : الزم بيتك يا بيبرس ، فلست فى حاجة إليك ، فيعظم عليه ترك هذا المنصب الجليل ، ويحزن حزناً يموت به ، فقال أيبك : أرجو أن ينفع هذا التدبير ويؤدى الغرض منه ، ثم انفض مجلسهم .

فلما دخل بيبرس على أيبك فى مجلسه قال له : يا بيبرس : إلزم بيتك من الآن ، ولا تحضر لنا مجلساً فى هذا الديوان فقد عزلتك من منصبك ، وأصبحت من هذه الساعة لا صلة لنا بك . فابتسم بيبرس مشرقاً وجهه ، وقال : سمعاً وطاعة ، وخرج من الديوان فرحاً يقول : الحمد لله ، ذلك ما كنا نبغى ، ولقيه عثمان فأخبره بما فعل أيبك فقال له : لا يكن فى صدرك حرج مما قضى ، ولا تحمل من أجله همًّا ولا غمًّا .
ومضى معه إلى بيته .

وفى الصباح وقف عثمان فى الطريق ، فالتقى به نقيب الأشراف وهو ذاهب إلى ديوان الملك حسب عادته والعرف المتبع ، فقال له عثمان : تفضل أنت وجماعتك إلى بيتكم الجديد ، فهناك أماكنكم وكراسيكم معدة لكم فى ديوانه. وذهب معهم فأجلسهم. ورجع إلى الطريق ، فلقى شيخ الإسلام ، المعز ابن عبد السلام ، ومن معه من العلماء والأمراء ، والبهلوان ، فأخذهم إلى البيت الجديد وأجلسهم فى أماكنهم من الديوان ، فلما اجتمعوا وغص بهم الديوان قالوا : يا عثمان لا ينقص مجلسنا هذا إلا الملك ، فقال : أنا آتيكم به ، ثم أمر الخدم أن يأتوا بالطعام والشراب ، فأكلوا هنيئاً وشربوا مريئاً ، وقال عثمان لهم ، قد جعلنا لكم فى هذا البيت كل يوم مثل ما رأيتم ، وجعلنا لكم مرتبات فوق مرتباتكم ، على ألا تذهبوا إلى أبيك فى ديوانه أبداً بعد هذا اليوم . فقالوا : ذلك ما نوده ونرجوه ، ثم تركهم جالسين يتحدثون ، وذهب إلى أرباب الطبول والمواكب ، وأمرهم أن يستعدوا بطبولهم وآلاتهم ويقفوا فى وسط الطريق ، ففعلوا ما أمر . ثم ذهب إلى بيبرس فى بيته وقال له : أجب العلماء والأشراف ، فقال : ولأى شىء يدعوننى يا عثمان ؟ فقال : لا أعلم ، ولكنى كنت جالساً أمام باب البيت الجديد ، فجاءونى وقالوا : ادع لنا سيدك بيبرس ، فتركتهم فى الفناء وجئتك لأبلغك ، فقال : ولِمَ لَمْ تجلسهم فى الديوان يا عثمان؟ فقال : إنها كلمة ورد غطاها ، فأجابه بيبرس وركب جواده وسار معه ، حتى وصل إلى الموكب الذى أعده لقدومه ، فمشى الموكب أمامه ، فقال : ما هذا يا عثمان ؟ فقال : اسكت ولا تتكلم

وسوف تعرف ماتسألني عنه ، ولماوصل إلى البيت الجديد ، ودخل ديوانه وقف الحاضرون إجلالا له وفرحاً بقدومه ، ثم أجلسه عثمان فيهم على عرش الملك وهنأه الحاضرون وقالوا : أنت ملكنا ، والحاكم فينا ، وإن أردت عزل أيبك عزلناه ، أو طرده طردناه ، فقال : لا شيء يدعو إلى ذلك ، وما هو إلا الوالد وأنا ولده ، وحكمه نافذ ، فقالوا : لا بد من حضورنا إليك فى هذا الديوان كل يوم ، فلا تخالفنا فيما أردنا ، فأجابهم إلى رغبتهم ، وجعل يحكم ويأمر وينهى ، وهم له أقوى ظهير ومعين .

أما أيبك فأصبح لا يحضر إليه فى ديوانه أحد غير رفقائه الأربعة ، وبلغه ما ذاع وانتشر بين الناس ، من أن الحكم فى يد بيبرس ، وأن الحكومة فى بيته الجديد ، فضاق صدره ، واضطرب أمره ، وقال : هيا بنا نذهب إلى الديوان الجديد متنكرين ، لنرى ما يجرى فيه ، وقبل أن يبرحوا مكانهم أتاهم رجل وقال : إنى مظلوم يا ملك الإسلام فقال : وما ظلامتك ؟ قال : أخذ منى زوجتى رجل اسمه على البشونى ، وطلبتها منه فأبت زوجتى وقالت : إنى مجنون ، وطردنى الرجل من بيته ، وقال شيخ الإسلام : ما دمت مجنوناً فلا ينبغى أن تعيش معك زوجتك ، فقال له قلاوون أحد جلسائه : لسنا أقوى من شيخ الإسلام ، وليس لك عندنا غير ما سمعت منه ، وطرده أيبك طرداً شنيعاً ، فخرج يبكى قائلا : حسبنا الله ونعم الوكيل . وسأله رجل وهو سائر عما يبكيه فحكى له : فقال : اذهب إلى بيت الحكم الجديد تجد من ينصفك ويرد إليك زوجتك . أما أيبك ورفقاؤه

فإنهم ساروا خلف الرجل متنكرين ووقفوا بباب الديوان ينظرون ما يجرى فيه من الأحكام .

دخل الرجل المظلوم على بيبرس فى مجلسه وقال : إنى مظلوم فخذ بيدى ، أخذ الله بيدك يوم القيامة ، فقال بيبرس : اذكر لنا قضيتك ، فقال : أنا حسن الإسكندرى ، تزوجت فى الإسكندرية ولم أعقب ، ولى بين الناس مكانة محترمة . وذات يوم كنت سائراً على شاطئ البحر فرأيت غلاماً بائساً فقيراً ، يشكو من الجوع والعرى اسمه على البشونى ، فأشفقت عليه وأخذته إلى بيتى ، وقلت لزوجتى : هذا الغلام فقير ، وليس له من يعوله ، ونحن لا ذرية لنا ، فاستخرت الله واتخذته لى ولداً فاجعليه ابناً لك ، وسيجزينا الله بذلك خير الجزاء ، ففرحت به ، وكفلناه كفالة الوالد لولده ، ولازمنى فى متجرى وبيتى ملازمة الابن لأبيه ، حتى حذق التجارة ومهر فيها . فوثقت به واطمأننت إليه . وذات يوم قال لى : أريد يا والدى أن ترسل معى تجارة وأرحل إلى مصر ، لأتعرف بتجارها فأجبته إلى ما طلب ، ولما وصل إلى مصر باع ما أخذه منى واشترى له بمصر بيتاً ، وجعل يتجر فى أموالى ، وكانت زوجتى ترسل إليه الأموال على غير علم منى ، فتزوج من مصر وعاش فيها عيشة راضية ، وأصبح معروفاً بين التجار ، وجعلت زوجتى تبعث إليه بأموالى حتى أصبحت صفر اليدين فقلت لها : ماذا نفعل الآن وقد أصبحت لا أجد ما نقتات به ، فقالت : ليس لنا إلا الرحيل إلى مصر ، وهناك ننزل عند ولدنا ، وسيكرمنا كما أكرمناه ،

ويعيننا كما أعناه ، وسيمدك بالمال الذى تتجر فيه ، وحينئذ تستقيم بنا الأحوال ، فأطعتها وبعت بيتى وما بقى عندى من المتاع ، ورحلنا إلى مصر ، ودخلنا عليه ، فأخذ زوجتى وصعد بها إلى زوجته فى بيته ، وتركنى جالساً بجوار البواب وما سأل عنى ولما جاء المساء أطعمنى البواب من طعامه . ونمت معه فى حجرته ، وأنا فى حيرة ودهشة ، ولما نزل فى الصباح قمت له وسلمت عليه ، فقال : لا تؤاخذنى بما نسيت ، فخذ نصف الفضة هذا ، وامش فى مصر لتنظر ما فيها ثم ارجع إلينا عند المساء ، ولما رجعت فى المساء طردنى البواب وقال : إن صاحب البيت أمرنى ألا أدخل أحداً بيته ، فنمت فى الشارع أمام الباب . وفى الصباح قابلته وقلت له : أكثر الله خيرك يا ولدى ، ولقد رددت معروفى بأحسن منه فأعطنى زوجتى ، لنذهب إلى حيث نشاء ، فقال لى : ليس عندى لك زوجة ، واشتد بيننا الخلاف ، وعلا الصياح ، فاجتمع الناس ، وما وجدت منهم من ينصفنى ، فذهبت إلى شيخ الإسلام وسردت عليه قصتى ، فقال : هل عندك بينة ؟ فقلت : إن ما أقوله الحق ، ولكنى لا أستطيع أن أثبته بالبينة ، فقال : ما دمت عاجزاً عن البينة فلن أستطيع أن أحكم لك أو عليك ، فتركته وذهبت إلى أيبك ، وقصصت عليه قصتى فطردنى طرداً وبيلا ، فنصح لى بعض الناس أن آتى إليك لتنصفنى . فجئت إليك من فورى ، وهذه قضيتى .

فقال بيبرس : يا عثمان ، هات لى علياً البشونى الآن ، فذهب

عثمان إلى متجره ، فوجده جالساً جلسة المتكبرين ، وقد وضع ساقاً على ساق ، واتكأ على وسادة من الحرير ، فتقدم عثمان إليه وسأله : أأنت على البشونى ؟ فقال : نعم ، وماذا تريد ؟ فقال : أجب دعوة الوزير بيبرس الآن ، فقال : ألم يجد الوزير رجلا آخر غيرك حتى يبعثك؟ ثم قام وأحضر البغل وهم أن يركبه ، فتقدم إليه عثمان ودفعه بيده ، وصفعه « بالرزة » وقال : خسئت أيها اللئيم الخائن ، ألم يعجبك عثمان ، حتى تعترض على الوزير لأنه أرسله إليك ؟ والله لن يركب البغل غيرى ، على أن تمشى خلفى واضعاً يدك على كفل البغل ، وإن فارقت يدك كفله قتلتك ، ثم سار عثمان وعلى من خلفه ، ويده على كفل البغل حتى وصل إلى الديوان ، فدخل به على بيبرس ، فرحب به ، وأحسن وَفده ، وأجلسه ، ثم قال له : أتعرف هذا الرجل يا على ؟ — وأشار إلى المظلوم الشاكى ، حسن الإسكندرى — فقال : ذلك يا مولاى رجل مجنون لا أعرفه ، وما رأيته ، وقد ابتلانى به ربى ليلة أمس ، وادعى أن له زوجة عندى ، وأنا يا مولاى ما رأيتها ولا أعرفها ، فقال بيبرس لحسن الإسكندرى ، مادمت مجنوناً أيها الرجل فكل ما قلته لغو باطل ، فاخرج إلى سبيلك ، واحذر أن تعود إلينا مرة ثانية ، فإنك إن عدت إلينا قتلناك — ثم نظر بيبرس إلى عثمان نظرة فهم معناها — فأسرع يجرى خلف الرجل حتى أمسكه ، وقال له : اجلس هنا ، ولا تبرح هذا المكان ، حتى ترى كيف تصدر الأحكام ؟ وكيف يقام العدل ؟ وكيف ينصف المظلوم ؟ وكيف يرد

إليك حقك ؟ وأكرم عثمان مقام الرجل إكراماً كثيراً ، ثم رجع إلى بيبرس وأفهمه بالإشارة أنه حبس الرجل وأكرمه .

أما بيبرس فقد أظهر أنسه وفرحه بعلى البشونى وسقاه شراباً حلواً ، وقال له : أريد أن نتسلى بلعبة الشطرنج فهل لك رغبة ؟ فقال على : إنه لشرف لى أن نتسلى بلعبة الشطرنج .

وأمر بيبرس فأحضر الشطرنج وأخذ يلعبان ، والديوان غاص بالحاضرين وأيبك ورفقاؤه وقوف ينظرون ماذا يكون . وبينما هما غارقان فى التفكير وهما يلعبان ، سقطت مسبحة على البشونى من يده على الأرض وهو لا يشعر بسقوطها فأخذها بيبرس خفية ، واستأذنه أن يذهب ليقضى حاجة له ويعود سريعاً ، وصاح بعثمان أن يضع الإبريق فى المرحاض ، وذهب إلى المرحاض وهناك ناول عثمان المسبحة وقال له اذهب إلى بيت على البشونى ، وقل لزوجته : سيدى على البشونى يقول لك : خذى مسبحته هذه أمارة وشاهداً ، وهاتى لى الضيفة التى عندك ، ثم رجع بيبرس إلى مجلسه واستأنف اللعب ، وذهب عثمان إلى بيت على وناول زوجته المسبحة وقال لها : هاتى لى الضيفة التى عندكم ، ففرحت الزوجة ونهضت إليها قائلة : قومى أيتها اللئيمة ، واذهبى إلى على ، حيث ينتظرك ، ثم خرجت الضَّيفة وخرجت معها الزوجة ، وسار بهما عثمان حتى دخل بهما على بيبرس فى الديوان . فنظر بيبرس إلى الزوجة وقال : ما شأنك يا سيدتى ؟ وما الذى جاء بك إلينا ؟ فقالت : أنا زوجة على البشونى هذا — وأشارت إليه — وهذه المرأة زوجة

حسن الإسكندرى ، واعلم يا سيدى أن ما نتقلب فيه من نعمة واسعة من فضل حسن الإسكندرى وأمواله ، فقد خانت هذه المرأة زوجها وجعلت ترسل إلى على البشونى أموال زوجها حتى أفقرته وهو لا يعلم ما تفعله ، ثم دخلت عليه هذه اللئيمة الخائنة فى بيته مدعية أنه ابنها ، واستقبلتها على أنها أمه ، ولكن اتصالهما أثار الريبة فى نفسى ، وكلما هممت أن أثور عليهما خدعتنى نفسى بأنها أمه ، وليس بين الأم وابنها حجاب ، حتى رأيت منهما ما ضيع من نفسى الخديعة ، وأثار فيها الشك والريبة ، وأيقنت أنها صلة الهوى والخطيئة ، لا صلة البنوة والأمومة ، فلما أتى إلينا خادمك عثمان يطلب الضيفة ، قدمت معه لأبين لك الحقيقة .

فلما سمع بيبرس هذا القول أمر عثمان أن يأتيه بحسن الإسكندرى ، فلما حضر بين يديه قال له : يا حسن ، من زوجتك من هاتين المرأتين ، فقال : ها هى ذى زوجتى التى خانتنى ، وضيعت مالى ، وأفقرتنى ، وادعت أننى مجنون ، فقال بيبرس : إنها ستتوب إلى الله . وتستغفر إليك من ذنبها ، فقال حسن : إنى برىء منها إلى يوم القيامة ، فقال بيبرس : لو قلت غير ذلك ورضيت عنها لقتلتك ، وقد أفتى العلماء بقتل المرأة وعلى البشونى ، وصدر الحكم بهذه الفتوى ، ونفذ فيهما حكم الإعدام جهرة ليكونا للناس عبرة ، وقال بيبرس لحسن الإسكندرى جميع ما تركه على البشونى من الأموال فهو لك ، أما زوجته هذه فخذها وحافظ عليها حتى تنتهى عدتها ثم تزوجها ، فدعا له وأثنى عليه ، وأخذ المرأة وخرج شاكراً ،

ثم فض المجلس وانصرف كل إلى سبيله . أما أيبك ورفقاؤه فإنهم انصرفوا وهم معجبون ، وقال أيبك : ما رأيت أحسن من هذه الأحكام ، أما نحن فلا نفقه شيئاً من أحكامهم هذه . فقال رفقاؤه : الفضل لعلماء الإسلام، فهم الذين يعدون له هذه الأحكام ثم تفرقوا إلى منازلهم .

وفى اليوم التالى جلس أيبك ورفقاؤه فى ديوانه ، ولم يجتمع بهم أحد ، فجاءهم رجل مغربى ، وقال : إنى مظلوم أيها الملك ، فقال : وما قضيتك قال : تركت عند قاضى الإسلام جراباً من ذهب ، ليكون أمانة عنده ، يرده إلى بعد عودتى من حج بيت الله الحرام ، ولما رجعت من الحج طلبت الأمانة ، فأعطانيها ، ولما فتحت الجراب وجدت ما فيه رصاصاً لا ذهباً ، فذهبت إليه ، وقلت له : إن جرابى مملوء ذهباً ، وأما الجراب الذى أعطيتنيه فإنه مملوء رصاصاً ، فقال : إنه جرابك وقد حافظت عليه حتى حضرت من الحج ، فقلت : وكيف يصير الذهب رصاصاً ؟ إن هذا الجراب ليس جرابى ، فقال : من الجائز أن يكون قد مسخ الذهب رصاصاً ، فقلت : لا مسخ بعد بعث النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : إن الله على كل شيء قدير . وهذه قضيتى .

فقال أيبك : ما دام قاضى الإسلام قد أفتاك ، فماذا تنتظر منا ؟ ! اذهب إلى حيث شئت ، فليس لنا فى قضيتك سبيل .

فخرج الرجل حزيناً ، وذهب إلى بيبرس فى ديوانه وأعاد عليه قضيته إلى أن طرده أيبك وجاء إليه ليرفع ظلامته ، وكان أيبك ورفقاؤه قد تبعوه

متنكرين ليروا ماذا يفعل بيبرس فى هذه القضية .

فأمر بيبرس أن يحضروا إليه القاضى فوراً ، فلما حضر أجلسه ، وسأله عن جراب المغربى وذهبه ، فقال : قد مسخ ذهبه رصاصاً ، وليس لى فى ذلك ذنب . فقال : ولكن المسخَ قد بطل ببعث الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال : ولكن الله على كل شىء قدير ، فقال بيبرس : اكتب ذلك بخطك واختمه بخاتمك ، فكتب القاضى وختم ، وناوله تلك الحجة التى كتبها ، ثم قال للقاضى : قم وامض إلى شأنك ، وقال للمغربى : ائتنى بعد ثلاثة أيام لتأخذ حقك منى . فانصرف المغربى وهو مستريح ، وفى تلك المدة المضروبة خرج بيبرس يطوف المدينة متنكراً فى زى العلماء ، ومعه الخدم والمماليك ، وكانوا متنكرين فى هيئة الطلبة ، وبينما هم سائرون لقيهم غلام راكب بغلا ، وعليه حلة ثمينة تلفت النظر ، فسأل عنه ، فقيل إنه ابن قاضى الإسلام ، ومن حوله الخدم ، وهم ذاهبون به إلى مكتب الفقيه ليحفظه القرآن ، ثم يعودون إلى أخذه عند انصراف الأولاد من المكتب .

فسار بيبرس على أثر الغلام حتى أقبل على الفقيه وسلم عليه ، فرد الفقيه السلام وفرح بزيارته له ، وأمر أن يحضر له الطعام ، فقال بيبرس : ورب البيت لا تأكلون إلا على نفقتى هذا اليوم وأخرج من جيبه خمسة دنانير ، وقال : خذ يا عثمان هذه الدنانير ، واشتر بها لجميع الحاضرين وأولاد هذا المكتب ، وأشار إليه إشارة فهم منها أن يضع فى الطعام بنجاً ،

ولما جاء عثمان بالطعام وزعه على الفقيه والعرفاء وأولاد المكتب فأكلوا حتى شبعوا ، ثم أغمى عليهم فناموا ، وأعطى بيبرس عثمان ديناراً وقال : هات لى به قرداً الآن ، وكان عثمان قد فهم مراده ، فذهب وأحضر إليه القرد فى سرعة ، ثم أمر عثمان أن ينزع عن ابن القاضى حلته ، ويلبس القرد إياها ، وبعد ذلك وضع فى أفواههم شيئاً يبطل أثر البنج ، وقبل أن يفيقوا كان بيبرس قد أخذ ابن القاضى وهو فى غشيته . ورجع إلى ديوانه هو ومن معه ، ولما أفاق الفقيه والعرفاء ، وأولاد المكتب لم يجدوا [العالم ولا طلبته ، وجعلوا يتساءلون : أين ذهب ؟ فما عرفوا عنه شيئاً ، وقال الفقيه : لا بد أن يكون قد طالت عليه مدة نومى ، ولم يرد أن يوقظنى فيئس ومضى إلى شأنه .

ولما جاء الخدم ومعهم البغل ليأخذوا ابن القاضى ، لم يجدوا إلا قرداً فى ملابسه ، فسألوا الفقيه عنه ، فقال : ها هو ذا ابن القاضى الذى أحضرتموه ونحن ما غيرناه ولابدلناه ، فأسرعوا إلى القاضى وأخبروه ، فجاء إلى الفقيه وأخذه ومضى به إلى بيبرس ، وقص عليه قصته ، فقال الأمير : ربما مسخ ابنك قرداً ، فقال : لا مسخ بعد بعث النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : ولكنك كتبت حجة عليك أن المسخ موجود ، وأن الله على كل شىء قدير ، ثم أنعم بيبرس على الفقيه ، وأمره أن يمضى إلى بيته ، وأن يأتيه من فوره إن تعرض إليه أحد بمكروه . ثم طرد بيبرس القاضى ، فذهب إلى زوجته وأخبرها بما جرى لابنها ، فخرجت من المنزل شاردة

كأنها مجنونة ، وجاءت إلى بيبرس وهى تقول : ولدى ! ولدى ! . . .
فقال بيبرس : إن ابنك قد مسخ قرداً ، كما مسخ ذهب المغربى رصاصاً
وإن الله على كل شىء قدير ، فقالت : يا سيدى! ذهب المغربى عندى
لم يمس ، وكان القاضى قد بدله ووضع بدلا منه رصاصاً . ولم يمسخ لأنه
لا مسخ بعد بعث النبى ، فقال : أحضرى ذهب المغربى ، وخذى ولدك
منى ، فرجعت وأحضرت ذهب المغربى فى سرعة عاجلة . فأخذه بيبرس ،
ثم أحضر المغربى وقال له : هذا ذهبك ؟ فقال : نعم ، فقال: خذه ،
وامض إلى حيث تريد ، ولقد كنت عولت على أن أغرم هذا المال
وأدفعه لك من عندى ، ولكنى خشيت أن يقال : إن بيبرس عجز عن
حل قضية صغيرة . ثم أعطى الأم ابنها ، والتفت إلى القاضى – وكان
قد أحضره – فقال : الآن حل لى قطع يدك ، ولكنى عفوت عنك ،
وعزلتك عن القضاء ، فالزم بيتك ، فمثلك لا يصلح أن يحكم بين الناس
بالعدل . وولى عالماً آخر منصب القضاء .

عرف أيبك ورفقاؤه كيف حكم بيبرس فى هذه القضية ، فاجتمعوا
آسفين ، وقال أيبك : لا يستقيم لنا حال وبيبرس حى يرزق ، فقال :
علاء الدين لقد دبرت لك حيلة تقتله بها ، فقال : وما تلك ؟ فقال :
أن تلبسه حلة الرضا ، وتجعل فى بنيقتها سمًّا قاتلا ، وذلك أن تبعث بتلك
الحلة إليه مع على ابن المرضعة، ويقول: إن أيبك كان متنكراً ورأى كيف
كنت تفصل فى القضايا ، وتظهر بذكائك الحق الخفى ، فأعجب بك

وفرح ، وهذه حلة الرضا بعثنى بها إليك ، قال علاء الدين : فإذا ما قال له ذلك فرح ولبس الحلة ، وسرى سمها فى صدره وجسمه ، فمات لساعته.

فقال أيبك : ذلك تدبير محكم وأرجو أن يصح ويسلم ، ونفذ أيبك ما دبره علاء الدين ،وذهب على ابن المرضعة ومعه الحلة المسمومة . وقبل أن يدخل بها على بيبرس كان قد جلس أمام الديوان ليستريح من تعب أحسه فى بطنه ، فأخذته سنة من النوم فرأى فى المنام أباه يقول له : يا على أنت خادم الملك العادل الذى ستدخل عليه ، فأعلمه أن الحلة مسمومة .

ولما استيقظ وجد أن التعب قد زال ، فدخل على بيبرس و بلغه كل شىء قاله أيبك ، فقال بيبرس : ألق علىّ الحلة يا علىّ ، فقال : أعطنى الأمان أولا ، فقال منحتك الأمان يا على ، فقال : إن الحلة مسمومة ، ولا يصح أن أخونك وأنا خادمك ، فقد أخذتنى سنة من النوم أمام باب الديوان ، وقص عليه رؤياه ، فقال بيبرس : اطلب ما شئت مكافأة لك يا على ، فقال : أن أكون خادمك حتى أموت ، فقال : وإن الله أعطاك ما طلبت ، فقال عثمان : هذا ابن المرضعة أصبح خادمك ، وعندك ابن الحبلى ، وغداً يأتيك ابن القابلة ، ثم قال للعلماء : ما قولكم فى رجل سعى فى قتل نفس بغير حق ؟ فقالوا : يحل قتله ، فقال : اكتبوا لى حجة بهذه الفتوى ، فكتبوها وختموها ، وأخذها منهم .

وسار إلى أيبك ومعه المماليك ، فلما دخل عليه قال : لأى شىء

أرسلت إلى هذه الحلة المسمومة تبغى بذلك قتلى ، لقد أفتى العلماء بقتلك ، ولكنى عفوت عنك ، ثم أشعل النار فى الحلة فى وسط الديوان . وأيبك ساكت واجم لم ينطق بكلمة ، ثم تركه وخرج .

فالتفت أيبك إلى رفقائه ، وقال لهم : ماذا ترون؟ فقالوا : لم يبق إلا أن تجهر بالعداء ، وترسل إليه ألف مملوك ينتظرونه أمام باب الديوان ، فإذا خرج هجموا عليه بغتة ومزقوه بسيوفهم ، فقال : وسأفعل ذلك أيضاً وعسى أن ننجح هذه المرة ، ثم أحضر المماليك وأمرهم أن يأخذوا أسلحتهم ، ويقفوا أمام باب الديوان ، فإذا خرج بيبرس اجتمعوا عليه وقتلوه ، فقالوا : سمعاً وطاعة .

وبينما هم سائرون قال بعضهم لبعض : نحن لا طاقة لنا ببيبرس ، وإن كنا أكثر من ذلك عدداً ، وأيبك هذا رجل حاقد ، لا يجرى على الحق ، ومن الخير لنا أن نفعل ما فعله على ابن المرضعة ، ونخبره بما كلفنا به أيبك ، ونخدم عنده ، تاركين أيبك وضلاله وذله ، واتفقوا على ذلك ، وهناك تقدم كبيرهم إلى بيبرس ، وأفضى إليه بما جاءوا من أجله ، وما أراده أيبك من قتله ، وأنهم ناقمون منه ، ويريدون أن يتركوه ، ويكونوا من أتباعه وخدمه إلى الممات ، فأنعم بيبرس عليهم وأكرمهم ، وقال لعلماء الإسلام — وكانوا يسمعون حديث هؤلاء المماليك : أيحل من أيبك أن يفعل هذا ؟ فقالوا : لا يحل له ذلك ، وقد أبحنا لك دمه .

فركب بيبرس وسار إلى أيبك وقال له : لقد أباحت العلماء لى دمك ،

وإنى قادر على أن أجعل المماليك الذين أرسلتهم ليقتلونى يهجمون عليك ويمزقون لحمك ، ولكنى سأتركك ، وأرحل من بلد أنت حاكم فيه ، ثم تركه ورجع ، وقال لعثمان : اجمع أموالى ورجالى وغلمانى ، وفى الساعة الخامسة من الليل نرحل عن مصر ، فقال : سمعاً وطاعة ، وأخذ فى الاستعداد للرحيل فى الموعد المضروب .

أما أيبك فإنه قال لرفقائه : ماذا أفعل وقد أبطل بيبرس كل تدبير لكم ؟! وإنى حريص على قتله بأية وسيلة . فقالوا : أغلق أبواب المدينة ، وكلف البوابين ألا يفتحوها إلا بعد طلوع الشمس ، وذلك لتعوقه عن المسير ، ثم اكتب إلى نواب البلاد بأن كل من عرف بيبرس وكاد له كيداً أليماً ، فبلده له بلا مال يؤديه ، ومن فتح له أبواب بلده وأكرمه قتلته ، ونهبت أمواله ، ويتمت عياله ، فعجل أيبك ونفذ هذا الرأى.

ولما استعد بيبرس ، وهم بالرحيل ذهب إلى القلعة وصاح بملء فيه : يا أيبك إنى راحل باختيارى ومهاجر من مصر رغباً لا رهباً ، وسأمكث فى الرميلة إلى بعد العشاء بمقدار ساعتين ، فإن كنت تزعم أنك شجاع فاحضر إلىّ فى الرميلة ، أو أرسل إلىّ من تعتمد عليه من رجالك وجنودك ، لأسقيهم كئوس الردى ، ولو أردت البقاء بمصر لبقيت فيها على الرغم منك ومن رجالك وجنودك ، وإن أردت أن تثكلك أمك فاتبعنى فى الرميلة فإنى منتظر هناك .

ولبث بيبرس فى الرميلة إلى ما بعد العشاء ، ولكن أحداً لم يجئه فيها ،

وبعد ذلك قرر الرحيل ، فسار هو ورجاله إلى أبواب المدينة باباً ، بابا ، وهو لا يجده إلا مغلقاً ، ويعتذر إليه البواب بأن أيبك أمره ألا يفتحه إلا بعد طلوع الشمس ، فاحتال بيبرس ، وأشعل النار من الخلف فى باب من أبواب المدينة ، فأحرقته ، وبذلك فتح الباب وخرج هو ورجاله .

ثم ذهب إلى العادلية فلبث فيها حتى الصباح ، وعلم الأشراف والعلماء نبأ رحيله وهجرته فغضبوا وذهبوا إلى أيبك فلاموه ، وأنبوه ، فقال لهم : اذهبوا إليه وأحضروه ، ليكون ملكاً بدلا منى ، سأكون له من جملة الخدم ، فذهب إليه العلماء والأشراف ، وبلغوه ما قاله أيبك ، فقال لهم : لقد أقسمت أن أهاجر من مصر ، ولا بد من أن أبر بقسمى ، فدعوا له بالتوفيق والسلامة ، وقالوا : اللهم اجز كل من كان سبباً فى ذلك ، وانتقم منه ، ورجعوا إلى أيبك وأخبروه أنه قد أبى ، وأصر على الهجرة .

إبراهيم بن حسن

١

سار بيبرس حتّى وصل إلى غزة ، ففتح له صاحبها حسان الكردى أبوابها ، وقدم له كل معونة وأكرمه ، وأعد له ولرجاله وليمة ، فأحضر الطعام ، وجلس بيبرس ورجاله ليأكلوا ، وقبل أن تمتد أيديهم إلى الطعام رأى غلاماً من مماليك حسان الكردى قد وضع قطعة من القطن على ذبابة خنجره ، فعرف بيبرس أن هذا كلام ، وأمر رجاله ألا يأكلوا شيئاً ولا يشربوا حتى يأتى إليهم ، وقام مدعياً أنه ذاهب إلى الخلاء ليقضى حاجة ، وقال لهذا الغلام اتبعنى بإبريق من الماء ، فلما خلا به قال له : ما تريد بهذه الإشارة ؟ فقال : أعطنى الأمان ، فقال لك ذلك ، فقال : وخذنى خادماً عندك ، ولا تتركنى عند حسان ، فقال : ولك ذلك ، فقال أردت بهذه الإشارة أن أخبرك أن الطعام مسموم فلا تقربوه .

ثم رجع بيبرس وجلس أمام المائدة وقال : يا حسان ، فقال : نعم ، فقال: تعال وكل معى، فقال: إنى صائم، فقال بيبرس: لقاء الحبيب عيد ، ولا يحيى الطعام إلا صاحبه ، ولا بد أن تأكل معنا ، وإلا فما نحن بآكلين منه شيئاً . فاصفر وجهه ، وحال لونه ، وأبى أن يأكل معه . فقال بيبرس : لا بد أن يكون هناك سبب منعك من أن تأكل معنا ، وأحضر قطًّا ورمى له بعضاً من الطعام ، فما كاد يستقر فى جوفه حتّى وقع على الأرض قتيلاً ، فقال بيبرس : أيكون هذا جزائى منك وأنت من بيت الأكراد ؟

وإذا كنت تريد قتلى فما ذنب هؤلاء الرجال حتى تقتلهم معى ؟ ولكنى عفوت عنك لأنك ابن عم الملك الصالح ، وأما أنت فرجل خائن لا تستحق إكراما ، ولا تقديراً . وهمّ بيبرس بالرحيل ، فتقدم إليه حسن بن عنكر كبير التجار فى غزة وقال : أنتم ضيوف عندى أيها الأمير ، فقال له : جزاك الله خيراً ، فقال : لا بد من الضيافة ، فقال : وصل إلينا معروفك ، وشكراً لك ، فأصر حسن على الضيافة ، فقال بيبرس : اعلم أيها الرجل الكريم أن عدة رجالى ستون ألفاً ومعهم مثلهم من الأتباع ، ومعى مواش كثيرة ، فقال : ولن تكون الضيافة إلا ثلاثة أيام ، وفى كل يوم تأكلون ثلاث وجبات ، لكل وجبة طعام خاص ، ولن تأكل مواشيك إلا اللوز الأخضر ، واعلم أن الله أعطانى وأقدرنى .

فعجب الأمير ، وأجابه إلى ما طلب ، ثم أنزله حسن فى دار عالية البنيان وأكرمه ومن معه غاية الإكرام ، على الرغم من صاحب غزة وحاكمها ، وفى اليوم الرابع سلم عليه وشكره ورحل هو ومن معه .

ولما رحل بيبرس أرسل حسان إلى أيبك كتاباً أخبره فيه بما فعله ، وما فعله كبير التجار حسن بن عنكر ، فأجابه أيبك يقول : اقتل يا حسان كبير التجار ، وإن منعك العلماء فانهب أمواله ، ولا تترك له شيئاً منها ليموت كمداً ، فلما جاءه كتاب أيبك فعل ما أمره به ، وأصبح حسن بن عنكر ، فقيراً ذليلا حقيراً ، ومع ذلك فهو يحمد الله ويشكره ، ويكثر من الصلاة على الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم .

ورحل بيبرس ، وما بَعُدَ قليلا عن غزة حتى رأى الفداوية مقبلين عليه . فوجدوا الأمير فى الطريق ، فسلموا عليه ، وسألوه عن حاله فأخبرهم بقصته ، وأبدى لهم رغبته فى العودة إلى بلاده ، فقالوا له : دع عنك تلك الرغبة ، وارجع معنا إلى مصر ، وإن أضعف رجل منا لقادر على قتل أيبك ، فقال بيبرس : لو أردت ذلك لقتلته ، وقتلت كل من يناصره ، ويشد أزره ، ولكننى ما أردت ذلك . وآثرت الرحيل إلى بلادى ، فقالوا : وها نحن أولاء بين يديك ، وطوع أمرك ، ولا نفعل شيئاً إلا ما أردته وأشرت إلينا به ، فمرنا بما تشاء ، ولكنكم ضيوف عندنا ، فسار معهم إلى قلعة صهيون ، وأقام هو ورجاله فيها أربعين يوماً .

وكان قد حان وقت الربيع ، فقال بيبرس لسليمان الجاموس : دلنى على واد فسيح ممرع لأجعل فيه بهائمى ترعى وتأكل ، فقال سليمان : لا ضرورة تقضى بذلك ، فإنى أوزعها على القلاع مدة الربيع ، ثم ترجع فى سلامة . فقال : ولكنى راغب فى واد فسيح يكون لها وحدها ، فقال سليمان : لو كنت أعرف وادياً لدللتك عليه ، فسكت بيبرس وهو مطمئن إلى قول سليمان ، وفى الليل خرج بيبرس يطوف حول الخيام ، فوجد رجلين من أتباع سليمان جالسين يتحدثان ، وهما لا يريانه ، فسمعهما يقولان : يا أخى ، طلب بيبرس من سليمان أن يدله على واد ممرع فسيح يجعل فيه دوابه مدة الربيع ، فأنكر أنه يعرف شيئاً ، وقد صدقه بيبرس وسكت ، فقال الآخر : ولأى شىء أنكر سليمان ؟ فقال : لا أدرى ، وربما غضب

عليه . أو أسر له فى نفسه شيئاً لا نعرفه . أو أراد أن يرحل من عنده ، لأنه يعرف وادياً فسيحاً كثير الكلأ والمرعى والماء ، اسمه وادى فرسيس ، بينه وبين هذه القلعة مسير ساعتين اثنتين ، فقال : دعنا من الحديث فى هذا خشية أن يسمعنا رقيب . يخبر سليمان فيقتلنا . فسكتا وانصرف بيبرس . وقد أضمر فى نفسه ما سمع . وكان هذان الرجلان جوان وسيف الروم . عبرا هذا المكان . فتنكرا فى هيئة أتباع سليمان ، واختلطا بهم ، ليعرفا أخبار الفداوية . فوجدا بيبرس معهم . فقال جوان : يحسن أن نقيم بينهم . ولعلنا نوفق إلى مكيدة نقتل بها بيبرس ونخلص منه . ولما عرفا أن بيبرس علم بذلك الوادى ، وأنه مصر على أن يذهب إليه ، قالا : تمت المكيدة . وسيكون فى هذا الوادى مقتله . ورحلا إلى شأنهما .

وقال بيبرس لسليمان : لقد سألتك عن واد تقضى فيه دوابى زمن الربيع فما أفدتنى . وقد عرفت وادياً اسمه وادى فرسيس ، وهو غنى بالمياه والمراعى ، وعولت على أن أذهب إليه . فقال سليمان : ما دلك على هذا الوادى إلا أشد الناس بغضاً وعداوة لك . فإنه بين أربعة جبال ، وعلى كل جبل منها قلعة كبيرة فيها كفار خائنون ، لا عمل لهم إلا قطع الطرق ونهب الأموال وقتل الأنفس . وقد كان هذا الوادى مقبرة لكثير من الرجال والأبطال . وما قدر عليهم أحد ، لأنهم يقتلون ويتحصنون فى قلاعهم . وما دلك على هذا الوادى إلا عدو يريد أن يهلكك ويهلك رجالك ، فقال بيبرس : ورب البيت لا بد أن أذهب إليه . فقال سليمان وأكابر رجاله :

كفر عن يمينك يا بيبرس ، ولا تذهب إلى ذلك الوادى ، فنحن أخوف الناس عليك ، وأحرصهم على حياتك . فقال : لا بد من ذلك ، فقالوا : وإذا وقعت فى الخطر فلا تنتظر منا معونة أو نجدة ، لأنك أنت الذى جنيت على نفسك . فقال : المعونة والنجدة من الله تعالى .

وسار بيبرس برجاله ودوابه وأمواله حتى وصل إلى ذلك الوادى ، وكان عثمان يبكى ، فقال له بيبرس : ما يبكيك ؟ فقال : لأنك خالفت نصيحة الناصح ، ومخالفتك يعود شرها عليك وعلى أولاد الناس ، فزجره بيبرس ونهره .

وجد الأمير الوادى بين أربعة جبال ، وهو فسيح الجنبات ، واسع المراعى . غنى بالكلأ والنبات والمياه ، فنزل فيه ، وفى اليوم الثانى قسم رجاله قسمين ، وكانوا أربعة وستين ألفاً ، فوكل إلى قسم حراسة الأموال والدواب ، وسار بالقسم الثانى فى ذلك الوادى ليعرف آخره ، ومدى سعته وامتداده ، ومشى ثلاثة أيام وهو لا يصل إلى آخره ، فسئم المشى ، وكلت الجنود ، وطلب العودة ، ولكنه أقام فى مكانه للراحة بقية يومه وليلته .

وقد رأى فى منامه تلك الليلة كأن ناراً نزلت من السماء على جنوده فأحرقتهم جميعهم ، فاستيقظ فزعاً ، وأمر بالرحيل والإسراع بالعودة ، وقص رؤياه على عثمان ، فصاح قائلا : يا صندوقى ! ! يا حمار عقيرب ! ! فقال بيبرس : أتحزن على صندوقك وحمار عقيرب . ولا تحزن على أموالى ؟ ! فقال عثمان : إنهما عندى أعز من جميع أموالك . فلما وصلوا إلى وادى فرسيس حيث تركوا نصف الجنود والأموال ، وجدوا الأرض

مفروشة بالقتلى . والحصا كأنه المرجان ، فصاح بيبرس : واعباد الله ، لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم !! وصاح عثمان : آه يا صندوقى ! ! يا حمار عقيرب ، ليت المال ضاع كله وبقى الصندوق والحمار ! ! فقال بيبرس : سأبحث عن الصندوق والحمار قبل أن أبحث عن مالى .

رأى الملوك الأربعة الذين يسكنون فى الجبال المحيطة بوادى فرسيس أن بيبرس ورجاله نزلوا فى واديهم ، فاتفقوا على أن يغيروا عليهم بغتة ، فبعثوا إليهم جاسوساً يتعرف أحوالهم ، فرجع إليهم وأخبرهم أن بيبرس رحل ومعه نصف الرجال ، وترك النصف الآخر يحرس المال ، فبغتوهم ليلا وهم نائمون من جهات أربع ، وقتلوهم جميعهم ونهبوا الأموال ، وعادوا إلى قلاعهم .

كان ألم بيبرس شديداً . وقال : ليتنى أطعت الأشراف ، ولم نطأ بأقدامنا هذا الوادى . ثم جعل يجوس خلال القتلى باحثاً متأملا ، فرأى رجلا فى الاحتضار . فأسعفه بالماء ، فانتبه وقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله . من أيقظنى من احتضارى وقد كنت أشاهد ذا الجلال والإكرام ؟ !

فسأله بيبرس عما جرى لهم فى غيبته . فقص عليه القصة ، ثم فهق ومات . فقال بيبرس : وماذا نفعل يا عثمان ؟ فقال : لو كنت وجدت صندوقى وحمار عقيرب لانتفعت بهما فى ذلك الوقت . فقال بيبرس : لله على نذر إن رد إلىّ مالى وثأرت لرجالى لأبحثن عن صندوقك وحمار

عقيرب قبل أى عمل ، فقال عثمان : إنك لم تسمع نصيحة سليمان ، فقال بيبرس إن هذه الأموال أعطانيها ربى ، ولن أبرح هذا الوادى حتى أستردها أو أنال أكثر منها .

ولما جاء وقت الظهيرة جاء المماليك والغلمان إلى بيبرس وقالوا : جعنا ولم نجد ما نأكله ، فضرب كفًّا بكف ، وقال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، مابيدى حيلة ، فاذهبوا إلى عثمان ، واشكوا إليه . ولما أخبروا عثمان قال لهم : مرحباً بكم ، ضعوا القدر على النار ، واملأوها ماء ، ولما غلى الماء وضع فيه « قرقوشة » من « القراقيش » الثلاث ، التى أخذها من الملك الصالح ، ثم قرأ فاتحة الكتاب ، ثم قال اسأل المماليك : ماذا تحبون أن تأكلوا ، فقالوا نريد أن نأكل « ميمونة » بالسمن البقرى ، وعسل النحل ، فقال : لكم ما أردتم وأحببتم ، ثم جعلوا يأخذون من القدر طعامهم ويأكلون حتى شبعوا ، ثم طعموا « القرقوشتين » الباقيتين فى اليومين التاليين .

وفى اليوم الرابع طلبوا الطعام من عثمان فقال لهم : نفدت « القراقيش » التى كانت معى ، فاذهبوا إلى سيدكم بيبرس ، واطلبوا منه طعامكم . فلما ذهبوا إليه وأخبروه قال لهم : ليس عندى شىء نأكله ، ثم دعا إليه عثمان ، وكتب إلى نائب حلب كتاباً وقال : خذ يا عثمان هذا الكتاب ، وامض به إلى نائب حلب ، وخذ منه الذى يجود به وارجع إلينا سريعاً ، فأخذ عثمان الكتاب وسار إلى حلب ، وهناك وقف يقدم رجلا ويؤخر

أخرى : أيدخل على نائبها ويسأله المعونة والإحسان ؟ أم يتعفف ويبيع منطقته الذهبية ويرجع بثمنها ؟

ثم آثر التعفف وبيع المنطقة ، فذهب إلى سوق حلب ، وأخفى الكتاب فى جيبه ، وناول الدلال المنطقة ليبيعها ، فقلبها بين يديه ثم قال : هذه منطقة فصوصها من زجاج ، فقال عثمان : نعم ، فقال الدلال ، وهل أبيعها بعدد من أنصاف الفضة ؟ فقال عثمان : إنى أبيع كل شيء من أشيائى بقرش ، ولكن طف بها فى السوق ، واعرضها على المشترين ، فأمسكها أحد الراغبين فى شرائها ، وقلبها بين يديه ، ثم قال : هات لى صاحبها ، فقال الدلال : يظهر أن صاحبها لص ، وقد سرقها ويريد بيعها.

فلما جاءه به نهض إليه وقبل يده وسلم عليه وقال : لعلك يا سيدى عثمان بن الحبلى ؟ ! فقال : الله يجزى من أخبرتك خيراً ، ولكن ذلك واجب عليها .

كان ذلك الرجل اسمه فخر الدين السحرتى ، من سحرت بالعجم ، وهو تاجر غنى لم يعقب ، فطلب من الله أن يرزقه غلاماً يعلمه التجارة ، ويكون مثله كبير التجار ، فتقبل الله دعاءه ، ووهب له غلاماً سماه شمس الدين السحرتى فلما اشتد وكبر ، أخذ تجارته ورحل هو وزوجته وابنه إلى حلب ، ونزل فى خان بها ، ورأى تلك الليلة فى منامه سيدة جليلة ثيابها من سندس أخضر تقول له : يا فخر الدين ، غداً يأتيك عثمان بن الحبلى ، ليبيع منطقته فى سوق حلب ، فامنحه ألف جمل ،

ورد إليه منطقته ، وإذا أتاك مرة ثانية فامنحه مثلها ، ولا تأخذ منه المنطقة . وإذا سافرت إلى حج بيت الله الحرام ، فوص ابنك شمس الدين أن يعطيه الزاد الذى يطلبه ، ويأخذ منه المنطقة ، ثم يحفظها عنده فى صندوق إلى أن يحين لها الأوان ، وإنى أبشرك أن ابنك شمس الدين سيكون شريك بيبرس .

فلما انتبه من نومه ذهب إلى سوق حلب ، وجعل يبحث عن منطقة تعرض للبيع ليعرف بها عثمان ، وكان أن لقيه وقال له : لعلك عثمان ابن الحبلى ، فقال عثمان : الله يجزى من أخبرتك خيراً ، ولكن ذلك واجب عليها . فأعطى فخر الدين الدلال خمسة دراهم ، ورد المنطقة إلى عثمان ، وأخذه معه ، وأعطاه الجمال ، فرجع بها عثمان إلى بيبرس فرحاً . وقال له : جئتك بها من صاحب حلب ، ولما نفدت بعثه إليه بكتاب ثان ، فأخذه وأخفاه فى جيبه ، وذهب إلى فخر الدين ، فأعطاه الزاد ورجع به وقال : أتيت به من صاحب حلب . وكان أوان الرحيل إلى الحج قد حان فوصى فخر الدين ابنه شمس الدين أن يأخذ المنطقة من عثمان بن الحبلى ، ويحفظها فى صندوق ، ويعطيه ما شاء من الزاد . وسافر هو إلى بيت الله الحرام . ولما نفد الزاد بعثه بيبرس بكتاب ثالث إلى نائب حلب ، فأخفاه عثمان فى جيبه ، وذهب إلى شمس الدين ، فأعطاه المنطقة . ومنحه شمس الدين ما شاء عثمان من الزاد ، ولما هم بالمسير قال له شمس الدين : أسألك الدعاء . فقال عثمان : أسأل الله

العظيم أن يرزقك بتهمة باطلة . ويأمر الملك بقطع رأسك ، ثم آتى إليك فأخلصك وأنجيك. ليكون ذلك معروفاً لى عندك . فقال شمس الدين : لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، ليتنى ما سألتك الدعاء ! ثم رجع عثمان إلى سيده . وقال هذا الزاد أعطانيه صاحب حلب . ولما نفد أراد بيبرس أن يكتب إلى صاحب حلب كتاباً رابعاً . فقال عثمان : لا تكتب . ولا تتعب نفسك ، فإنى ما ذهبت إلى صاحب حلب أبداً ، وهذه كتبك الثلاثة السابقة ، ووضعها بين يديه ، وقد بعت منطقتى ، وجئتك بهذا الزاد جميعه . وليس لك إلا أن تكفر عن يمينك وتذهب إلى الفداوية ، فقال بيبرس : لا أفعل ذلك أبداً ، فقال عثمان : جاءتك داهية من دون الناس . كرّهت الناس فيك ، وقتلت رجالك بصلابة رأيك . وإبائك أن تسمع نصح الناصحين . فاغتاظ بيبرس ووضع يده على سيفه ، فخاف عثمان وجرى . فأسرع بيبرس يجرى من خلفه ، ولكنه لم يدركه ، وأوى عثمان إلى رأس جبل هناك . فتركه بيبرس ورجع حزيناً آسفاً ، باكياً على ما جرى .

أما عثمان فإنه جعل يسير فى الجبل حتى رأى خياماً وقباباً مضروبة ، وهى غاصة بالرجال . فذهب إليها . ووقف أمام صوان كبير ، به رجل ذو مهابة ، فتقدم إليه عثمان ، فلما رآه الرجل وقف له ولقيه أكرم لقاء . وقال له : يبدو أنك جوعان ؟ فقال : أجل ، فأشار الرجل إلى رجاله فأحضروا بين يديه الطعام . فنظر إليه عثمان وبكى ، فقال الرجل :

ما يبكيك يا عثمان ؟ فقال : أبكى على أخى ، فإن له ثلاثة أيام وهو جوعان، هو ورجاله ، فقال : وما اسمه ؟ فقال : اسمه بيبرس . فقال : ومن أى البلاد ؟ فقال : أصله من العجم ، وتربى فى الشام ، وهو الآن وزير بمصر ، ولكنه جاء برجاله ، ونهبت أمواله ، فحمد الرجل ربه . وقال : إن الله قرب لى البعيد ، فإنى وعزة الله ما جئت من بلادى إلا من أجله . فاذهب وائتنى به . فرجع عثمان إلى بيبرس ، وقال : قم يا سيدى . فقد جاءك الفرج القريب ، فسار معه بيبرس إلى ذلك الرجل . فسلم عليه وأكرم نزوله . وقال له : لقد قرب الله إلى البعيد فإنى يا سيدى ما جئت من بلادى إلا من أجلك . فقال بيبرس : وما سبب ذلك ؟ ومن أنت ؟ فقال : اسمى بركاخان ، ولى حكاية عجيبة :

إنى من أصبهان العجم ، وفى مملكة تبريز العجم ملك يعبد النار . وذات يوم كان يبرى القلم ، فجرحت إصبعه ، وسال الدم على القرطاس ، فالتفت إلى وزيره وقال : أريد بنتاً تكون بيضاء كهذا القرطاس ، ولها خدود حمراء كهذا الدم ، فقال الوزير : ليس فى أرضنا بنت مما وصفت وأردت إلا تاج بخت بنت بركاخان ، فبعث إلى كتاباً قال فيه : من الملك هلكون إلى الملك بركاخان ، أرسل ابنتك إلى ، فإن أعجبتنى بعثت إليك فيها عشر خزائن من المال ، وإن لم تعجبنى رددتها إليك ومعها خمس خزائن من المال ، لقاء دخولى بها ، فلما قرأت كتابه غضبت لدين الإسلام ولعرضى . وقتلت ثلاثة من رسله ، وبعثت إليه الرابع بكتابى الذى قلت فيه :

إن الإسلام لا يحل للمسلمة أن تتزوج بالمشرك ، فإن أردت الزواج منها فأسلم واعبد الله وحده ، وأنا أعطيك إياها ، ويكون مهرها دخولك فى الإسلام ، ولن آخذ منك شيئاً ، فاغتاظ وجرد الجيوش لقتالى ، وبلغنى من الجواسيس أنه قادم إلىّ فى مائة وستين ألف مقاتل ، وبلغ ذلك جنودى ، وكانوا اثنين وستين ألفا ، فقالوا : لا طاقة لنا بهلكون وجنوده . ولكننا سنقاتلهم طوعاً للإسلام حتى نهلك . فقلت فى نفسى : لا يحل لى أن أفنى هؤلاء الجنود من أجل ابنتى ، ثم رحلت وجعلت أطوف على الملوك راجياً أن يحمونى ويدفعوا عنى عدوان هلكون . فوجدتهم عاجزين خائفين من الوقوف فى وجهه . وجعلت أسير حتى دخلت خوارزم . وعرضت أمرى على ملكها جمك . فقال لى : لا يحميك منه إلا ولدى محمود بيبرس . وهو الآن بمصر ، فهو القادر على أن يذله ويسحق جيوشه . وإن كانوا أضعاف عددهم . فجمعت مالى ورجالى ، ورحلنا إلى مصر . وجعلت أسير حتى قربت من الشام . فلقينى رجل من الدراويش الطوافين وقال : إن كنت تطلب بيبرس فهو الآن فى وادى فرسيس ، وقد نهبت أمواله . وحلف ألا يبرح هذا الوادى حتى ترد إليه أو يعوضه الله خيراً منها وأكثر . فأتيت إلى ذلك الوادى وفيه التقيت بعثمان. فجميع ما أملك من مال . وما لى من أولاد ورجال هبة منى إليك ، لا رجوع لى فيها ، وابنتى زوجة لك من غير مهر ولا صداق . فقال بيبرس : جزاك الله خيراً . ولكن إذا كان لا بد من زواجى من ابنتك

فإن لى عليها شروطاً إن رضيت بها تزوجت منها . وإلا فلا حاجة لى بها ، فقال : ها هى ذى، خلف الستارة فحدثها بما تشاء . ثم صاح أبوها : يا تاج بخت ، فقالت : لبيك يا أبى ، فقال : كلمى سيدك بيبرس ، فقالت : نعم يا سيدى ، فقال بيبرس : هل تحفظين القرآن الكريم ؟ قالت : نعم قال : هل تدرين شيئاً من العلوم ؟ قالت : نعم ، قال : إنى سائلك عن أشياء . قالت : سل ما شئت يا سيدى ، قال : أسألك عن واحد ليس له ثان ، قالت : هو الله الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد . قال : ما اثنين ليس لهما ثالث ، قالت : قال الله تعالى : يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ، وقال : وسخر الشمس والقمر . قال : أسألك عن ثلاثة ليس لها رابع . قالت : قال الله تعالى : الطلاق مرتان ؛ فإن طلقها الثالثة فلا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره ، وقال تعالى : فكفارة أيمانكم ثلاثة أيام ، قال : أسألك عن أربعة ليس لها خامس . قالت : المذاهب أربعة ، والكتب أربعة . والملائكة المقربون أربعة ، والأشهر الحرم أربعة ، قال : أسألك عن خمسة ليس لها سادس . قالت : الصلوات خمس . وقواعد الإسلام خمس . قال : أسألك عن ستة ليس لها سابع . قالت : الجهات ست : شرق . وغرب ، وشمال ، وجنوب ، وفوق ، وتحت ، قال : وإنى سائلك عن سبعة ليس لها ثامن قالت : هذا كثير ، فالكواكب السيارة سبعة ، والأيام سبعة ، والعقبات والبحار سبعة . قال : أسألك عن ثمانية ليس لها تاسع ، قالت : حملة العرش يوم القيامة ثمانية وأبواب الجنة

ثمانية ، قال : أسألك عن تسعة ليس لها عاشر ، قالت : مدة الحمل تسعة ،وعدد الأرهاط تسعة، قال: أسألك عن عشرة ليس لها حادى عشر، قالت : العشرة الكرام ؛ قال : وأسألك عن أحد عشر ليس لهم ثانى عشر، قالت : الأسباط أولاد يعقوب عليه السلام ، وهكذا جعل يسألها وهى تجيب ، حتى اقتنع ، وعرف أنها واسعة العلم ، وقد سره ذلك منها .

ثم قال لها : وما شروطك أنت ؟ فقالت : يكون لى ديوان فى قصرى للنساء مثل ديوانك ، قال : رضيت ، فقالت : إذا كنت فى ديوانك وعلمت من رسولى أنى أدعوك إلىّ فى القصر تركت الديوان ولبيت الدعوة ، فقال : رضيت ؛ فقالت : وإن لى عندك شفاعة واحدة كل يوم ، وإذا أشكل عليكم أمر ، وعجزت عن معرفة وجه الصواب فيه ، بعثته لى لأبدى فيه الحق وصواب الرأى ، وبعد أن ذكرت شروطها ورضى بها ، قرئت فاتحة الكتاب تبركاً بها ، وتوثيقاً لما اتفقا عليه ، ثم أحضر من حلب أربعة من العلماء فأبرموا بينهما عقد النكاح ، وانفض المجلس ، وهنأه الحاضرون بهذا الزواج الميمون ، وسمع أولاد إسماعيل بزواجه فاحتفلوا به فى إحدى قلاعهم ؛ ثم أجمعوا أمرهم على تولية بيبرس على دمشق بعد عزل واليها عيسى عدو بيبرس اللدود .

وجاء عثمان إلى أولاد إسماعيل وقال لهم : كيف يكون بيبرس ملكاً بالشام ، وليس له نقود مضروبة باسمه ، ولا يذكر فى خطبة الجمعة ؟ فقالوا : ذلك لا يكون ، وكان علينا أن نتنبه إلى ذلك من يوم أن تولى، ثم

أحضر العلماء وقال لهم : لا تكون الخطبة إلا باسم الملك العادل بيبرس . ثم ذهب عثمان لبيبرس وقال له : أعطنى صرة من المال ، قال : وماذا تفعل بها يا عثمان؟ فقال : سوف ترى ما أفعله . فأعطاه الصرة ، وذهب هو فأحضر الصناع الذين يضربون النقود ، وأمرهم أن يضربوا النقود التى فى الصرة باسم الملك العادل بيبرس ، ويسموا ذهبها الذهب العادلى ، ويجعلوه يفوق الذهب الأيبكى بقيراطين ، فضربوها ، وأخذوا يضربون النقود حتى انتشرت النقود العادلية بالشام . وكتبوا إلى عمال البلاد وولاتها أن يجعلوا المعاملة بالنقود العادلية ، وأنذروا من خالف وعصى بالقتل الأليم ، وانتشرت النقود العادلية فى الأسواق وفى أيدى الناس . وبعد أيام مضت قال عثمان لسليمان الجاموس وهو جالس مع بيبرس فى ديوانه : لا بد أن تسير النقود العادلية إلى المحروسة ، وتنتشر هناك انتشارها بالشام وأكثر . فقال سليمان : لا بد من ذلك . فقال بيبرس : ولكنى لا أقدر على ذلك ، فقال سليمان : ونحن نقدر على نشرها هناك على الرغم من أيبك ؛ وعلى أن نقطع رأسه ونستريح منه . ولما رأى إصرارهم قال لهم : سأرسل الذهب إلى مصر ، دون أن يذهب إليها أحد منكم ، وحلف لهم على ذلك ، وأعطاهم صرة من الذهب فضربوها نقوداً باسمه ، ثم بعث بها عثمان وبعض المماليك إلى الوزير شاهين ؛ وكان قد علم أنه رجع إلى مصر .

وكان شاهين قد رحل إلى برصة بعد أن خلعه أيبك وعزله من منصبه ، ونزل هو وبعض خدمه فى الطريق للراحة . ثم قال لهم : أريد أن نخرج

للصيد والقنص فى هذا المكان . فقالوا له : افعل ما شئت يا سيدنا . فذهبوا للصيد وهناك أحاطوا بغزالة ، فقال لهم : ضيقوا عليها حتى تمسكوها ، وكل من هربت منه فعليه أن يجرى خلفها حتّى يحضرها ، وشاء القدر أن تهرب من شاهين نفسه ، فقالوا : يا مولانا ، ومن يقدر أن يقول للغول : عينك حمراء ؟ ! فقال لهم : أنا لها ورب الكعبة ، ثم أرخى العنان لجواده ، وجعل يجرى وراءها حتّى اختفت منه فجأة ولم يعلم أين ذهبت . فتحير شاهين ورمى بنظره فرأى ديراً على جبل ، وبابه مفتوح ، فذهب إليه ليقيل فيه إلى أن تخف وتزول شدة الحر .

وبينما هو مقبل إليه نادته من أعلاه بنت جميلة كأنها البدر ، فلما كان عندها قالت : أهلا وسهلا بالوزير شاهين . فعجب الوزير وقال : من أنت ؟ فقالت : أنا سكندرونة بنت مشمشينة الساحرة . وعندنا عيد يقال له عيد الناروز ، وكنت قد استأذنت أبى فى أن أخرج فى عشرة من الخدم إلى الفلاة لأقيم فى هدوئها وسكونها ثلاثة أيام ، وأعود إلى مدينتنا ، وهى مدينة الرخام ، فوصلت إلى هذا المكان ليلا ، وغلبنى النوم فنمت ، ورأيت فى منامى سيدة عليها حلة خضراء وقالت : غداً يأتى إليكم شاهين ، فاعلمى أنه الوزير ، وأسلمى على يديه ، وتزوجى منه . فإنه من الفئة الناجية يوم القيامة ، وسترزقين منه بالذرية الصالحة ، فانتبهت من نومى وأنا أردد كلمة التوحيد ، وأمرت الغلمان أن يفتحوا باب الدير ، ولبثت أنتظرك ، حتّى جئت إلينا بسبب الغزالة . وهذا ما سألتنى

عنه . فطلب إليها أن تجدد إسلامها ، فنطقت بالشهادتين ، وأحضر الرجال وأبرم عقد النكاح ووصاها أن تكتم أمر زواجها عن أمها وغير أمها ، ثم حملت منه ليلتها .

وفى الصباح قال لها : إن خلفى رجالا ينتظرون عودتى وإنى راجع إليهم ، وأما أنت فارجعى إلى أملك ، واكتمى عنها أمر زواجك ، وانتظرى عودتى إليك عندها ، والله يفعل ما يشاء ويختار .

أما سكندرونة فقد تلقتها أمها وهنأتها بعودتها سالمة ، ثم سألتها : هل لقيك أحد من الرجال ؟ فقالت : لا ، يا أماه ، فقالت : ألم تحملى من الوزير شاهين الذى تزوجته وأسلمت على يديه ؟ ولولا أنى أعزك وأحبك لقتلته ، وقد خفف غضبى عليه أن الجن أخبرونى أنك أنت التى خطبته إلى نفسك وليس له يد ولا ذنب فى ذلك ، وسأكتفى بأن أحجزك عندى ، ولا أسمح بأن تفارقينى ما دمت أنشق نسيم الحياة .

وأما شاهين فإنه رجع إلى رجاله ، فهنأوه بسلامته ، وسألوه عن الغزالة فقال إنها شردت ، وتاهت منى بين الآكام ، ولم يذكر لهم شيئاً مما حصل ، ثم سار بهم إلى برصة بلدته ، ومسقط رأسه ، ففرح به أهلها ، وأقام بينهم عزيز الجانب ، مسموع الكلمة .

ضاق صدر أبيك من هجر العلماء وكبار الدولة ديوانه ومجلس حكمه وقال لرفقائه : انظروا فى أمرى هذا الذى أقض مضجعى ، إذ أصبحت فى عزلة ، وغضب علىّ الأعيان والعلماء ، ورجالات الدولة ، ولا يستقيم

لى أمر بدون معونتهم والتفافهم من حولى ، فقالوا : أرسل إليهم ، وأنعم عليهم ، واعتذر لهم ، وتوسل إليهم أن يذهبوا إلى برصة ، ويردوا إليك الوزير شاهين ؛ ورده إلى منصبه ، فإن أمر الملك لا يستقيم إلا به ، وهو محبوب لكل الناس ، ورأيه نافذ فيهم ، وبعد ذلك ننظر فى قتل بيبرس ، فأحضر العلماء والكبراء ، وأسبغ عليهم عطاءه ، واعتذر لهم ، وعرفهم أن الأمر أمرهم ، ورجا منهم أن يذهبوا إلى برصة ويأتوا إليه بالوزير شاهين ، ليسلم إليه مقاليد الوزارة ، ويسير فى حكمه على رأيه ومشورته ، فقبلوا عذره ورجاءه ، وذهبوا إلى شاهين فى برصة ، فابتهج بقدومهم ، واحتفى بهم ، ثم سألهم عن سبب مجيئهم فقالوا : كيف هان عليك أن تترك مصر ، وأهلها أحبابك ومريدوك ؟! فقال : الأمر لله وحده ، وهو الذى أراد وقدر ، فقالوا : إن أيبك قد اعتذر ، واستغفر من ذنبه ، وجعلنا شفعاء لديك لتعود إلى منصبك فى الوزارة ، على أن يكون الأمر بيدك ، والقول ما تقول ، فقال : وما دام هذا رأيكم فلن أستطيع أن أخالفه ، ولا أخرج من أيديكم ، فإنى ما زلت لكم عبداً مطيعاً . فشكروا له عظيم مروءته ، وكريم خلقه ، ثم رحل معهم إلى مصر ، وهناك تصالح هو وأيبك وتولى الوزارة كريماً عزيزاً ، وعمر الديوان كما كان ، وسأل عن بيبرس فأخبروه أنه بأرض الشام ، فأرسل إليه كتاباً أعلمه فيه بكل ما جرى ، ففرح بيبرس لعودته ، ورجوعه إلى منصبه ، وكتب إلى كل من الوزير شاهين وأمه فاطمة شجرة الدر وأيبك ، وقال فى كتاب الوزير

وأمه : إن الفداوية جعلونى والياً بالشام وصكوا نقوداً باسمى ونشروها فى الشام ، ومرسل إليك شيئاً منها لتنشروه بين الناس ، وبعد أن يرحل أولاد إسماعيل إلى قلاعهم سأعجل بالعودة إلى مصر والسلام .

وكتب إلى أيبك يقول : إن أولاد إسماعيل ولونى على الشام على الرغم منى وصكوا نقوداً باسمى ، فاجعلنى نائباً فى تلك البلاد أؤدى لك الخراج ، وانشر بين الناس النقود المرسلة إليك ، وسأحضر لديك بعد أن يرحل أولاد إسماعيل إلى قلاعهم ، ثم بعث عثمان بهذه الكتب ، ومعه ثلاثون ألف دينار ذهباً باسمه ، ووصاه أن يذهب إلى الوزير أولا ، ثم إلى فاطمة ، ثم إلى أيبك .

وصل عثمان إلى البساتين فى مصر ودخل على الوزير فى بيته ، فانتعش الوزير لرؤيته ، وسأله : ما معك من أخبار بيبرس يا عثمان ؟ فناوله الكتب الثلاثة وقص عليه ما جرى لبيبرس فى أثناء غيبته ببرصة .

ولما قرأ الكتب الثلاثة فرح وقال : هات النقود التى معك يا عثمان وخذ كتاب أيبك معك ، وأقم عندى ثلاثة أيام حتى أدبر لك ما تفعله ، فقال : سمعاً وطاعة ، ثم أحضر الوزير إليه الصيارفة وأعطاهم عشرة آلاف دينار عادلية ، وأمرهم أن ينشروها بين الناس ، ولا يقبلوا ذهباً أيبكيًّا إلا بأنقص من قيمته المعروفة ، وإن سألكم أحد عن النقود العادلية فقولوا إنها منتشرة بين الناس منذ أكثر من سنة ، واعلموا أن من خالف ذلك منكم صلبته أمام دكانه ، فقالوا : سمعاً وطاعة ، وأخذوا النقود وانصرفوا ،

وجعلوا ينشرونها بين الناس . وأعرضوا عن أخذ الدنانير الأيبكية ، ثم أحضر الوزير امرأة عجوزاً وقال لها : اذهبي إلى السيدة فاطمة شجرة الدر وقولى لها إن الوزير يدعوك إليه . فذهبت إليها وأخبرتها . فأعلنت السيدة فاطمة أنها خارجة لزيارة الإمام . ثم ذهبت إلى الوزير فى بيته فأكرم لقاءها . وناولها كتاب بيبرس ، ولما قرأته فرحت وقالت : أين النقود العادلية . فناولها عشرة آلاف دينار . فأخذتها ورجعت إلى قصرها ، ووزعتها بين النساء .

وبعد ثلاثة أيام قال الوزير لعثمان : إن الأسواق قد امتلأت بالدنانير العادلية ، فإذا كان الغد ، فاذهب بكتاب بيبرس إلى أيبك . وهذه الصرة من الدنانير العادلية ، إلى ديوانه ، وأعطه الكتاب والنقود ، فإن قبل النقود وأخذها فذلك ما نبغيه . وإن أبى أن يأخذها ، فافتح الصرة وبعثر النقود فى المجلس وانصرف .

دخل عثمان على أيبك فى ديوانه ، فقال له : حمداً لله على سلامتك يا عثمان ، ما معك من الأخبار؟ فقال : كتاب بيبرس . فلما قرأه غضب وحال لونه ، وقال : ارجع إليه وبلغه أن يرحل من بلادى ، فلن أنشر له نقوداً فيها ، ولن أقبله نائباً عنى فى أى مكان ، فقال عثمان : لا تتعبنى بينك وبينه ، وهذه نقوده بين يديك ، وأنت وشأنك فيها ، ثم بعثرها فى المجلس . فانقض عليها الحاضرون وأخذوها ، فقال أيبك ، لا تتخاطفوها ، فإنها غير سائرة بين الناس . فقالوا : وحياة رأسك لا يسير الآن فى

الأسواق وبين الناس إلا هذه النقود ، وقال الوزير : مضى على سير النقود وانتشارها مدة طويلة ، ولم أرد أن أغضبك بإخبارك ، وآثرت راحتك على تعبك وغيظك ، فزاد غيظه وقال : هيا بنا لنطوف الأسواق ، ونتبين الأمر . وتنكروا فى هيئة الدراويش ، وأقبلوا إلى الرميلة ، فأخرج أيبك ديناراً أيبكيًّا من جيبه، وناوله إلى تاجر من التجار ليشترى به حاجة ، فنظر التاجر إلى الدينار ، ثم رماه إليه ، وقال : هذا دينار قد ولت أيامه ومضت وبطل التعامل به ، فتركه إلى تاجر غيره ، وكلما عرضه على تاجر رماه فى وجهه وقال : بطل التعامل بهذه الدنانير ، فقال الوزير : انظر يا مولاى ، كيف يقبلون على الدنانير العادلية ويأخذونها ؟ ! ثم أخرج من جيبه ديناراً عادليًّا وناوله إلى تاجر ليشترى شيئاً مما يبيعه ، فأخذه التاجر وقبله ، وأعطاه بضاعة بقيمته ، فكاد أيبك يصعق لساعته غيظاً وغمًّا ، ورجع إلى بيت فاطمة شجرة الدر مغيظاً محنقاً ، فوجدها جالسة وفى يدها ميزان ، وهى تزن به الذهب العادلى ، والذهب الأيبكى فكلماوضعت ديناراً عادليًّا فى كفةوقباله دينار أيبكى فى الكفة الأخرى رجح الدينار العادلى ، فتقول : هذا عادلى كامل وصاحبه كامل ، وهذا أيبكى ناقص وصاحبه ناقص ، وكان قد وقف من خلفها ، وجعل يستمع لها وهى لا تعرف أنه من خلفها ، فقال لها : أنا ناقص يا فاطمة ؟ ! فقالت : نعم ، أنت ناقص وذهبك ناقص . فقال لها : ومن أجل قولك هذا ، فسأركب إلى الشام أنا وجنودى ، وأحارب بيبرس ، وأعود إلى مصر ورأسه

محمول على سنان رمحي ، فقالت : وعزة الله ، لئن رجعت برأسه كما تقول لأفرشن لك الديوان من أول الرميلة بالجوخ والقصب تدوس عليه بخيلك أنت ومن معك ، ولأجعلن المغنين والمغنيات يستقبلونك ويقولون : أيبك منصور ، وبيبرس مكسور ، وإن رجعت فاشلا مهزوماً جعلتهم يقولون : بيبرس منصور ، وأيبك مكسور . وفضحتك بين الناس ، فقال لها : لك ذلك يا فاطمة . ولما ذهب إلى الديوان أخبر الوزير بما جرى بينه وبين فاطمة ، وقال : وإنى راكب إليه ومحاربه لأعود برأسه ، فأقره الوزير ، ووافقه على رأيه ، وأمر أيبك أن تجهز الجنود للرحيل بهم إلى الشام ، وبلغ الناس ما عزم عليه أيبك فسخروا منه وقالوا : إنه ذاهب إلى غير عودة ، وإن رجع رجع برجل واحدة ، ثم رحل بجنوده والوزير معه حتى نزل بهم على مقربة من دمشق ، ولبثوا فى مكانهم هذا يستريحون ويستعدون للقتال ، وكان عثمان قد سبقهم إلى الوالى العادل بيبرس ، وأعطاه كتاباً من الوزير شاهين يقول فيه : وصل إلينا عثمان ، ووزعنا نقودك بين الناس ، فاطمئن ولا تخف من أحد ، ففرح بهذا الكتاب واطمأن ، ثم أرسل الوزير إليه كتاباً آخر قبل أن يصلوا إلى دمشق بخمسة أيام ، أخبره فيه أن يستعد للقتال . لأن أيبك قادم بجنوده ، يريد قتلك أو طردك وقتل رجالك ونهب أموالك ، وأخبر أولاد إسماعيل بذلك ، فأغلقوا أبواب المدينة ، واستعدوا للقاء أيبك وجنوده .

وأراد بيبرس المسالمة ، حقناً للدماء ، فكتب إلى أيبك كتاباً قال فيه :

اعلم أنك أنت ملك البلاد من غير منازع ولا حاقد ، وما أنا إلا خادمك الوفى الأمين ، فاجعلنى فى دمشق نائباً عنك ، أرسل إليك خراج البلاد كل عام ، وأكون خادمك وتحت طاعتك ، وأعرض عن القتال ، ولك منى نفقة الرحيل بالجنود إلى الشام ، فلا ينبغى لمسلم أن يجرد سيفه فى وجه أخيه المسلم ، وأنت أمير المسلمين ، والحريص على أنفسهم وأموالهم ، ثم بعث عثمان بهذا الكتاب إلى أيبك ، وأمره ألا يطلع عليه أحداً ، فقال : سمعاً وطاعة .

وخرج من عنده إلى سليمان الجاموس وأعطاه الكتاب ، فلما قرأه مزقه وكتب كتاباً آخر على لسان بيبرس قال فيه : من ملك القبلة ، وخادم الحرم ، الملك العادل ، إلى أيبك التركمانى ، راعى غنم الموصل . ما وجدت مثلك مغروراً جاهلا ، يلقى بنفسه وجنده فى التهلكة ، ويأتى إلى قتال ملك البلاد ومن لا يقدر عليه ، فإن أردت النجاة بنفسك وجندك فارجع إلى مصر لتكون نائباً عنى فى حكمها ، ولتؤدى كل عام خراجها ، وقد جعلت الدليل على رضاك بهذا ، أن تضع نفسك فى الحديد ، وتسلم نفسك إلى حامل هذا الكتاب عقب فراغك من قراءته ، واعلم أن حامل كتابى هذا قادر أن يأتينى بك قتيلا أو أسيراً على مشهد من جندك وأتباعك .

وبعد أن كتب سليمان هذا الكتاب قرأه على عثمان ، وناوله إياه ، فقال : ومن يسير به إلى أيبك ؟ فقال : أنت يا عثمان ، فقال : لا أسير به

أبداً ، فقال سليمان : خل عنك ، وانتظرنى هنا حتى أعود إليك من عند أبيك . وسار سليمان بالكتاب حتى كان بين يدى أبيك فقال له : إنى رسول وما على الرسول إلا البلاغ ، فقف بأدب ، وخذ الكتاب بأدب ، واقرأه بأدب ، وأعطنى رده بأدب ، ونفقة السفر عليك بأدب ، وإن فعلت غير ما سمعت ضربت عنقك ، على مرأى من جندك . فقال له الوزير : قم وخذ منه الكتاب .

فنهض وتقدم إليه ، ومد يده ليأخذه ، فامتنع سليمان عن إعطائه وقال : إن كاتب هذا ملك الإسلام ، وربما وجدت فيه كلمة لا يرضى بها مزاجك وهواك فتمزقه ، فاعلم أنه قبل أن تقع قطعة منه على الأرض يكون رأسك قد سبق إليها ، وناوله الكتاب .

فلما قرأه ، التفت إلى وزيره وقال : خذ يا شاهين كتاب بيبرس الذى يقول فيه : إنى راعى غنم الموصل ، ويطلب منى أن أضع نفسى فى الحديد . وأسلم نفسى إليه ، ولكن لنترك كل ذلك ، والميدان بيننا يبين الصالح من غيره . ثم كتب إليه بالحرب والقتال ، وناول سليمان الكتاب ، فقال سليمان : هات نفقة الطريق ، فقال : وما مقدارها ؟ فقال : خمسة آلاف دينار ، فأمر بإعطائه إياها ، فأخذها ورجع إلى رجاله ، وأطلعهم على كتاب أبيك إلى بيبرس الذى يصر فيه على القتال . وقص عليهم ما جرى بينهما ، ثم أعطى عثمان الكتاب ، فذهب به إلى بيبرس وناوله إياه ، فسأله : هل لقيك أحد وعرف شيئاً من كتابى ؟

فقال : لا ، وحياة ذقنك ، ثم فض الكتاب وقرأه ، فوجد أيبك يقول : لست ممن يضعون أنفسهم فى الحديد ، أو يساقون سوق الأسرى ، ولكن بينى وبينك السيف والقتال .

فالتفت إلى عثمان ، ولكن عثمان ابتدره قائلا : لقد عرضت كتابك على سليمان الجاموس ، فلم يعجبه ، وكتب غيره على لسانك ، ثم أخذه هو وذهب إلى أيبك ، وأتانا من عنده بهذا الكتاب الذى قرأته ، فقال : وهل أمرتك بهذا يا عثمان ؟ فقال : نعم ، ومن أمرنى غيرك ؟

فاغتاظ بيبرس وتركه . وجعل أولاد إسماعيل يعتبون على بيبرس ويلومونه لأنه تهاون وتذلل لأيبك ، فقال : ما فعلت ذلك إلا جمعاً لكلمة المسلمين وحقناً لدمائهم . وحتى لا أكون خارجاً على الملك الذى تجب طاعته ، فقالوا : ولكنه تكرر منه العدوان عليك وأنت تعفو عنه ، ولولا إصراره على ظلمك والاعتداء عليك والسعى لقتلك لصفحنا عنه وتركناه ، ثم قاموا إلى مضاجعهم ليقوموا فى الصباح إلى قتال أيبك .

وفى الصباح دقت طبول الحرب فى جيش أيبك إيذاناً ببدء القتال ، ثم خرج أيبك نفسه إلى الميدان وصاح : لا يخرج إلى مبارزتى إلا الولد بيبرس ، فخرج بيبرس إليه على كره منه ، لأنه لا يريد قتالا بين المسلمين بعضهم وبعض . فلما كان أمامه قال له : ارجع يا أيبك ، وأعرض عن الحرب ، وسأعطيك نفقة جنودك جيئة وعودة ، ولا ينبغى أن يقتتل المسلمون ، ويفنى بعضهم بعضاً ، وعندنا كتاب الله يحكم بيننا ،

على أننى ما زلت أعترف بأنك ملك مصر ، وطاعتك واجبة ، فقال أيبك : لا تكثر من القول ، فقد أقسمت ألا أرجع إلا برأسك ، فقال : ارجع يا أبى ، ولا تطع الشيطان والهوى ، فقال : لا أرجع إلا برأسك .

فقال بيبرس : لقد نهيتك فما انتهيت ، ولا ذنب علينا بعد ذلك ، فاحترس منى ، فابتدره أيبك وضربه بسيفه ، ولكن بيبرس تلقاها « باللت » فانكسر سيفه ، ثم ضربه « باللت » فوقعت على فخذه ، ورأس جواده ، فوقعا على الأرض ، وأسرع إلى أيبك رجاله فحملوه وأخذوه عندهم ، ورجع بيبرس إلى رجاله وانتهى القتال فى هذا اليوم ، وأرسل الوزير شاهين إلى بيبرس إذ ذاك كتاباً قال فيه :

لقد أردت أن أرحل أنا وأيبك ورجاله ، ونعود إلى مصر خائبين مغلوبين ، فإذا انتصف الليل فاخرج أنت والفداوية إلى منازلنا ومضاربنا ولتكن لكم صيحات عاليات ، وخذوا جميع ما لنا من الأموال ، واحذروا أن تتأخروا ، فكتب إليه أنه سيكون كما أراد ووضح فى كتابه ، ثم عرض الكتاب على الفداوية ، فاستجابوا له ، وأخذوا يستعدون للغزو فى منتصف الليل .

أما الوزير شاهين فإنه قال لأيبك : لقد بلغنى من الجواسيس أن بيبرس ورجاله سينقضون علينا فى جوف الليل ، ويقتلوننا جميعاً ، ويأخذون أموالنا ، فقال أيبك : وما رأيك يا شاهين؟ قال : أرى أن نحملك فى هودج ، ونسير نحن ومن معنا من الآن ، لنعتصم بالجبال ، فإذا طلع

النهار ووجدنا أنفسنا آمنين عدنا إلى منازلنا ومضاربنا ، وإن وجدناهم قد خرجوا إلينا ، نكون قد نجونا منهم ، ونسرع فى السير إلى مصر ، وإذا سلمت رءوس الرجال . فما المال إلا مثل قص الأظافر ، فقال أيبك : ذلك خير ما رأيت ، فافعل ما شئت .

ثم أمر الوزير أن يركب كل منهم جواده ، ويتبعوهم إلى حيث يسيرون . تاركين أموالهم ومضاربهم ، وما كادوا يبعدون حتى سمعوا أصوات التهليل والتكبير ، فقال الوزير لأيبك : أسمعت أيها الملك ؟ هذا الذى كنت أخشاه . وخفت منه على أنفسنا ورجالنا ، أما المال فما ذهب منه ما حمانا ودفع الموت عنا ، فقال الملك : استمروا فى سيركم إلى مصر ، ولا تنزلوا فى أى مكان حتى لا يدركونا . وجدوا فى مسيرهم وكلما أراد الوزير أن ينزل بالجنود للراحة أمره أيبك أن يستمر فى المسير خوفاً من بيبرس ورجاله أن يدركوهم ، وما زالوا فى سيرهم حتى كانوا فى العادلية ، وقال أيبك : ينبغى أن ندخل مصر ليلا حتى لا تقع علينا أعين الناس ، ونكون هدفاً لعبارات الشماتة ، والتقريع والسخرية ، فقال الوزير شاهين : إنك الملك ولا يجرؤ أحد أن يسخر منك ، فإن أخطأ أحد ورمانا بكلمة سيئة أمرت بإلقائه فى البحر ويموت غريقاً ، فقال : ذلك ما يكون ، ولبثوا فى العادلية يستريحون . وفى تلك الفترة أرسل الوزير إلى فاطمة شجرة الدر ، وأخبرها أن أيبك رجع من الشام خائباً مدحوراً ، ويذكرها ما وعدت أيبك به من استقباله استقبال فضيحة وسخرية . وبعث إلى الولاة أن يتركوا الناس أحراراً فى استقبالهم

لأيبك ، وألا يتعرضوا لهم بالشر والأذى ، ومن آذاهم كان هو خصيمه وانتقم منه .

ولما وصل إلى فاطمة نبأ قدوم أيبك ، أرسلت الراقصات والمستهترات من النساء ، والمستهترين من الرجال والأولاد ، وجعلوا يرمونه بقوارع الكلم ، ويصيحون : بيبرس منصور ، أيبك مكسور ، ومنهم من كان يتكلف العرج أمامه ، وكان أيبك كلما أمر الوالى بإمساك أحد من هؤلاء الذين يهزأون به ، ويسخرون منه ، أمسكوه أمامه ، ثم يطلقون سراحه إذا ابتعدوا عنه ، وما زال أيبك سائراً وهو فى غم وغيظ مما يسمع ويرى حتى دخل القلعة ، فعكف فى بيته مريضاً لا يبرحه ، وقام الأطباء لعلاجه حتى التأم جرحه ، وما سألت عنه السيدة فاطمة ، ولا زارته مدة مرضه . ولما اجتمع برفقائه قال لهم : ما أوقعنى فى هذه الورطة إلا أنتم ، وما جر على هذا الهوان إلا شؤم رأيكم !! فقالوا : لا تجزع ، واصبر حتى نهتدى إلى حيلة تنتصر بها على أعدائك ، وقم بنا إلى الخلاء لتسرى عن نفسك متاعب الغم والألم ، فذهب معهم إلى الجزيرة ، ورأى فيها بنتاً جميلة تملأ من النهر جرتها ، فأعجبته ومشى خلفها حتى عرف دار أبيها ، وعرف أنه شيخ العرب حسان ، فذهب إليه ونزل ضيفاً عنده ، وخطب منه ابنته . فقال حسان : لا أستطيع أن أجيبك حتى أعرف من أنت . فقال بشتك : إنه أيبك ملك مصر والشام ، فقال : وإنه ليشرفنى أن تكون زوجاً لابنتى سالمة ، وتم عقد الزواج ، ووعد أباها أن يبنى لها

قصراً يدخل عليها فيه، ثم رجع إلى القلعة وأمر ببناء قصر فخم بالفوطية ، فلما تم بناؤه أحضر إليه زوجته سالمة ، وأقيمت الأفراح سبعة أيام ، ودخل عليها فيه، وسماه قصر البدوية ، ثم عكف معها فيه ، وهجر الديوان وشئون الملك ، وقام بأمور الحكم فى الديوان الوزير والعلماء ، ولما طالت مدة اعتزاله ثار عليه العلماء ، وكبار الدولة وأعيانها ، وقالوا للوزير : بلغ الملك أيبك أنه إذا استمر معتزلا الحكم خلعناه وولينا غيره ، فإنه لا يرضينا أن يستأثر الملك بامرأة ، ويترك الناس فوضى . فلما بلغه الوزير رسالة العلماء والكبراء قال له : عليك أنت والعلماء أن تصلحوا ما بينى وبين زوجتى فاطمة شجرة الدر ، فقد ضيعت مالى من أجلها ، فإذا أصلحتم ذات بيننا ذهبت إلى الديوان ، وقمت بشئون الحكم على خير ما تريدون ، فرجع الوزير وأخبر العلماء بما قاله أيبك ، فقالوا : الصلح خير ، ولا ينبغى أن نعرض عن رجائه هذا ، ما دام قد جعله الوسيلة لاستقامته وصلاح حاله .

ثم ركبوا إلى فاطمة فى بيتها ، وهناك قالوا لها : لقد جئناك فى أمر لا تأباه مروءتك ، ويحض عليه دينك ، وهو أن تصفحى عن أيبك ، وتقبليه أن يأتى إليك فى قصرك ، فهو زوجك ، وقد فرض عليك الإسلام طاعته ، ومعاشرته بالمعروف ، فقالت : إنكم علماء الإسلام ، نسير على هدى من نوركم ، وما دمتم قد رأيتم ذلك فقد رضيت عنه ، وأغضيت عما سلف منه ، فشكروها وانصرفوا ، وبلغوا أيبك رضاءها عنه ، وأنها

منتظرة قدومه ، ففرح أيبك وذهب إلى الديوان ، وأدار شئون الملك فى نشاط وهمة ، ولما انفض المجلس ذهب إلى فاطمة فى قصرها ، فاستقبلته مبدية له سرورها بقدومه . ولبثا يتعاتبان ويتلاومان حتى قالت له : أوجدت سالمة البدوية التى تزوجتها أجمل منى ، وأكثر وضاءة وحسناً ؟ ! فقال لها : أنت أجمل منها وأحسن ، ولكن فيك عيباً ضيع جمالك واعتبارك ، فقالت : وما ذاك ؟ فقال لها : مكنت بيبرس من ملاعبتك والاعتداء على شرفك . وما فرغ من قولته هذه حتى انتابتها نوبة عصبية حادة ، واحتقرته ونأت بجانبها عنه ، وودت أن تكون قد ألقيت فى النار ولا تسمع منه هذا البهتان وهذا الهراء ، وأخذتها إغفاءة من النوم فرأت الملك الصالح يقول لها : اغسلى شرفك ، وطهرى عرضك بالحسام ، وتجدينه فى قاع المغطس ، ثم انتبهت من نومها ، وذهبت إلى المغطس فأخرجت السيف من تحت الماء الذى فيه ، وكان أيبك قد خاف منها فابتعد عنها حتى تهدأ وتسكن ، ولما غلب عليها النوم نامت ونام هو أيضاً ، فلما استيقظت استيقظ معها ، وظن أن النوم أذهب ما كان بها من ثورة وغضب ، ولكنه رآها ذهبت إلى ناحية المغطس ثم حضرت وفى يدها سيف هجمت عليه به لتضربه ، فتلقاه بيده فقطعها السيف ، فضربته ضربة ثانية شقت رأسه نصفين ، وصرخ هو صرخة عالية قائلا : أدركنى يا أحمد يا ولدى ، فجاءه ابنه فزعاً مسرعاً ، ووجده ملقى على الأرض جثة لا حراك بها ، والسيدة فاطمة لا تزال أمامه ، وكان أيبك قد أحضره معه

تلك الليلة ليرى ما يكون من زوجته ، فابتدرها بسيفه ففرت منه هاربة إلى سطح القصر . فجرى خلفها ، وركنت هى إلى جانب من سور السطح فهوى بها إلى الأرض وسقطت جثة هامدة .

مر بها فى ذلك الوقت رجل فرآها فى تلك الحالة فغطاها بردائه ، ومدت يديها إليه وفيها أساور من ذهب ، فنزعها منهما وأخذها ومضى ، أما أحمد بن أيبك فإنه نزل من القصر وذهب إليها فوجدها ميتة ، فوقف على رأسها يعاتبها ويقول : لقد كان مصرعك هذا بيمينك وما جنى عليك أحد ، واتفق أن جاءه الوزير شاهين ورجاله ، وهو واقف على رأسها فأمر رجاله أن يمسكوه ويلقوا به فى السجن ففعلوا .

وكان السبب فى مجيء الوزير فى هذا الوقت أن الملك الصالح جاءه فى المنام وقال له : قم يا شاهين ، فإن أيبك قد مات ، والسيدة فاطمة سقطت من قصرها فماتت ، وهى ملقاة بجوار قصرها ، فجهزها وادفنها رحمها الله . فجاءها فى ذلك الوقت ، وأمسك أحمد بن أيبك ورماه فى السجن وأمر بتجهيز القتيلين ، فجهزا ودفنا فى حفل جامع من الناس ، وانقضت أيامهما ، وسبحان الحى الذى لا يموت .

٢

وكتب الوزير إلى بيبرس يخبره بموت أيبك وأنه المرشح الأول لتولى ملك مصر وأن السيدة شجرة الدر قد ماتت .

وصلت الرسالة إلى بيبرس فلم يفرح لترشيحه لتولى الملك ولكنه حزن حزناً شديداً لموت أمه، ورجع إلى مصر ؛ وبعد أن زار قبرها ، اجتمع به العلماء والأمراء وعرضوا عليه الملك، فقال الآن أقبل ولكن لى شروطاً إن قبلتموها نزلت على رأيكم وإلا فابحثوا عن غيرى ، فقالوا : قل ما شئت فنحن راضون ، فقال : لن أقول شيئاً إلا فى حضرة جمال الدين شيحة ، فقالوا : إنه رجل من أولياء الله ، ولا يذكر جمع اسمه إلا حضره ، وستراه الآن فينا . فما أتموا كلامهم حتى كان جمال الدين شيحة بينهم ، فسلم عليهم وجلس معهم ، وقال : اذكر لنا شروطك يا ظاهر ، فقال: أن يكون لجمال الدين شيحة كرسى بجانبى فى الديوان ، مقصور عليه ، غاب أو حضر ، فقالوا : رضينا ، فقال : أن يكون أولاد إسماعيل أعضاء فى ديوانى ولهم مكافآت مالية تجرى عليهم . فقالوا : ذلك لك ، فقال : أن تكونوا فى الديوان صفين : ذات اليمين ، وذات اليسار ، وأن يجلس رجل من الفداوية بين كل اثنين منكم ، فقالوا : رضينا ، فقال : أن يكون لزوجتى فى قصرها ديوان مثل ديوانى تجتمع فيه بالنساء ، فقالوا :

رضينا ، فقال : إذا أشكل على أمر بعثت به إلى زوجتى لتحله ، وتبين فيه وجه الصواب ، فقالوا : ذلك لك ، فقال : إذا رأيت أحداً منكم مال إلى أخيه فى المجلس ، وأسر إليه فى أذنه بشيء لم نسمعه قتلت الاثنين ، فقالوا : رضينا ، فقال : إذا وضعت رداء الملك على الكرسى وخرجت إلى مصر لأمر ما لا يخرج أحد من الديوان حتى أعود إليه ، وإن غبت عنه إلى آخر النهار ، فقالوا : رضينا ، فقال : إذا لقى موكب من مواكبكم جنازة وقف وانزوى فى جانب من الطريق ، وأفسح للجنازة أن تسير وتمر ، فقالوا : رضينا ، فقال : لا تضايق مواكبكم الفقراء ولا تتعرض لهم بأذى ، فقالوا : رضينا ، فقال : أحكامى نافذة لا نقض فيها ولا تبديل ، ولا يعارضنى فيها إلا العلماء ، فقالوا : رضينا ، فقال : إذا كنت فى غزوة وفرغت منها ، وأردت أن أغزو الثانية والثالثة وغيرها فلن أعود إلى مصر حتى أنتهى من فتح البلاد ، فقالوا : رضينا ، فقال : إذا اجترح أحد منكم خطيئة أو ذنباً فإنى أقتص منه بحكم الإسلام وإن كان أقرب الناس إلى ، وأعزهم لدى ، فقالوا : رضينا ، فقال : إذا رزق أمير منكم بولد ، ذكراً كان أو أنثى ، سجل اسمه فى دفتر خاص بالديوان ، حتى يخلف الابن والده فى عمله ، وحتى نقوم بالواجب لابنته من الرعاية والكفالة ، فإذا ما تزوجت جعلنا زوجها مكان حميه فى الديوان ، فقالوا : رضينا ، وهكذا جعل يذكر لهم ما أراد من الشروط ، وهم يرضون بها حتى بلغ أربعين شرطاً ، ثم قال لهم : وقد رضيت أن أكون ملكاً ، فبايعه جميع الحاضرين ،

وتقدم إليه جمال الدين فخلع عليه رداءه الذى كان يرتديه ، وقال : إنى وليتك مصر والشام وسائر بلاد المسلمين ما دمت مستمسكاً بطاعة الله ورسوله ، فإن عصيت الله وخالفت الدين فأنت معزول ، ولا طاعة لك علينا ، فقال : رضيت بذلك . ثم نهض الملك الظاهر بيبرس ، وطرح على جمال الدين رداءه الذى ألبسه إياه ، وقال : وليتك على أولاد إسماعيل حتى يأتيهم معروف أو يظهر له خبر ، فقال جمال الدين : رضيت بذلك ، وتقدم الأمير أيدمر إلى الملك وقال : لى عندك أمنية ، فقال : وما هى ؟ فقال : أن أكون بهلوان السلطنة، ومفتاح حروب الإسلام ، فقال له : وقد جعلتك بهلوان تختى ، ومفتاح حربى . وفى آخر النهار انفض المجلس ، ومضى كل إلى شأنه .

وبعد أيام سافر الملك إلى الشام وجلس على تخته ، وكمل أمامه الديوان ، فقال يا أمير أيدمر ، خذ الملكة فى هودج ، ومعك عثمان وألف مملوك ، وسيروا بها إلى مصر حتى تدخل قصرها وتطمئن فيه ، فقال : سمعاً وطاعة ، وتجهز أيدمر للرحيل ، ثم ساروا إلى مصر ، وكلما مر ببلد احتفل به أهله ، ومنحوه كثيراً من الهدايا ، ولما أقبل على العريش وجد الكفار قد انهالوا عليه كأنهم جراد منتشر ، وهم يصيحون قائلين : الثأر ، الثأر . وجردوا سيوفهم ، وهزموا الأمير أيدمر . وكان السبب فى ذلك جوان الخائن ، وذلك أنه ذهب إلى فرنجيل هو وغلامه فأكرمه واحتفى به ، وأنزله ضيفاً عنده ، وكان جوان قد اهتدى إلى ما أراد من الكيد ،

فقال للملك فرنجيل ، وكان قد عرف نبأ قدوم أيدمر ، ومعه زوجة بيبرس والمماليك : إن المسيح قد كتب لك النصر على المسلمين ، فانهض الآن وجنودك ورجالك ، واخرج إلى لقاء أيدمر فإن معه زوجة الملك بيبرس وألف مملوك ، فاقتل رجالهم . وانهب أموالهم ، وإن المسيح ناصرك عليهم ، فأطاعه وأخذ جيشه وسار به إلى الطريق فلقيه أيدمر ومن معه من المسلمين، ووقع بينهما عراك عنيف ، وأباد فرنجيل المماليك ولم يبق مع الملكة إلا أيدمر البهلوان وعثمان، أما أيدمر فقد استمر يدافع عن الملكة وهو فى شدة الضيق ، وأما عثمان فإنه هرب إلى الخلاء وجعل يستغيث ويبتهل إلى الله أن ينجيها من هؤلاء الكفار ، وما لبثت الحالة فى شدة وضيق حتى انشق البر الأغبر عن فارس مقبل إليهم فى سرعة البرق ، وجعل يجز بسيفه رقاب الكفار ، وهو يقول : الله أكبر ، فتح ونصر ، وخذل من كفر ، فولوا الأدبار ، وفروا إلى العريش من هول ما رأوا ، وأغلقوا عليهم أبوابها ، وتركوا أموالهم ، وباءوا بالخزى والخيبة ، فلاموا جوان الذى غرهم بزخرف قوله ، وكاذب وعده ، فقال لهم : لا تخافوا فإنى معكم وسوف ينصركم المسيح على المسلمين .

أما هذا الفارس فقد جمع الأسلاب وسار بالملكة وأيدمر إلى مصر ، ورجع إليهم عثمان وهو يثنى على ذلك الفارس ثناء جميلا ، وسألته الملكة عن اسمه فقال : أنا ضائع الاسم ، فقالت : أريد أن أعاهدك على أن تكون أخى فى الله وعلى ما يرضيه ، فقال : لك ذلك بعد أن تستأذنى زوجك

ويأذن لك ، ولكن لى عندك أمنية ، فقالت : وما هى ؟ فقال : أن تبنى لى بمصر حجرة وتفرشيها ، وتسميها حجرة الحوارنة ، لكى آوى إليها أنا ورجالى ؛ فوعدته بما أراد ورغب ، ثم بعثت عثمان إلى بيبرس بكتاب قالت فيه :

سرنا فى أمن وسلامة حتى كنا عند العريش ، فطلع علينا فرنجيل بجنوده وقتل المماليك جميعهم ، وقد أبلى أيدمر فى الدفاع عنى والمحافظة على بلاء حسناً ، ولما أشرفنا على الهلاك أغاثنا الله بفارس ضائع الاسم ، فجعل يقتل الكفار ويدمرهم حتى فزعوا وهربوا واعتصموا بمدينتهم وكان معهم جوان وسيف الروم ، ثم جمع الفارس الأسلاب وسار معنا إلى مصر ، وقد طلب منى شيئين : أن أبنى له حجرة بمصر ، وأن أمنحه عشرة آلاف دينار ، ورغبت إليه أن أعاهده على أن يكون أخى فى الله وعلى ما يرضى الله ورسوله ، فقال : لك ذلك إن أذن لك زوجك ، وهذا ما جرى أخبرتك به والسلام .

فلما قرأه كتب إليها أنه راض أن تعاهده ، وأذن لها به ، وبعث به رسولاً إليها ، فجد فى المسير وأسرع ، حتى أدركهم فى العادلية ، وناولها كتاب بيبرس ، فلما قرأته فرحت بما أذن لها من العهد ، وعاهدت ضائع الاسم على أن يكونا أخوين فى الله ، وعلى ما يرضى الله ورسوله . وأعطته الدنانير ، وسار بها حتى أدخلها قصرها ، وأمرت ببناء الحجرة التى رغب فيها ، ثم انصرف إلى سبيله .

أقسم الملك بيبرس ألا يبرح العريش حتى ينتقم من فرنجيل شر

انتقام وأوجعه ، ثم أحضر عيسى الناصر من سجنه بين يديه وقال له :
لقد أكرمتك يا عيسى من أجل ابن عماك الملك الصالح أيوب ،
وجعلتك من عتقاء سيفى ، فاجلس على تخت الشام كما كنت ، واحذر أن
تدنس نفسك بمعصية الله ومخالفة أمره ، فشكره عيسى وأثنى عليه وقال :
سمعاً وطاعة ، ثم أمر الملك الظاهر بيبرس بالرحيل إلى مصر ، فسار هو
وجنوده حتى وصلوا إلى العريش ، وأحاطوا بها إحاطة السوار بالمعصم ،
فهال فرنجيل ما رأى ، وفزع إلى جوان وجعل يسبه ويقول : أنت سبب
ما نحن فيه الآن من الخوف والفزع ، وسيكون أمرنا وبالا علينا بسبب
مشورتك المشئومة ، وليتنا ما رأينا لك وجهاً ، ولا وطئت قدماك لنا أرضاً ،
فقد غررت بنا وخدعتنا ، وجعلتنا نسيء إلى قوم لا نقدر عليهم ، فقال
جوان : لا تخف ولا تحزن ، فإنى قاعد عندك ، وسأدبر لك من الأمر
ما ينجيك ، ويدفع عنك شر أعدائك ومبغضيك ، ثم أمر أن يقفل البحر
والبر أمام المسلمين .

أما الملك الظاهر فإنه بعد حصار دام أكثر من ثلاثة أيام بان له
أن الحصار لا يجدى ، فلجأ إلى حيلة يقتحم بها حصونهم وقلاعهم ،
وذلك أنه ذهب إلى البحر ، ونزع عنه ملابسه ، ووضعها فى جراب من
جلد ، ثم نفخ فيه حتى ملأه بالهواء ، وأحكم رباطه ، ثم شده على
ظهره ، ونزل فى البحر وجعل يعوم ويسبح حتى وصل إلى بر القلعة ،
ثم خرج من البحر ولبس ثيابه ، وطرق الباب ، فقيل له : من بالباب ؟

فقال حوارى أرسلنى المسيح لأنصركم على المسلمين الذين يحاصرونكم فى قلاعكم ، فذهبوا إلى فرنجيل وأخبروه . فقال لهم : افتحوا له الباب وأحيطوا به ، فإن رأيتم ثيابه جافة فهو من عند المسيح ، وأحضروه إلى مكرماً ، وإن رأيتموها مبللة فاقتلوه ، ولما فتحوا الباب وجدوا ثيابه جافة ففرحوا به ، وأحضروه بين يدى ملكهم فرنجيل ، فأشرق وجهه لرؤيته ، وسأله عن اسمه فقال : سيف المسيح القاطع ، فجعل له مكاناً فى قصره وجعل له من يقوم بشئونه وخدمته .

وفى الصباح طلب من فرنجيل أن ينزل إلى الميدان ليقاتل المسلمين ، فأمر فرنجيل أن تفتح الأبواب ، ونزل الملك الظاهر إلى الميدان ونادى فى المسلمين : أنا سيف المسيح القاطع . فمن أراد أن تثكله أمه فليخرج لمبارزتى ، وتفقد الوزير شاهين الملك الظاهر فلم يجده ، فأغلق خيمته ، وجلس أمامها وقال : إن الملك مريض وهو نائم داخل خيمته ، ولا يقدر أن يخرج إلا بعد أن يزول عنه مرضه ، وأمر الرجال أن يبرزوا إلى هذا الذى يتحداهم ، ويطلب مبارزتهم ، فأسر عشرة منهم ، ومضى بهم إلى فرنجيل ، فأراد أن يقتلهم فقال له : إن المسيح يأمرك أن تسجنهم حتى تأسر بقيتهم ، ثم تقتلهم جميعهم دفعة واحدة ، وما زال بيبرس يبارزهم يوماً بعد يوم حتى أسر ثلاثين أميراً ، وعشرين من أولاد إسماعيل ، وفرنجيل لا يزيده مرور الأيام إلا فرحاً وبهجة .

وبينما هم جالسون إذ بضجة ملأت الجواء ، فسأل فرنجيل عنها

فقيل : إن جوان عالم الملة المسيحية مقبل فى جماعة من الرجال ، فنهض إليه وتلقاه ، فقال جوان: جئتك بمن ينصرك على أعدائك من المسلمين ، فقال فرنجيل : لست فى حاجة إليهم ، فقد أرسل إلىّ المسيح حواريـًّا ، وقد أسر جماعة من المسلمين ، واسمه سيف المسيح القاطع ، فارتعدت فرائص جوان ، وامتقع لونه ، وأصابه ذهول كاد يسقط منه على الأرض ثم قال : إن هذا الذى تحسبه حواريـًّا هو الملك الظاهر بيبرس ، ملك المسلمين ، وقد احتال وجاءك على أنه حوارى من عند المسيح ، وهو يأسر رجاله ليملأ بهم قلعتك ، ثم ينقضوا عليكم ويقتلوا رجالكم ويأسروهم وينهبوا أموالكم ، وإن لم يكن ما أقوله حقـًّا فلن أكون عالم الملة المسيحية . ففزع فرنجيل وخشى أن يكون حقـًّا ما قاله جوان فسأله : وما رأيك يا جوان ؟ فقال : ضع على طعام الملك بنجاً . فإن كان حواريـًّا فإنه سيعرفه ويمتنع عن أكله ، وإن كان الملك الظاهر فإنه لا يعرفه ، وإذا ما أكله أغمى عليه وحينئذ تمسكه وتقتله شر قتلة ، فابتهج فرنجيل لهذه الحيلة ، ووجد فيها راحته وأمنه وسلامته فى كلتا الحالتين ، فإما قتل وراحة ، وإما نصر ومعونة ، وأمر أن يضع الطباخ على الطعام بنجاً ، وكان بيبرس إذا جاءه الطعام أغلق الباب وجلس يأكل ، ثم نهض يؤدى فريضة الصلاة دون أن يراه أحد ، فلما وضع الطعام بين يديه أغلق الباب ، وهم أن يأكل منه ، فسمع صوتاً يقول : لا تأكل يا بيبرس ، فإن فى الطعام بنجاً ، والتفت إلى من يكلمه فوجده جمال الدين شيحة ، ففرح به وسأله : كيف أتيت

إلى هذا المكان ؟ فقال : ذهبت إليك فى خيمتك فلم أجدك، فعرفت من كتاب اليونان أنك احتلت وأتيت إلى مكانك هذا ، فسرت إلى باب القلعة ولبثت أنتظر مختفياً ، حتى خرج البواب إلى الخلاء يقضى حاجة له ، فترك الباب مفتوحاً إلى أن يعود إليه ويغلقه ، فأخذت مفاتيحه ، وذهبت إليه فى مكانه ، وقلت له : كيف تترك باب القلعة مفتوحاً أيها الخائن ؟ ! فظننى من أتباع الملك وجواسيسه ، فاضطرب وفزع ، فقلت له : تعال معى إلى الملك ، ولا تخف ، فإنى سأشفع لك عنده ، واحذر أن تعود إلى مثل ذلك ، فاطمأن وشكرنى ، وبينما نحن سائران وجدنى آكل شيئاً ، فقال : ماذا تأكل ؟ فقلت : قطعة من الحلوى ، أتحب أن تأخذ منها شيئاً ؟ فقال : نعم ، فناولته قطعة وضعت فيها بنجاً ، فلما أكلها سقط مغشياً عليه ، فنزعت عنه ملابسه ، وذبحته ثم ألقيته فى البحر ، ولبست ملابسه ، وأغلقت باب القلعة وجئت ومعى مفاتيحها إليك ، وكان جوان قد حضر ومعه كفرين وجماعة من رجاله ، فعرف أنك الظاهر بيبرس ، وأشار على الملك أن يضع لك فى طعامك بنجاً ليقتلك ، فجئتك لأمنعك عن تناول هذا الطعام ، وإنهم الآن لينتظرون أن تصيبك إغماءة عميقة ، وسيأتون ليمسكوك فى إغماءتك ويقتلوك ، فاخرج من هذا المكان واختبئ وسأبقى مكانك هنا ، فإذا رأيت أحداً دخل على فاهجم عليه ، واقبض عليه ، وضع يدك على فمه حتى لايصرخ أو يصيح ، ثم ضع الأكرة فى فمه وخذه عندك . فخرج بيبرس إلى مكان قريب ، واختبأ فيه ،

واستعد لتنفيذ ما أمر به جمال الدين شيحة .

وقال جوان لسيف الروم : اذهب إلى ملك المسلمين واعرف لنا خبره ، فإنى أظنه قد أغمى عليه من البنج الذى فى طعامه . فدخل سيف الروم على جمال الدين فوجده نائماً ، فنظر إليه وهم أن ينصرف فنهض جمال الدين وأمسكه وقال له: من أنا ؟ فقال: سيدى جمال الدين شيحة ، فقال له : ورب الكعبة إن لم تأتنى بجوان الساعة فإنى قاتلك ، ولا مفر لك من يدى ، فقال له : انتظرنى هنا فإنى قادم به إليك من فورى ، ثم خرج سيف الروم وذهب إلى جوان ، فصلك قفاه وقال له : ألم يأن لك أن تترك الكذب على الناس ؟ ! لقد ذهبت إلى من حسبته الظاهر بيبرس فوجدته حوارياً أرسله المسيح لمعونة فرنجيل، وإن لم تصدقنى فتعال معى إليه لتتأكد من صدقى . فمضى معه ورآه قبل أن يدخل عليه ، فوجد شخصاً نائماً كالمغمى عليه ، فقال لسيف الروم : لو كان حوارياً ما أثر فيه البنج ، فقال له : ادخل عليه اتعرف من ذلك النائم ، فدخل جوان ونظر فى وجهه ، فما لبث أن وجد الأكرة توضع فى فمه ، وأن شخصاً كتفه ، ونزل به إلى الطابق السفلى وحبسه فيه ، وخرج سيف الروم ليأتيه بالملك فرنجيل ، فقال له : أجب وحدك دعوة جوان عالم الملة المسيحية ، فسار مع سيف الروم ودخل به على جمال الدين ، وفعل به ما فعل بجوان وحبس معه ، ثم أطلق الأسرى من المسلمين ، وفتح لهم الأبواب فرجعوا إلى قومهم ، وقال جمال الدين : دعنى هنا حتى أعذب

هذين اللئيمين جوان وفرنجيل ، وامض أنت لقتال الكفار ، فإذا فرغت منهم فائتنى فى هذا المكان .

أشعل بيبرس نار الحرب ، وجعل وقودها الكفار ، ولما رأوا أنهم هالكون صاحوا : الأمان . الأمان . فقال بيبرس : لا يسلم من سيوفنا إلا من آمن بالله وأسلم ، فمنهم من أسلم ، ومنهم من قتل ، ومنهم من هرب ، وأيد الله المسلمين ، وجعل كلمته العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى .

وجلس على تخت العريش ، وجمعت الأسلاب والمغانم ، وأمر الملك الظاهر ألا تقسم وتوزع حتى يحضر جمال الدين شيحة ، وقال : إنى عارف مكانه ، وذاهب إليه لأحضره ، ونهض ذاهباً إليه فوجده مصلوباً على عمود ، والسوط ملقى تحت قدميه ، وجسمه ينزف دماً من شدة الضرب وقسوته ، ولم يجد معه جوان ولا سيف الروم ولا فرنجيل ، فخفق فؤاده واضطرب ، وكبر عنده أن يلقى جمال الدين هذا العذاب الأليم ، وسأله وهو جازع فازع : ماذا جرى يا أخى ؟ ! فقال : حل رباطى يا بيبرس ، فما أصابنى من الضرب والعذاب فى حياتى مثل ما أصابنى اليوم ، فقال : ومن فعل بك ؟ فقال : شرير كافر ، اسمه كفرين ، أتى به جوان لينجد فرنجيل .

وذلك أن كفرين هذا حينما طالت غيبة جوان وسيف الروم وفرنجيل ظن أن ضائقة حلت بهم ، وحبستهم عن الظهور بين رجالهم ، فجعل يبحث عنهم فى كل مكان حتى دخل الغرفة التى حبسوا فيها ، فوجد جمال

الدين يعذبهم ، فنثر فى جو الغرفة مسحوق البنج وشموه فأغمى عليهم جميعهم ، ثم عمد إلى جمال الدين فصلبه على عمود بالغرفة ، وأعطاهم شيئاً أذهب إغماءهم فأفاقوا ، ثم حل وثاق أصحابه ، وجعل يضرب جمال الدين حتى أدمى جسمه ، ثم خرجوا جميعهم وأغلقوا على جمال الدين الغرفة ، وتركوه وهم يوقنون أنه سيموت صبراً ، لأن أحداً لا يعرف مكانه ولا ما حل به .

فك بيبرس رباط جمال الدين ، وأطلقه من صلبه ، والغم يملأ فؤاده ، ويبدو على وجهه ، فقال جمال الدين : لا يكن فى صدرك حرج مما حصل ، فذلك أمر مقدور ، وعلينا أن نرضى بقضاء الله وقدره ، فقال : كنت أود ألا أدخل مصر إلا ومعى فرنجيل ، فقال : لن تبرح هذا المكان حتى آتيك به ، وانتظرنى حتى أرجع ، ثم سلم عليه ومضى إلى الخلاء ، ولبث بيبرس فى مكانه حتى يعود إليه .

انطلق جوان وأصحابه إلى البرية ، وكمنوا فيها ينظرون ما يكون ، فوجدوا بيبرس قد وطد سلطانه ، وأحاط رجاله بالمدينة ، فضاع أملهم فى العودة إليها، وقال جوان : لقد أصبح من المحال أن نعود إلى لمدينة ، ونقتل بأيدينا جمال الدين شيحة ، وأرى أن نذهب إلى عبد الصليب فى عسقلان ، وهناك نقطع الطريق على السابلة ، فإذا جاءنا بيبرس بجنوده قتلناه أو نهبنا أمواله ، فقالوا : ذلك خير لنا وأسلم ، ثم شدوا عزمهم ومضوا إلى عسقلان ، فتلقاهم صاحبها لقاء حسناً ، وبعد أن

أقاموا واطمأنوا قال جوان له : إن ملك المسلمين قاتل فرنجيل ، وفعل به كيت وكيت ، وقص عليه قصته كاملة ، ثم قال : وقد أخبرنى المسيح أن النصر يأتيه على يديك ، فاقطع الطريق على السابلة ، فإن جاءك بيبرس فاقتله ، وانهب أمواله ، وأبشر بما وعدك به المسيح من نصرك وتأييدك ، فقال له : سمعاً وطاعة ، وأمر فى الحال فأغلقت أبواب المدينة ، وأعلن عصيانه وتمرده ، وكلف جماعة أن تقوم بقطع الطريق ، وحصر نفسه وأهل المدينة فيها ، وأمر الحرس أن يحدقوا بها .

أما جمال الدين شيحة فإنه جعل يسير فى البرية حتى أتى عسقلان فوجد أبوابها مغلقة ، والحرس محيطين بها ، فتنكر فى هيئة طبيب ، ودخل المدينة ، وأقام فى خان من خاناتها ، وقام بعلاج المرضى ، وكتب الله له التوفيق فى وسائله وعلاجه ، كما حماه الله وأعمى جوان عن معرفته ، فمر به أربع مرات وهو لا يشك فى أن هذا الطبيب غريب لا يعرفه ، وقد أمعن جمال الدين فى إخفاء أمره ، فأعفى لحيته حتى امتدت وطالت ، ووضع على وجهه بعض الأدوية فجعله كأنه رجل مرض بالجدرى فأتلف صفحة وجهه .

ولبث فى خانه حتى ذاع أمره ، فأرسلت إليه ابنة عبد الصليب ربعة بطارقة وقالوا له : أجب تحفة المسيح بنت الملك عبد الصليب . فذهب معهم إليها ، وكانت مريضة بالسرطان ، وتاه فى علاجها الأطباء ، قريبهم وبعيدهم ، ولكن الله أراد لها الخير والسعادة فى الدنيا والآخرة ، فرأت فى منامها ذات ليلة ، أن قائلا يقول لها : إن شفاءك من هذا

المرض الذى أعجز الأطباء على يد الطبيب الغريب الذى أقام فى عسقلان حديثاً ، فأحضريه لديك ، وأسلمى على يديه ، وأطيعيه فيما يأمرك به ، وتزوجى منه ، فإن الله سيهب لكما الذرية الصالحة ، وستكونين من الناجيات يوم القيامة .

ثم قامت من نومها ولسانها ينطق بالشهادتين ، وأمرت أن يأتيها الطبيب فى التو والساعة، ولما حضر قالت له: ما اسمك ؟ ومن أى البلاد أنت ؟ وما عملك ؟ فقال : أنا عبد الأحد ، وبلدتى غزة ، وأقيم فى هذه المدينة لعلاج المرضى ، راجياً من الله أن يجعل الشفاء على يدى ، حتى أرفع عن الناس أعباء المرض ، وأدفع عنهم أخطاره ومتاعبه ، فقالت : إنك جمال الدين شيحة ، سلطان أولاد إسماعيل ، وإننى زوجتك وأنت زوجى ، وقد أسلمت ، وأقول الآن بين يديك قولا صدقاً ، آمن به قلبى ونطق به لسانى : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فسألها : ومن أنبأك هذا ؟ فقالت : نبأنى من عرف ربه وعبده واتقاه ، عبد الله المغاورى ، فقال : أحضرى أربعة من الأسرى ، ليشهدوا عقد الزواج ، فلما حضروا أعطاها صداقها وأبرم عقد الزواج على سنة الله ورسوله ، ثم دخل بها تلك الليلة ، وقال لها : إذا كان الغد أرسلنا ثلاثة من هؤلاء إلى بيبرس بكتاب منى إليه ، وبقى الأسير الرابع عندك يقوم بما تحتاجين إليه من الأمور ، وكان الصلة بينى وبينك ، فقالت : نفعل ذلك غداً إن شاء الله .

وفى الصباح سقى جمال الدين زوجته شراباً من زجاجة كانت معه ، فوقعت على الأرض فاقدة الحس والحركة ، ليس فيها إلا نفس يتردد ، ثم شق مكان السرطان من جسمها ، واستأصل شأفته من مكمنه ، ثم خاط الجرح ودهنه بدواء جففه ، ثم أعطاها شيئاً أيقظها ، فلما أفاقت نطقت بالشهادتين . وقالت : أين أنا الآن ؟ وأين كنت ؟ فأخبرها بما فعل . وأمرها أن تكتمه ، ثم ودعها وانصرف فى الزى الذى جاءها به .

وأرسلت الأسرى الثلاثة إلى بيبرس بكتاب جمال الدين وقالت لهم : أعطوه هذا الكتاب ، ثم امضوا إلى سبيلكم أو أقيموا عنده فى جنوده ، واكتموا أمرى فى صدوركم ، فذهبوا إليه ، وكان قد قلق لغيبة جمال الدين ، فأخذ الكتاب منهم وقرأه فوجد فيه :

من جمال الدين شيحة إلى بيبرس ملاك المسلمين ، لقد ذهبت من عندك إلى عسقلان ، فوجدت فيها جوان وسيف الروم وفرنجيل وكفرين وقد أوعزوا إلى عبد الصليب صاحب عسقلان أن يقطع الطريق على السابلة . فإذا جاءك كتابى هذا فأسرع بجنودك إلى عسقلان ، وانزل من حولها ، وسأكون أنا داخلها ، وأنعم على هؤلاء الرسل ، واجعلهم أحراراً ، يختارون الإقامة عندك ، أو المضى إلى سبيلهم ، واعلم أنى تزوجت من تحفة المسيح بنت عبد الصليب بعد أن أسلمت وآمنت بالله ورسوله .

فلما قرأ الكتاب أنعم على الرسل وخيرهم بين الانصراف والإقامة عنده ، فاختاروا أن يكونوا من جنده ، ثم سار هو وجنوده بعد أن هدم

قلعة العريش ، ونزل بهم حول عسقلان ، وأحاطوا بها إحاطة القيد بالرجل ، ووجد عبد الصليب وجماعته أن قد أحيط بهم ، فأعلنوا الحرب والقتال بعد ثلاثة أيام من قدوم جيش المسلمين ، ونزل إلى الميدان بطريق منهم يطلب المناجزة ، فبرز إليه فارس من فرسان المسلمين ، وهجم عليه فقتله ، وجعل يقتل كل من برز إليه من الكفار ، حتى منتصف النهار ، وكان قد قتل أربعين منهم ، فدقوا طبول الانفصال ، وإرجاء القتال إلى الغد . وفرح المسلمون بنصرهم ، وابتأس الكفار لهزيمتهم ، وكان جوان يخفف عنهم أحزانهم ، ويعدهم ويمنيهم .

وفى الصباح أشار عليهم أن يهجموا بجموعهم دفعة واحدة على جيش المسلمين ، فاندفعوا كأنهم السيل ، وتلقتهم الجنود بسيوفهم لا تبقى ولا تذر ، وقتلوا كثيراً منهم حتى فزعوا إلى مدينتهم فدخلوها هاربين ، وأغلقوا عليهم أبوابها . فقال سيف الروم لجوان : لقد كنت السبب فى هذه الهزيمة المنكرة ، وعرضت هؤلاء الآمنين للدمار والخراب ، وقد كانوا فى منأى عن هذه المصائب التى حلت بهم ، فقال : اسكت قطع الله دابر المسلمين والكفار ، دعنا نخرب هذه المدينة ، ثم ننتقل إلى غيرها وغيرها . ثم قال جوان لعبد الصليب : أرى أن تبعث إلى الملك يافيل صاحب مدينة يافا تستنصره ، فعسى أن يأتيك بجنده ، وينقذك من هذه الورطة ، ويطرد الأعداء خاسئين ، فقال : ذلك خير سبيل لكشف هذا البلاء عنا ، ثم كتب الكتاب وبعثه إليه ، فلما فضه وقرأه وجد فيه :

من عبد الصليب صاحب عسقلان إلى يافيل ملك يافا ، أكتب إليك وأنا محصور فى المدينة وقد قتل من رجالى عدد كثير ، وأشرفنا على أن نسلم أنفسنا وبلادنا لملك المسلمين ، الذى غزانا بجنود لا قبل لنا بها بعد أن هدم قلعة العريش وفر ملكها فرنجيل من وجهه فلجأ إلينا هارباً ، وبعد أن يأسرنا ويستولى على بلادنا سيغزوك فى عقر دارك ، طامعاً فيك وفى بلادك ، وأرى أن تأتى بجندك لنجدتى ، ولنتعاون على طرده ، وكشف ضره عنا .

ولما قرأ يافيل كتاب عبد الصليب صعب عليه الأمر فبكى ، فسأله كفرياط ابن أخته ، وأحد بطارقته ، وقال : ما الذى أبكاك ؟ فناوله الكتاب ، ولما قرأه قال له : لا تضق بهذا الأمر ذرعاً ، فإنى معك ، وأول من يفتديك بنفسه ، ثم جهز الملك عشرين ألف مقاتل ، وجعلهم فى قيادة ابن أخته هذا ، وسيره إلى عسقلان لنصرة صاحبها عبد الصليب وإعانته على قتال المسلمين .

سار كفرياط وجنده حتى كانوا على مسيرة يومين من عسقلان ، فلقيهم جيش لم يمهلهم وأعمل فيهم سيفه حتى أبادهم وأفناهم ، وما نجا أحد منهم ، ثم لبس جنود هذا الجيش ملابسهم ، وحملوا صلبانهم ، وركبوا خيلهم ، وساروا إلى عسقلان ، ففتحت لهم أبوابها ، ودخلوها آمنين ، ثم صاحوا فيهم قائلين : الله أكبر ، فتح ونصر ، وهزم من كفر ، الله أكبر . . . ونادى بيبرس : أنا ملك المسلمين ، أنا مبيد

الكفرة والمشركين ، وما زالوا كذلك حتّى ملكوا المدينة . ولعلك تريد أن تعرف كيف كان ذلك ؟

عرفت تحفة المسيح ابنة عبد الصليب من أبيها أنه أرسل إلى ملك يافا يستنصره ، فبعثت من فورها إلى زوجها جمال الدين شيحة كتاباً قالت فيه : إن جوان الخائن أشار على أبى أن يستنجد بملك يافا ، فكتب إليه أبى يطلب منه المعونة ، وهو قادم إليكم بجنوده . فخذ حذرك ودبر أمرك ، ولا يشغلك عن هذا الأمر شاغل .

أخذ جمال الدين كتاب زوجته ، وذهب به إلى بيبرس فأطلعه عليه وقال له : اذهب فى نصف جيشك ، واكمنوا فى طريق يافيل ، فإذا رأيتموهم مقبلين فانقضوا عليهم ، ولا تتركوا منهم أحداً ينجو فإذا أفنيتموهم فالبسوا ملابسهم ، واحملوا صلبانهم ، واركبوا خيلهم ، وامضوا إلى عسقلان من جهة يافا ، فإن أبوابها ستفتح لكم ، فإذا دخلتموها فانقضوا على من فيها بسيوفكم ، وسيعينكم إذ ذاك نصف جيشك الذى خلفته حول المدينة ، وحينئذ تملكون المدينة ، ولا تجدون فيها سيفاً يشهر فى وجوهكم .

ذلك ما كان ، وهزم الكفار ، واستولى بيبرس على عسقلان ، ثم بحث فيها عن جوان وسيف الروم وكفرين وفرنجيل وعبد الصليب فلم يجد أحداً منهم ، وذلك أن جوان حينما رأى نجم الكفار قد أفل ، وريحهم قد ذهبت ، أخذ أصحابه هؤلاء وهرب ، وغضب بيبرس لأنه لم يجد أحداً

منهم ، وشكا إلى جمال الدين ، فقال له : اصبر قليلا ، فسوف نعرف أخبارهم ، وسوف آتيك بهم ، وانتظرنى هنا حتى أعود إليك .

أرسل جمال الدين زوجته إلى غزة ، ومعها عشرة من أتباعه ، وأمرهم أن ينزلوا بها فى مكان كذا المعد له هناك ، وكانت حاملا ، وأقبل الليل عليهم وهم سائرون ، فباتوا حيث نزلوا حين أمسى المساء ، ولما أصبحوا لم يجدوا زوجة جمال الدين ، وضاع بحثهم عنها سدى ، وذلك أن يعقوب العلايشى من نصارى الفداوية ظنها ابنة أحد الأعداء اللئام فسرقها ، فلما استقر بها فى داره سألها عن حالها ، فقالت : إنى مؤمنة بالله ورسوله ، وأنا زوجة جمال الدين شيحة ، فلما سمع منها ذلك خارت قواه ، واصفر وجهه ، ولطم خده ، وكاد يشق جيبه ، خوفاً من جمال الدين وسطوته ، فقالت له تحفة : لا تخف ، وارجع بى إليه ، وسأشفع لك عنده ، ولن ترد لى عند زوجى شفاعة ، لأنى لا أرجو منه إلا ما يحبه ، من كل شىء يحقق العدالة ، فقال : ولكنى لا أستطيع أن أريه وجهى ، وأرى أن تقيمى عندى ، فى ظل ظليل من الراحة والنعيم ، حتى يقوده البحث عنك إلى دارى هذه ، وحينئذ يكون لك فضل الشفاعة عنده . فقالت : سمعاً وطاعة ، وإن أنا مت فى دارك قبل أن يأتينى ، فالله سبحانه وتعالى لك ، وأنت وحظك ، أما الأتباع العشرة فإنهم هاموا فى البيداء على وجوههم خوفاً من جمال الدين وهرباً .

أخذ جوان أصحابه وذهب إلى يافيل ملك يافا ، وقال له : كيف

قعدت عن نصرتنا ، وقد بعثنا إليك لتنجدنا ؟ فقال : ما قعدت عن نصرتكم ، وما كان لى أن أتأخر عن الاستجابة لكم ، وقد بعثت إليكم عشرين ألفاً ، وعلى رأسهم كفرياط ابن أختى ، ولا أدرى شيئاً عنهم ، فقال جوان : لقد جرى علينا من بيبرس وجنوده كيت وكيت ، وقص عليه ما حصل ، ثم قال : وقد رأينا ونحن قادمون إليك جثث القتلى فى المكان الفلانى من الطريق إلى عسقلان ، وربما كان هؤلاء الذين قتلوا جنودك الذين أرسلتهم . فكاد يافيل يصعق من هول هذا النبأ ، وحال لونه ، وبدت على وجهه أمارات الحزن والكآبة ، فقال له جوان : لا تخف فإنى قادر أن أدبر لك أمراً تنتصر به على ملك المسلمين ، إذا غزاك ورام قتالك ، وهذا كفرين يكفيك بقوته وحيلته كل ضر وشر ، وأشار جوان بإغلاق أبواب المدينة وقطع الطرق ، فأمر الملك بتنفيذ ما أشار به .

ترك جمال الدين بيبرس وسافر إلى يافا ، فوجدها مغلقة الأبواب ، فارتقب قدوم الليل ، وغير زيه ودخل المدينة ، فوجد رجلا صاحب خان جالساً أمام بابه ، فسأل عن اسمه ، فقال : عبد الصليب ، فغاب جمال الدين قليلا ، وصبغ وجهه بصبغة وردية جميلة ، وحلق ذقنه ، ثم جاء إلى حيث يراه وجلس باكياً ، فرآه عبد الصليب شاباً أمرد جميلا ، فناداه وقال له : ما يبكيك يا ولدى ؟ فقال : إنى من عسقلان ، وقد غزانا ملك المسلمين وقتل أبى فيمن قتلهم من أهل المدينة ، وكان أبى يقول : إن عمك

فى يافا واسمه عبد الصليب . ولما قتل جئت إلى يافا لعلى أجده
فقال : أسكت عنك بكاءك ، فهأنذا عمك عبد الصليب ، ثم
أخذه ودخل الخان فى حجرة ، وأقفل الباب عليهما وأحضر الخمر
وقال : اسقنى يا ولدى خمراً ، وبعد ذلك يكون ما يكون منى
لك ؟ فناوله جمال الدين كأساً فشربها ثم ناوله الثانية فشربها ، ولما
دارت عيناه من السكر فى رأسه وضع فى الثالثة بنجاً وناوله إياها فشربها
وأغمى عليه ، ونهض جمال الدين إذ ذاك فذبحه ، ولبس ملابسه ، وأقام
فى الخان على أنه عبد الصليب صاحبه .

وذات يوم جاءه خادم بنت عبد الصليب المذبوح وقال : أجب
ابنتك فى بيتها . فنهض جمال الدين وأغلق الخان ، وذهب معه إليها ،
فوجدها فتاة جميلة فاتنة ، فجلس إليها جلسة الأب إلى ابنته ، وقال :
ماذا تريدين يا بنيتى ؟ فقالت : سألتك بالله أن تصدقنى ، ولا تكتم عنى
من أمرك شيئاً ، ألست جمال الدين شيحة ، سلطان أولاد إسماعيل ،
وقد جئت هذه المدينة متنكراً ، وقتلت أبى فى خانه ، ولبست ثيابه ؟ !
فقال : بلى ، وما قلت إلا حقًّا ، ولكن من أين عرفت هذا ؟ فقالت :
إنى مؤمنة بالله ورسوله ، ودينى الإسلام ، وأقول أمامك : أشهد أن لا إله
إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فقال : وكيف دخلت فى دين الإسلام
وأنت بين هؤلاء الكفار اللئام ؟ ! فقالت جلست أفكر فى أمر أبى وفساده
فرجوت الله أن يهديه أو يميته ، ونمت فجاءنى فى المنام ولى الله الملك الصالح

أيوب ، وبشرنى بالنجاة يوم القيامة ، وقال : إن أباك قتله جمال الدين شيحة ، ولبس ملابسه ، وأقام مكانه ، فأحضريه إليك ، وتزوجى منه ، وستكون لكما ذرية صالحة ، تعبد الله وتتقيه ! واستيقظت من النوم مرددة كلمة التوحيد ، التى تهتز لها السموات والأرض ، ثم أرسلت إليك فحضرت وقصصت عليك قصتى ، فقال : الحمد لله الذى هداك إلى الإسلام .

وخرج قاصداً سجن السراية ، فقتل السجان ، وكان اسمه ملدعون ، وذهب إلى أسرى المسلمين فأخذ أربعة منهم ورجع بهم إلى بنت عبد الصليب ، فأبرم عقد الزواج ، وأخلى سبيل الشهود ، يذهبون حيث يشاءون .

ودخل بزوجته تلك الليلة ، وفى الصباح خرج لتدبير الحيلة والكيد للكفار والمشركين .

رأى جمال الدين من بين المسجونين رجلا جالساً يبكى ، اسمه على الإنكاوى ، فجاءه وسأله عما يبكيه ويحزنه ، فقال : دعنى وشأنى ، فلا ينبغى لإنسان أن يسأل عن أخيه إلا إذا كان قادراً على تفريج كربته ، وكشف الضر عنه ، فقال : إنى مسلم ، أوحد الله وأعبده ، ولى رجاء عند الله أن يقدرنى على معونتك ، وتخفيف آلامك ، فقال : وما اسمك ؟ فقال : اسمى جمال الدين شيحة ، فقال : إن أبى تاجر بالبصرة ، واسمه حسن الإنكاوى وله أخ اسمه إبراهيم الإنكاوى ، واتفق أبى وعمى على أن يزوجانى ابنة عمى هذا ، وعقد الزواج ، وأخذا فى

الاستعداد ليوم الزفاف ، ولكن أبى مرض فانتظرنا شفاءه ، ولكن الأجل قد حان ، ومات رحمه الله ، وبعد مدة من وفاته طلبت إلى عمى أن يزف إلى ابنته ، فقال : انقل متاع أبيك إلى بيتى لتقيم فيه ويجمعنا منزل واحد ، ففعلت ما أمر به عمى . ثم قال : خذ ألف دينار ، واتجر بها فإن وجدتك رجلا فى حياتك ، مستقيماً فى معاملتك ، رابحاً فى تجارتك زففت إليك ابنتى . فأخذت الدنانير ، وجعلت أتجر بها متنقلا فى البلاد ثم عدت إليه رابحاً ، وأعطيته المال جميعه ، فقال : إن هذا الربح ومقداره ثمانمائة دينار لا يكفى أفراحنا ، فقلت : وأين مال أبى ؟ فقال : سددت به ديون أبيك ، وما بقى منه شىء ، وأعطانى ألفى دينار أتجر بها ، لأحصل على ربح أكثر ، فاشتريت بها بضائع ، وسافرت بها فى البحار فطلع علينا الكفار بسفنهم ونهبوها وأخذونى ومن معى من التجار ، إلى عسقلان أسرى ، وهناك وزعونا على الملوك ، فكنت من نصيب الملك يافيل ، فجاء بى إلى سجنه هذا ، أقوم فى النهار بجمع الأحطاب ، وقطع الأخشاب ، ثم آوى إلى ذلك السجن ليلا ، وهذه حكايتى .

وكان جمال الدين قد تزيا بزى ملدعون ، ونصب نفسه سجاناً بدلا منه بعد قتله .

فلما سمع من على الإنكاوى قصته كتب كتاباً وقال له : خذ هذا الكتاب ، وامض به إلى عسقلان ، وناول ملكها هذا الكتاب ، وخذ منه ما يعطيكه ، وامض إلى شأنك ، ففرح على وذهب بالكتاب مسرعاً

حتى كان بين يدى بيبرس . فقال له : إنى رسول جمال الدين شيحة إليك ، فقال : وما معك من الأخبار ؟ فناوله الكتاب ، ففضه وقرأه ، وكان فيه :

من جمال الدين إلى بيبرس ملك المسلمين ، بعد قراءة كتابى هذا فاهدم عسقلان ، ثم ائتنى برجالك ، لأنى وجدت فى يافا جوان وسيف الروم وعبد الصليب وفرنجيل ويافيل وكفرين وصاحب جديد اسمه كفير ، وهو أخو كفرين وقد تزوجت ابنة عبد الصليب صاحب خان بيافا ، وقتلت أباها ، وكانت هذه البنت قد أسلمت . وقتلت السجان ملدعون . وأقمت نفسى مكانه فى عمله ، وسميت نفسى ملدعون . وحامل كتابى هذا على الإنكاوى ، فأعطه خمسة آلاف دينار ، ومره أن يمضى بها إلى سبيله . فنفذ بيبرس ما أمر به جمال الدين ، وأخذ على الإنكاوى الدنانير ومضى .

أمر بيبرس أن تهدم عسقلان ، فهدمها رجاله بالمدافع ، ثم رحل بهم إلى يافا ، وهناك نزلوا من حولها ، وأحاطوا بها إحاطة السوار بالمعصم ، ورأى ملك يافا هذه الجيوش المحيطة بمدينته فجمع جيوشه لقتال أعدائه ، وطردهم من حول مدينته ، وأمر فدقت طبول الحرب ، وفتحت أبواب المدينة ، وخرج منها كفير إلى الميدان ، وكان قويًّا شديداً ، يقطع الحديد بيديه ، كما يمزق الإنسان العادى الورق ، وجعل يبارز فرسان المسلمين جميع النهار ، وهو يأسرهم ، وبلغ عدد من أسرهم خمسة عشر أميراً ، ثم أجل القتال إلى اليوم الثانى ، وبات الكفار فرحين بنصرهم ،

وبات بيبرس حزيناً على من أسروا من أمرائه ، وقال : لا يخرج إليهم غداً أحد غيرى .

أما جوان فإنه أمر أن يقتل هؤلاء الأسرى من المسلمين ، فقال له فرنجيل : صبراً ، صبراً ، فقد كنا أشد من يافيل قوة وأكثر جنداً ، وما قدرنا أن نغلب بيبرس وجنوده ، ومن الحكمة أن نحذر العاقبة ، فنبقى هؤلاء الأسرى ، حتى نأسر بقية المسلمين ، ثم نقتلهم جميعهم دفعة واحدة ، فإذا ما قدر لنا الفشل والهزيمة ، افتدينا أنفسنا ومن أسر منا بهؤلاء الأسرى من المسلمين ، ورضى الملوك بهذا الرأى واتفقوا عليه ، فسكت جوان على مضض ، ثم التفت إلى كفرين ، وقال له : إن أخاك أسر خمسة عشر أميراً ، وأنت لم تفعل شيئاً ، فقال : سوف ترى ما يسرك ، ثم خرج ليلا من المدينة ومعه أربعون من الكفار فى ملابس المسلمين وأشكالهم ، وسار بهم إلى مضارب المسلمين ومنازلهم حول المدينة . وبينما هم سائرون وجدوا على حافة الطريق رجلا مغربيًّا جالساً وظهره إلى الطريق ووجهه إلى الجبل ، فعجب كفرين لهذه الجلسة فى ذلك الوقت من الليل وقال له : يا هذا ماذا تفعل فى هذا المكان ، وفى هذا الوقت من الليل ؟ فقال له : ومن أنت حتى تسألنى عن ذلك ؟ فقال : نحن خفراء المسلمين ، فقال أنتم منا ونحن منكم ، ولكنى أرجو منكم ألا تعلموا بى أحداً من المسلمين ، فإنهم إن علموا بى جاءونى ، ونهبوا ما جئت من أجله وتعبت ، فإنى ما أتيت من بلادى ، وتحملت متاعب السفر

وآلامه إلا من أجل كنز فى هذا المكان ، وأريد أن آخذه وأعود به إلى بلادى ، فقال كفرين : نحن شركاؤك فى هذا الكنز ، ولا بد من قسمته بيننا ، فقال : إذا كان لا بد من ذلك فادخلوا هذا الغار وأنتم سكوت لا تتكلمون ، حتى لا يذهب الخدم الذين حضروا لفتح باب الكنز وكشف الأحجار عنه ، فدخلوا الغار وجلسوا فيه وكأن على رءوسهم الطير وجلس هو بينهم وأمامه النار عليها البخور ، وجعل يدمدم ويقول : أين الأخضر ؟ أين الأحمر ؟ أين الأزرق ؟ أين الأبلق ؟ احضر يا فلان ، وأنت يا علان ، وأطلق البخور وأمرهم أن يقفلوا باب الغار بالحجارة ففعلوا ولما شموا الدخان ودخل إلى صدورهم ، أغمى عليهم ، وألقوا بأجسامهم على الأرض ، كأنهم الموتى ، ثم قام هو إليهم ، وذبحهم جميعهم وذبح معهم اللعين كفرين ، ثم خرج وأغلق عليهم باب الغار ، وذهب إلى مكانه وعمله بالمدينة ، ولعلك فى شوق إلى معرفة ذلك الرجل الذى قتل هؤلاء الكفار ، ورجع إلى عمله ومكانه بالمدينة ؟ إنه جمال الدين شيحة ، وكان قد ذهب إلى المكان الذى به جوان ليعرف ما يقوله لأصحابه ويتفقون عليه ، ولما علم أن كفرين هذا نزل فى هؤلاء الأربعين ، دبر لهم هذه الحيلة التى ذبحهم بها ، ورجع إلى مكانه وعمله .

بعد أن استقر رأى الملوك على حبس الأسرى إلى الغد ، أمر يافيل أن يحضروا إليه ملدعون السجان ، فلما حضر سلم وحياه ، ورآه جوان فاقشعر جسمه وفزع ، وقال لسيف الروم : إنى لفى

خوف من هذا ، ولا أظنه إلا جمال الدين شيحة ، فقال سيف الروم: ما ذلك الهذيان ؟ وما هذه الوساوس والظنون ؟ أرح نفسك ومن معك بترك هذه الأوهام والوساوس . وقال يافيل : ماذا جرى ؟ فقال : إنه يدعى أن السجان جمال الدين شيحة . فقال يافيل : إن له عندى عشرين عاماً ، وما رأيت منه فيها إلا الصدق والأمانة والحرص الشديد على المدينة . وكان جمال الدين قد بكى حينما سمع كلام جوان فيه ، فأسكته يافيل وطمأنه وأرضاه ، وقال له : اذهب بهؤلاء الأسرى إلى السجن ، ولا تغضب من جوان فإنه عالم الملة ، ولا ينبغى لأحد أن يغضب لقوله ، فمضى جمال الدين شيحة بهم إلى السجن ، ثم رجع خفية ليقف على ما يدبرون ، وكان ما كان من قتله كفرين ومن معه من الأربعين فى الغار .

وجعل جوان ينتظر عودة كفرين والأربعين ، فما رجع منهم أحد حتى مطلع الصبح ، فاشتد قلقه ، وثارت وساوسه ، ونزل كفير إلى الميدان ، وهم أولاد إسماعيل أن يبرزوا إليه ، ولكن غباراً بان لهم فى البرية ، وانكشف لهم بعد قليل عن فارس مقبل إليهم فى سرعة ، وكان هذا الفارس من أولاد إسماعيل واسمه فخر الدين حسن .

وذلك أن معروفاً ذهب إلى حج بيت الله ، وطالت غيبته ، فذهب فخر الدين ليبحث عنه فلم يجده ، ولم يقف له على خبر ، فرجع إلى قلعته ، وأحاط به إخوانه ، وسألهم عن معروف فقالوا : لا نعرف له خبراً ولا مقاماً ، وقد تولى الملك فينا رجل بدوى من غزة ، اسمه جمال الدين

شيحة بن سيف القبائل ثعلبة ، فقال : ومن ولاه عليكم ؟ فقالوا : بيبرس ملك الشام ومصر ، فقال : إنى أعرف هذا البدوى ، وهو أحق بولايتكم من أى رجل آخر ، ثم تركهم ومضى إلى بيبرس فى يافا ، فوجد الجيوش متأهبة للقتال ، وتلقاه الملك بيبرس بالإكرام ، وأخبره فخر الدين حسن عن حسبه ونسبه ، ورجا منه أن يجعله ملكاً على القلاع والحصون ، فقال بيبرس : إن مكنتنى من دخول يافا بجنودى ، نجول فيها بسيوفنا وخيلنا ، وأحضرت إلى فى القيود والأغلال جوان وأصحابه جعلتك سلطاناً على القلاع والحصون . فقال له : لك ذلك ، فما طلبت منى إلا هيناً يسيراً ، ثم لبس ملابس الكفار ، وانسل بالليل فدخل المدينة ، وكان فى حضرة جوان وأصحابه ، وخفى أمره على جميع الحاضرين ، ولكن جوان عرفه ، فأمسكه وقال : ألست من أولاد إسماعيل ؟ ألست قد رجوت من بيبرس أن تكون سلطان القلاع والحصون ، فقال لك : إن أنت ملكتنى مدينة يافا ، وأحضرت إلى جوان وأصحابه جعلتك ملكاً على القلاع والحصون ؟ أقسمت عليك بالاسم الأعظم أن تصدقنى ، فقال : لقد قلت الواقع ولن أنكر منه شيئاً ، فأمر ملدعون أن يحبسه فى السجن حتى ينظر فى أمره ، فألقاه جمال الدين شيحة فى السجن ، وأثقل عليه حتى حزن وندم وقال : ما وقعت فى هذا إلا لأنى تمردت على بيبرس وأثقلت عليه، وإن خلصنى المولى من شدتى فلن أكون له إلا خادماً مطيعاً، فما أنا بأحسن ممن أطاعوه ، فجاءه جمال الدين وضربه بالسوط ، وقال :

لقد أقلقتنا بكثرة كلامك ، فقال : ابتعد عنى ، وإلا دعوت من يخلصنى من يدك وسطوتك ، فقال : ومن يقدر أن يخلصك منى ؟ فقال : سترى ثم صاح بدعاء يعرفه ، وكان هذا الدعاء لجمال الدين شيحة ، فقال له : إن الذى تدعوه إليك ليخلصك واقف أمامك ، وما أنا إلا جمال الدين شيحة ، فاذهب الآن إلى بيبرس ، ومعك أسرى المسلمين من الأمراء وجوان وأصحابه ، وبلغه أن المدينة مفتحة الأبواب له ولجنده ، وأعلمه أنك أنت الذى فعلت كل ذلك ، ثم أقم مع إخوانك عنده مطمئناً .

فسار فخر الدين ومعه كل أولئك إلى بيبرس وسلمه من معه من الأسرى ، وجوان وصحبه ، وبلغه أن يغير على المدينة . ففرح بيبرس ، ونهض فى الحال بجنوده ، فدخلوا المدينة ، وأفاق أهلها على ضرب السيوف وقعقعة الأسلحة وركض الخيل فى كل ناحية .

وجاء الصباح والمدينة فى قبضة بيبرس ، وقد فنى الكفار وذهب ريحهم . وبعد أن استقر بيبرس وجلس شاكراً لله ما أنعم عليه من النصر والفوز ، جاءه جمال الدين شيحة ، فلما رآه فخر الدين حسن صاح قائلا : الله أكبر ، أطال الله حياتك ، وأعز الإسلام بك ، فأنت صاحب الفضل العظيم علينا وعلى المسلمين ، فقال بيبرس : ما الخبر ؟ فحكى له ما جرى ، ثم أحضر بيبرس جوان وسيف الروم ، وأمر أن يضرب جوان بالسوط ، فضربوه ضرباً أليماً ، ثم طرده هو وسيف الروم ، شر طردة ، ولكنه لم يعتبر بما وقع له .

أما بيبرس فإنه رحل إلى مصر ومعه الملوك الثلاثة وأولاد إسماعيل وفخر الدين والأمراء والرجال .

وذات يوم وبينما هو جالس فى ديوانه جاءه رسول وناوله كتاباً ، ففضه وقرأه ، ثم ناوله إلى القاضى ، وأمره أن يقرأه على مسامع الحاضرين فقرأه وكان فيه :

من صاحب بيت المقدس إلى ملك الإسلام والمسلمين ، لقد وجدنا فى صبيحة يوم أن صهاريج بيت المقدس قد مزج ماؤها بالسم، وشرب منه كثير من الناس فماتوا لساعتهم ، ومن أجل ذلك حرمت على الناس أن يقربوا الصهاريج ويشربوا منها ، وقد أضرّ بنا العطش ، وأصبحنا فى حالة يرثى لها ، فأدركنا ، ونفّس عنا كربتنا ، قبل أن يأكلنا ريب المنون ، فقال الملك : إنى ذاهب إلى بيت المقدس ، لأستعين بالله ، وأكشف هذه الغمة عن المسلمين . وما انتهى من كلامه حتى أتاه رسول من الشام وناوله كتاباً آخر ، فقرأه ووجد فيه :

من صاحب دمشق إلى ملك الإسلام والمسلمين ، أصبحنا يوم أن كتبنا إليك ، فوجدنا جيوشاً نازلة من حولنا ، فأرسلنا جاسوساً لنعرف لمن هذه الجيوش ، ثم رجع إلينا وأخبرنا أنها لملك اسمه دام أبوسليم ، فأدركنا قبل أن يحل بنا العطب ، والسلام . فقال الملك لوزيره : خذ الجنود واذهب أنت بها إلى دمشق والله فى عونك ، وأما أنا فسأذهب إلى بيت المقدس معتمداً على الله ، ثم ولّى مكانه الأمير حجان الثورى الكردى ، ووصاه

أن يعتصم بالعدل والرفق بالناس حتى يعود ، وسار الوزير وجنوده إلى الشام ، وسار الملك وحده إلى بيت المقدس .

دخل الملك على صاحب بيت المقدس ، فأكرم لقاءه ، وأجلسه على تخت الحكم فيها ، ووجد الناس فى هم عظيم وكرب جسيم . فصبر حتى جاء الليل . ثم جعل بيبرس يجوس خلال المدينة متنكراً ، فوجد اثنين سائرين . أحدهما يحمل « شكمجية » والآخر يحمل سلاحاً من خلفه ليحرسه ، فتبعهما حتى دخلا مكاناً فيه أربعون بطريقاً . ومن بينهم جوان وسيف الروم وسليم أبو دام .

وذلك أن جوان حينما ضاقت به الحيل قال لسيف الروم سر بنا إلى سليم أبى دام ، ودام أبى سليم ، لنغريهما بقتال المسلمين ، فذهب إليهما وأكرما مثواه ثم بكى جوان ، فسأله سليم عما أبكاه . فقال : أبكى على دين النصارى . فقد ذهبت ريحه . وذل أنصاره . وأصبح غريباً فى دياره فقال له : لا تحزن . وسأريحك من المسلمين . وأجعل الأرض كلها للنصارى والمسيحيين . فقال : إن المسيح أخبرنى أن النصر لا يكون إلا على أيديكما ، وأنه راض عنكما ، وما زال بهما حتى أثارهما على المسلمين ، فأما دام أبو سليم ، فإنه سار فى جيشه إلى الشام . وأما سليم أبو دام فإنه سار فى أربعين بطريقاً ومعه جوان وسيف الروم إلى بيت المقدس .

سار الملك خلف هذين الرجلين حتى دخلا على الأربعين بطريقاً فى مكانهم . فقال جوان لهما : ما فعلتما الليلة ؟ فقالا : سرقنا « شكمجية »

وتبعنا ملك المسلمين وهو واقف خلف بابنا يستمع لقولنا ، فقال جوان: لا يختبئ خلف الجدران إلا النسوان، فاغتاظ بيبرس ودخل عليهم صائحاً، فأرادوا أن يقطعوه بسيوفهم فقال لهم جوان دعوه ولا تفعلوا به شيئاً فإن البنج سيلقيه بين أيديكم مغشياً عليه، وما لبث بيبرس أن أخذته إغماءة ثقيلة، فوقع على الأرض كأنه ميت لا حراك به . فقال جوان : خذوه وامضوا به إلى عقبة الصيوانة وفم الرمانة، واقطعوا رأسه، وهاتوه معكم واتبعونى إلى أرض الشام ، وسأسبقكم إلى جيش دام أبى سليم هناك . فإذا أحضرتم رأسه ألقيناه فى جيش المسلمين . فتضعف شوكتهم ، ويتمزق جمعهم ، ويولون الأدبار خائبين . فقال سيف الروم : انتظر هنا حتى يقتلوه ، ثم نمضى جميعاً إلى أرض الشام ، فقال جوان : خرس لسانك ، إننى أخشى الإقامة فى هذا المكان ، فقد يكون من خلفه أنصار وأتباع ، أو يكون من ورائه جمال الدين شيحة ، وإن وقعت فى أيديهم فما أنا بناج منهم ، فاتركنا لنختفى فى الفلوات ، فإنه لن يعود من هؤلاء الذين سيقتلونه أحد .

ذهب البطارقة ببيبرس إلى فم الرمانة ، وهناك أوثقوا كتافه، ثم أعطوه شيئاً أيقظه من إغماءته ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . أين أنا الآن؟ فقالوا : أنت بين أعدائك الذين أتوا بك إلى هذا المكان ليقتلوك، فقال : ابتعدوا عنى حتى أطلب الفرج من ربى ، فضحكوا وقالوا : وهل يستطيع أحد أن ينجيك الآن من أيدينا ، وقد

وتركناك لتطلب الفرج ممن تشاء لتذوق حسرة الخيبة قبل أن نقتلك ، ثم رفع وجهه إلى السماء وقال : يا مفرج الكروب ، ومغيث الملهوف ، وناصر المظلوم ، خذ بيدى . ونجنى من هؤلاء الظالمين . أعدائك وأعداء دينك ونبيك ! فما أتم دعاءه حتى رأى البطارقة فارساً مقبلا عليهم ، فاستعدوا بسيوفهم للقائه، وظنوا أنهم قاتلوه بكثرتهم، ولما وصل إليهم أعمل فيهم سيفه ، وجعل يقتلهم واحداً فى إثر واحد حتى أبادهم جميعهم ، وقتل ابن الملك سليم فيهم .

ثم أقبل إلى بيبرس فحل وثاقه ، فشكر له معروفه وقال : هل أنت ضائع الاسم ؟ فقال : كنت ضائع الاسم ، وقد وجدته هنا ، وليس هذا مجال السؤال والجواب ، فاكتب لى عشرة آلاف دينار ، لكى أمضى إلى شأنى فقال : بيبرس : ولكنى أحب أن تخبرنى عن اسمك وأصلك ، فقال : أنا إبراهيم بن حسن الحورانى ، ولى قصة عجيبة ، أقصها عليك فى جمع من الرجال ، فارجع أنت الآن إلى المكان الذى أتيت منه ، وسأذهب أنا إلى شأنى ، فأجابه بيبرس إلى قوله ، وسلم عليه ورجع إلى قصره فى بيت المقدس، بعد أن عرف المكان الذى كان فيه البطارقة ، ولقيه فى طريقه عبد الله المغاورى فسلم عليه ، وقال له : سر معى ، لتطهر الصهاريج من السموم التى فيها ، وجاء إلى الصهريج الأول ، وقال بسم الله الرحمن الرحيم ، إن لله رجالا يقولون لهذا السم انتزع بقدرة الله تعالى لا بقوتهم ، ثم أدلى فيه دلوه ، وأخرجه والماء فيه يغلى كأنه على نار

موقدة ، فألقى الماء على الأرض ، وأدلاه مرة ثانية ، وثالثة . حتى أخرج ماء صافياً ، فشرب منه وسقى بيبرس .

ثم انتقل إلى بقية الصهاريج وفعل بها ما فعله فى الصهريج الأول ، ثم قال لبيبرس : إذا كان الغد فتعال إلى الصهاريج فى موكب ملكى حافل ، واشرب من مائها أمام الناس ، وبلغهم أن السم قد زال منها بإذن الله تعالى ، فإذا بلغتهم ذلك ، ورأوك قد شربت من مائها ، اطمأنوا وشربوا .

وفى الصباح أمر أن يجتمع الناس عنده ، فلما اجتمعوا قال لهم : كل من سرق من ماله شىء فليذهب إلى مكان كذا — وهو مخبأ البطارقة — وليأخذه منه ، فأسرع الناس إليه ، ووجدوا أموالهم هناك ، وأخذ كل واحد ما سرق منه ، ثم رجعوا إلى بيبرس شاكرين فرحين ، وسار بهم فى موكب حافل إلى الصهاريج ، وشرب منها أمامهم ، دون أن يجدوا مكروهاً أصابه ، فاطمأنوا وشربوا ، ودعوا له بالعز والتأييد ، وانكشف ما بهم من ضر ، وحمدوا الله تعالى .

أما الوزير شاهين فإنه سار إلى دمشق . وأرسل إلى الفداوية أن يأتوه فيها ، فلبوا دعوته وقدموا إليه مسرعين ، فاستقبلهم شاكراً لهم ، ونزلوا معه حيث نزل ، وسألوه عن الملك فأخبرهم بما كان من مجيئه إلى دمشق ، وسفر الملك إلى بيت المقدس ، والأسباب التى دعت إلى ذلك . وما لبثوا غير قليل من الأيام ، حتى قدم الملك إليهم من بيت المقدس ، وأخبرهم بكل ما لقيه وفعله هناك ، ثم سألهم : هل قامت

حرب بينكم وبين الكفار ؟ فقالوا : لا ، فسألهم عن إبراهيم الحوراني ، فقالوا : لا تسألنا عما ليس لنا به علم . فهذا رجل لا نعرفه ، ولا تستطيع ألسنتنا أن تتحرك باسمه ، فقال : لا بد من ظهوره ، وستّرونه وتعرفونه ، وسيملأ نفوسكم له إجلالا ومحبة .

وأمر بيبرس أن تدق الطبول إيذاناً ببدء القتال ، فلما سمع جوان دق الطبول فى جيش المسلمين ارتعدت فرائصه ، واصفر من الخوف وجهه ، وقال لسيف الروم : لا بد أن يكون ملك المسلمين قد حضر ، ولا بد أن يكون البطارقة قد هلكوا ، وهلك معهم سليم بن دام .

٣

طلب الفداوية من إبراهيم بن حسن أن يحدثهم عن أصله ونسبه فقال :

كان بالشام شيخ اسمه حسن مفتى الشام ، وكان فى القلاع شيخ آخر اسمه حسن مفتى القلاع ، وكانا فى أيام حجر والد المقدم معروف ، وقد تعارفا وتصادقا وتحابا ، وصارا أخوين يكتب أحدهما إلى الآخر من حين إلى حين . وذات يوم دعا الشيخ حسن مفتى الشام صديقه مفتى القلاع إلى زيارته ، فذهب إليه ، فأكرم وفادته ، وزوجه ابنته وأقام عنده مدة ثم رجع إلى القلاع هو وزوجته ، وقد رزق منها سبع بنات وزوجهن أكابر الرجال ، فواحدة تزوجها والدى حسن الحورانى ، وواحدة تزوجها دبل البيسانى ، وكل من المقدم عجبور ، وموسى القصاص ، وسليمان الجاموس ، والمقدم حجر ، تزوج واحدة منهن .

حملت البنات من أزواجهن ، ووضعن جميعهن غلماناً ذكوراً ، فى خلق سوى وأحسن تقويم ، ولكنى ولدت وشقى الأيمن عاجز عاطل ، وولد سعد بن خالتى وابن دبل البيسانى ضعيفاً نحيلا كأنه الخلال ، فكنت أنا وابن خالتى سعد مثار عجب ودهشة وعطف ، ولما قدرنا على الكلام تآخينا ، وألحقانا بمكتب الفقيه لنتعلم القراءة والكتابة ونحفظ

القرآن . ولكن على الرغم من عجزى وضعف سعد فقد كنا نكيد للصبية ونوقع بينهم ، فتقوم المعارك ، ويشتد الخصام . ولما ضاق الفقيه بذلك ذرعاً خرج من الكتاب على أن يعود بعد قليل وتركه فى رعاية العريف . ولكنه رجع مترفقاً فى مشيته إلى نافذة الكتاب وأخذ يراقبنا فوضح له أننا أسباب البلاء فطردنا مدعياً أننى مريض وأن سعداً ضعيف وأن لا طاقة لنا بالتعليم . فقلت لابن خالتى : إلى أين نذهب ؟

فقال : إلى غار فى الجبل نأوى إليه ، ولنا رب يحمينا ويرزقنا من حيث لا نحتسب . فاستصوبت رأيه .

وحملنى وسار بى إلى الجبل ، ووضعنى فى غار به ؛ وجعل يسعى ويأتى كل يوم بغزال فيشوى لحمها ، ونقتات منه ، وأقمنا على هذه الحال فى ذلك المكان أياماً طوالا .

وذات يوم هجم على فى الغار أسد فى حجم الثور ، بل هو أكبر ، ولما رأيته تملكنى الخوف ، واشتد بى الفزع ، فاستغثت ولا مغيث ، وتقاعس الأسد ليثب على ، فتقلص جسمى ونهضت الرعشة فى مفاصلى ، وهنا حدثت معجزة ، فقد شعرت فجأة بالقوة والعافية تسرى فى جسمى وتملأ قلبى ، وبشتى العاجز يبرأ من كل علة ، فنهضت قائماً وتلفت عن يمينى وشمالى ، فوجدت فرع شجرة يابساً فمسكت به وتلقيت به الأسد فى وثبته ، فجاءت الضربة فى رأسه فهشمته فخر صريعاً لا يتحرك !

وانتظرت عودة ابن خالتى سعد والفرحة تملأ أقطار جسمى ، فلما



(صورة ١)

فتى ضعيف فى سفح جبل يهجم عليه أسد ضخم وهو يستغيث وقد ظهر على مقربة منه ولى من أولياء الله (الخضر عليه السلام) ليخلصه من الأسد .

حضر ومعه الغزال ، قمت إليه وأمسكت طوقه ولببته وصحت : من أذن لك أن تغيب عنى ، ففرح وعجب وقال : حدثنى بما حصل يا ابن الخالة . فحدثته بما جرى لى فى غيبته .

وأغريت سعداً بأن يذهب كل منا إلى مراعى أبيه ويختار من خيله فرساً فارهاً فوافقنى . وأخذنا نتدرب على ركوب الخيل والكر والفر على ظهورها حتى أصبحنا فارسين مغوارين . فأخذنا نخرج للغارة على قلاع الصليبين . ونتحين غفلة سياراتهم فنهب ونسلب من أموالهم . ونأسر من رجالهم جزاء وفاقاً على ما يفعلونه مع تجار المسلمين الوادعين !

ولقد كان لخالى الخوند حجرة كريمة يعتز بها فسلتها لتعيننى على ملاقاة فرسان الصليبيين ، ولما علم بذلك ، غضب على فأعلن عصيانى وخلعى . فسرنا فى البر هائمين . فلقينا موسى بن حسن القصاص ، وأخذنا عنده ، وجعل يعلمنى ما يحسن من أبواب وفنون الحرب والقتال حتى مهرت فيهما . وكان قد أخفى أمرنا ولم يظهره لأحد من أهلنا خوفاً من خالى الخوند !

وذات مرة خرج فى أربعين رجلا للغزو والكسب فخرجت معه . وغنمنا مغانم كثيرة ، ولما رجع أمر لى بسهم واحد من الغنائم ، فأبيت إلا أن يكون لى سهمان ، ولابن خالتى سعد سهمان ، فأجابنى إلى ما طلبت ، وفى الغزوة الثانية أبيت إلا أن يكون لى ربع الغنيمة ، فأمر لى به ، وفى الغزوة الثالثة أبيت إلا أن يكون لى وحدى نصف المغانم ، فأعطانيه

غاضباً مضطرًّا . وقال : اذهب أنت وابن خالتك إلى سبيلكما . فنحن لا طاقة لنا بكما . فخرجنا من عنده . ورجعنا إلى أهلينا فطردونا خوفاً من الحوند . فقال سعد : لقد كنتِ أنت السبب يا ابن خالتى فى نفور أهلينا منا . وطردهم إيانا . فامض أنت إلى سبيلك . واتركنى وشأنى . فإن لى ربًّا يتولانى . ولم تره عينى بعد افتراقنا . ولم أعرف له خبراً . أما أنا فرجعت إلى القلاع . وأقمت فيها . وأنذرت من يطردنى حرباً ثقيلا . وبلغ المقدم حجراً عنى ذلك . فبرز إلى فى الميدان طامعاً أن يغلبنى . فأهنته وأذللته ولم أرد أن أقتله . فزاد غيظه منى وحنقه علىّ . وكان ابنه معروف حاضراً . فاغتاظ وانقض علىّ . وساقنى أسيراً إلى أبيه . فأمر بقتلى . ولكن الحاضرين شفعوا لى عنده . فقال : قبلت شفاعتكم على شرط ألا يلبث فى القلاع طرفة عين . وإن سمعت اسمه فى القلاع قصمت ظهره . فخرجت من ساعتى . وسميت نفسى ضائع الاسم . واتخذت الخلاء مقاماً . حتى جاء الأوان وأرسلنى جمال الدين شيحة إليك لإنقاذك ونجدتك من أول مرة إلى السابعة . وكتبت لى فى كل نجدة حجة بالدنانير التى طلبتها . حتى كنت معكم الآن . وسألتنى عن أصلى . وقصصت عليكم ما سمعتم . فقال الملك : هل عرفتموه الآن ؟ فقالوا : نعم . ولقد كان الحوند يناديه : مراق الدم . وما كنا نعترف له بذلك . فقال : كان ما كان . وأنت الآن عندنا من ذوى المراتب السامية . فاطلب ما شئت فإنك مستجاب إلى ما طلبت . وأمر أن يعطى جميع الأموال

التى فى حججه . وقال له اطلب ما تتمنى وتحب ، فقال : أود أن أكون ساعى ركاب ميمنتك . فقال : إن الله أعطاك فاطلب غيره ، قال : «ششنجى» طعامك ، فقال أعطاك الله فاطلب ، قال : خفير بيت مماكتك ، قال : أعطاك الله فاطلب . قال : أكون سيف حربك ، إذا اشتد كربك ، قال : أعطاك الله فاطلب ، قال : أكون رسول غضبك ، قال : إن الله أعطاك فاطلب ، قال : أكون قطاع رءوس الملوك وهى على كراسيها ، قال : أعطاك الله فاطلب . قال : لكل شىء من هذا مكافآت ومرتبات ، قال : أعطاك الله فاطلب ، قال : لا أطلب شيئاً بعد ذلك . فكتب له الملك ما طلبه ، وأغدق عليه بالمال والنوال . وقال إبراهيم : أريد أن أذهب إلى قلعة حوران ، لأحفظ فيها أموالى ، ثم أعود إليك بمصر أنا ورجالى وأبطالى . فقال له : افعل ما شئت ، وأذن له . فانصرف إلى سبيله .

وتأهب الملك للرجوع إلى مصر . ولكن رسولا جاءه بكتاب ، ففضه وقرأه . فوجد فيه : من جمال الدين شيحة إلى بيبرس ملك الإسلام ، اعلم أن الملعون جوان هرب من الشام إلى مدينة طبرية ، وأغرى ملكها بقتالكم . وأنك الآن قريب من المدينة ، فإذا قرأت الكتاب فارحل إلى طبرية ، وأنا معك فى داخلها ، والله معنا جميعنا والسلام .

قرأ بيبرس الكتاب ، ورحل برجاله إلى طبرية . ونزلوا حولها ، محيطين بها ، فلما رأى الملك ما أحاق به ، التفت إلى جوان وقال : ها هو ذا ملك المسلمين قد أحاط بالمدينة ، فأين المعصم؟ وأين المفر؟ فقال له جوان :

لا تخف فقد شملتك ببركاتى ، وسأطلب لك النصر من المسيح فى جنح الظلام ، ومدينتك حصينة منيعة لا خوف عليها من مغير ، فقوى عزم الملك ، وحصن الأسوار ، واستعد للقتال والدفاع .

ذهب إبراهيم بن حسن الحورانى إلى قلعة حوران ، وبنى له فيها سبعة صهاريج ، وضع فيها أمواله التى جاء بها . وقال : إن عشت فسأملأ هذه الصهاريج بما أغنمه من الغزو والجهاد ومنح السلطان ، واحتفى بقدومه كثير من الرجال ، وفيهم دبل البيسانى وأبوه حسن الحورانى الذى فرح بسلامته وصحته وما جاء به من الأموال ، وطلب منه أبوه أن يقص عليهم ما جرى له فى غيبته ، فأفضى إليهم بكل ما عنده ، وقال : إنى طلبت من الملك بيبرس سبعة أشياء منحنيها ، ولكنى نسيت أن أطلب منه أمراً هاماً ، وهو أن أكون سلطاناً على القلاع والحصون ، فقال أبوه : دعاك من هذه الأمنية ، فإنها منك هذيان ، لأن سلطان القلاع والحصون جمال الدين شيحة ، وهو أخو الملك وصفيه وخليله ، وهو قطب من الأقطاب ، وقد خاب من عاداه ، وسعد من أطاعه ووالاه ، ونحن قد أطعناه وحكمناه علينا ، فلا تفتح على نفسك يا ولدى أبواب الشر والفساد ، وكن له أخاً مطيعاً . فقال : إبراهيم : وماذا يكون جمال الدين هذا بين الرجال ؟ ! وبأى شيء نال هذه المنزلة بينكم ؟ فقال أبوه : اعلم يا ولدى أن له صلة قوية بمن يعلم السر وأخفى ، والله وليه وناصره ، وهو من الرجال المشهورين ، والأبطال المذكورين . فانتفض إبراهيم غضباً ، وقال :

وهل يطيق لقائى فى الميدان ؟ فقال : ما ركب فى حياته جواداً ، وما جال أبداً فى ميدان قتال . وإذا مشى بجانبك ، كان رأسه عند صدرك ، فقال : إذا كانت حاله كما ذكرت فكيف نال هذه المنزلة ، وملأ قلوب الناس خوفاً منه ؟ ! فقال أبوه : تلطف يا ولدى فى الحديث عنه . فإنك إن ذكرت اسمه فى أى مكان وجدته فى الحال لديك حاضراً . وإن كان منك فى مكان بعيد . وقد تجده فى بيتك مثل أمك أو أختك أو بنتك أو ابنك . فقال إبراهيم : دعنا يا أبى من هذا الكلام ، فإن التلطف والرفق من طباع الكرام ، وهذا شىء لنا من دون غيرنا ، وسأذهب إلى الملك بيبرس لأقوم بخدمته ، ولا أرجع إليكم إلاسلطاناً على القلاع والحصون. فقال أبوه : لا تذهب إلى الملك فى مصر ، فقد بلغنى أنه الآن محاصر مدينة طبرية ، فإن قدرت أن تذهب إليه هناك فافعل ، والله تعالى معك ، فنهض إبراهيم وركب جواده ، وجعل يشق البرارى والقفار ، حتى أقبل إلى الملك فوجده محاصراً مدينة طبرية ، فسلم عليه ، واستبشر الملك بعودته ، وأجلسه إلى جانبه ، ثم سأله إبراهيم : من الحاكم على أولاد إسماعيل ؟ فقال : أخى جمال الدين شيحة ، الذى نلت به كل رغبة ومنحة ، فقال : وهل يقدر أن يناجز فى الميدان ، أو يصد الفرسان فى حومة القتال ؟ فقال : إنه لا يستطيع ذلك . ولكنه ذو كيد واحتيال ، تتضاءل أمامهما شجاعة الشجعان . ولن يكيد إلا لأعداء الإسلام ، فقال إبراهيم : إنه معزول من هذه الساعة ، ولن يكون سلطان على القلاع والحصون أحد

غيرى ، فقال الملك : اعتصم بالأدب ، ولا تسلق غيرك بلسانك . وسأصلح بينكما ، وأسعى فى التوفيق بينك وبينه ، فقال إبراهيم : وذلك ما يرضينى ، وينشرح له صدرى ، فقال الملك : اعلم يا إبراهيم أن أخى جمال الدين داخل مدينة طبرية الآن ، وقد وعدنى أن يملك المدينة ، ويأسر جوان ، وسيف الروم ، وملك المدينة ، ويهلك أهلها فإن استطعت أن تفعل ذلك فأنا أول شاهد بأنك تستحق أن تكون سلطاناً على القلاع والحصون ، وأمحو كل عقبة فى سبيلك ، فانشرح صدر إبراهيم وقال : جعلك الله بالرعية رءوفاً رحيماً ، ومنحك النصر والتأييد ، ثم نهض قائماً وقال : انتظرنى أيها الملك فما أردت منى إلا يسيراً ، ثم تركه ومضى .

غاب إبراهيم فى غمرات الخلاء ، وصبر حتى جن الليل ، ثم أقبل إلى طبرية ودخلها فى زى بطريق لا ريب فيه ، وجعل يشق طرقها ، ويجوس خلالها ، لعله يجد فرصة ينال فيها غرضه من أهل المدينة .

وجد إبراهيم المدينة مفتحة أبواب أسواقها . وحركة البيع والشراء قائمة على سوقها ، ووجد دكاناً لرجل يبيع « الفطائر » وقد ازدحم الناس أمامه . وعيناه تموج فيهم موج باحث خبير ، ورأى إبراهيم واقفاً فيهم ، يبغى شراء « فطيرة » فقال الرجل فى نفسه : إن هذا البطريق غنيمة لنا هذا اليوم .

ناول إبراهيم الرجل ديناراً وقال : بعنى « فطيرة » كبيرة وخذ ثمنها هذا

الدينار ، فأخذ الرجل الدينار ووضعه فى فمه ، ثم أخرجه ورماه فى وجه صاحبه قائلا : كيف تغشنى ، وتعطينى ديناراً من نحاس ؟ فقال إبراهيم : لا حول ولا قوة إلا بالله ، وكيف يكون نحاساً من دون الدنانير التى معى ، ومع جميع الناس ؟ ! ثم ناوله ديناراً فوضعه فى فمه وأخرجه ، ثم رماه وقال : وهذا رصاص أيضاً . فأخذه وناوله الثالث فوضعه فى فمه ثم أخرجه ورماه وقال : وهذا « قصدير » ، فقال إبراهيم : يا كلب ،وهل فمك يضرب نقوداً ؟ خذ هذا الدينار الرابع ، وإن وضعته فى فمك قطعت عنقك بحسامى هذا ، ففحص الرجل الدينار وقال : هذا حسن ، ومن يقول : إن الطيب ردىء؟ ! ادخل الدكان لأصنع لك غداءك وتأكله بعيداً عن أعين الناس ، فقال إبراهيم : لقد أحسنت رأياً .

دخل إبراهيم الدكان فوجد فيه صندوقاً كبير مقفلا ، فحركه بيمينه فوسوست الدنانير فيه، فقال فى نفسه : لقد حانت منية هذا الرجل ، ولا بد من قتله ، وأخذ هذا الصندوق ؛ وإن دافع عنه أهل المدينة ، ثم جلس فوقه ، ووضع الرجل « الفطير » أمامه ، وعليه من عسل النحل شىء كثير ، وقال له : كل وامض إلى سبيلك ، فما طعم إبراهيم اللقمة الثالثة حتى سقط مغشياً عليه ، فتركه الرجل حتى انفض الناس ، وأغلقت الدكاكين وهجعوا فى مضاجعهم ، ثم أغلق دكانه ، وأقبل إليه فأعطاه شيئاً أيقظه من إغمائه ، فلما انتبه قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، أين أنا الآن ؟ فقال الرجل : هل أنت من أتباع محمد ،

وعلى دينه ؟ لقد حان أجلك ، ولا منجاة لك من يدى ، فقال : وما فعلته معك حتى تكيد لى وتريد بى السوء ؟ فقال : عرفت ما دار بخلدك ، وأنك أضمرت لى القتل وأخذ هذا الصندوق ، فقال : ومن أنبأك هذا ؟ فقال : قرأت فى عينيك أنك لص خائن ، لا ضمير يزعك ، ولا دين يهديك ، فقال : ابتعد عنى وإلا ناديت من يدفعك ، ويكشف عنى ضرك ، ويجعلك أسيراً فى يدى ، فقال : الرجل : افعل ما شئت ، واستعن بمن أردت ، ولا تدع سبيلا ترجو منه النجاة إلا سلكته ، وقبيح بك أن تقعد عن وسيلة ترجو فيها النجاة ، فقال إبراهيم فى نفسه : إنِ أبى أخبرنى أن شيحة من أولياء الله ، وما ذكره أحد فى مكان إلا حضر لديه ، فلأستنجد به فى هذه الورطة الخطيرة ، ولأختبر صدق هذا القول فيه ، ثم صاح قائلا : أين أنت يا قصير ؟ فما أجابه أحد ، فصاح : أين أنت أيها الولى الكبير ؟ فما أجابه أحد ، فصاح : أين أنت يا جمال الدين شيحة ، يا سلطان القلاع والحصون ؟ فكشف الرجل عن وجهه ستاراً من الجلد ، كان قد تنكر فيه ، وقال : ورب الكعبة إنى أنا الذى ناديته ، واستنجدت به ، فقال : أأنت جمال الدين شيحة ؟ قال : نعم ، ومن برأ النسم ، فقال : وقعت يا قصير ، فقال : ومن منا الذى وقع ؟ ثم جرد سوطه ، وأمسكه بيده ، فقال إبراهيم : ما هذا يا قصير ؟ فقال : هذا مؤدب اللئام الفجرة ، فقال : وماذا أردت أن تفعل ؟ فقال : سأضربك به ، واعلم أنى إن ضربتك به ثلاث ضربات ولم تتوجع فأنا أول من يطيعك ، وآخر

من يعصيك ، فقال : أتضرب وُليد حسن الحورانى بقطعة من جلد ويتوجع أو يتألم ؟ ! وأين الشهود الذين يحكمون بينى و بينك؟ فقال : إن الله تعالى خير الشاهدين ، فقال إبراهيم : رضيت بذلك ، فاضربنى كما أردت ، فرفع جمال الدين يده وضربه ضربة واحدة ، فصاح إبراهيم من شدة الألم قيق ، قيق ، كم ضربة ضربتنى يا جمال الدين ؟ فقال : ضربة واحدة ، فقال إبراهيم : بل عشرة آلاف ضربة ، إننى والله لكأنى دخلت بهذه الضربة فى جهنم ، فقال جمال الدين : وما تقول فى طاعتى ؟ فقال : إن شويت لحمى على النار فلن أطيع رجلا مثلك ، فقال : وما لى فى طاعتك من حاجة ؟ ثم ضربه ثمانين ضربة ، فمزق جلده ، وأغرقه فى دمائه ، واشتد به الألم حتى أغمى عليه ، ونهض جمال الدين فأزال الجلد الممزق ، ودهن مواطن الضرب ، فبرئ لساعته . وعاد إبراهيم فى سلامته وراحته ، ثم أفاق فوجد نفسه مستريحاً سليماً كأنه لم يضرب ، فقال : ومن عالجنى وداوانى ؟ فقال : أنا ، فقال : تبًّا لك ؟ ! تجرح وتداوى فى ساعة واحدة ؟ ! فقال : وذلك ما لا يقدر عليه كل الناس ، فقال إبراهيم : خاب من عاداك ، وسعد من أطاعك وولاك ، أيد الله سيادتك وسلطانك ، ولكنى أريد منك هذا الصندوق وما فيه ، فقال : هو لك ، فقال إبراهيم : وأريد أن أشاركك فى دكانك ، أنت تبيع وتشترى وأنا آخذ نصيبى من الربح ، ولا يلزمنى دقيق ولا سمن ولا عسل ولا عمل ولا أجرة الدكان ، فقال : لك ذلك ، واعلم أن هذا الصندوق من قصر

طبرى ملك طبرية . ثم جلس إليه . وجعلا يتحدثان حتى مطلع النهار . ثم فتح الدكان وجعل يبيع وإبراهيم جالس يأخذ النقود .

أما الملعون جوان فإنه جلس هو وسيف الروم وطبرى يشربون الخمر فوقعت الكأس من يد جوان وانكسرت ففزع وقال : لا بد أن يكون قد جرى فى المدينة أمر عظيم . فانزل يا سيف الروم وامش فى المدينة وائتنى بأخبارها . ولا تكتم عنى شيئاً . فقال : سمعاً وطاعة . ثم حلفه ألا يخفى عنه شيئاً فحلف له . وكان لا يكذب إن حلف . وإن كان فى ذلك ضياع مهجته . ثم نزل إلى سوق المدينة ، وجال فيها فاحصاً باحثاً ، حتى وقف أمام دكان « الفطائر » وعرف جمال الدين وصاحبه . ثم رجع إلى جوان نادماً على يمينه . ويقول فى نفسه : ليتنى ما حلفت : حتى لا أجد حريجة إذا ما كذبت عليه ، ولكن لا حيلة لى ولا مفر من الصدق . ولهما رب ينجيهما من شر جوان وكيده . وهناك أخبره أن جمال الدين وإبراهيم الحورانى يبيعان « الفطائر » فى دكان بسوق المدينة فى مكان كذا . فأصر جوان على أن يبعث لهما رجالا يقتلونهما .

وقال جمال الدين لإبراهيم الحورانى : احفر فى الدكان حفرة ، وضع فيها صندوق المال ، ثم أهل عليه التراب ، وسوّ الأرض من فوقه ، بحيث لا يبين لأحد أن فى الأرض كميناً . فقد عقدت العزم على أن أبيع الدكان ، فقال له : ولم ذلك يا جمال الدين؟ فقال : لأمر ستعرفه بعد . ولما انتهى إبراهيم من دفن الصندوق وإخفائه خرج جمال الدين من الدكان .

ووقف أمامه يلطم وجهه ويبكى ، فأهرع الناس إليه ، والتفوا من حوله ، وسألوه عما أصابه ، فقال : توفى أخى فى بلدتنا ، وليس له وارث غيرى ، وأريد أن أبيع الدكان ، وأرحل إلى بلدتى لأحافظ على ما تركه أخى من المال ، فقال أحد الواقفين : اشتريته بألف دينار ، وقال الآخر : اشتريته بألف وخمسمائة . وقال ثالث : وأنا شريكه فى شراء الدكان بألف وخمسمائة ، وأبرم عقد البيع للشريكين ، وأخذ جمال الدين المال وسلمهما الدكان ، ومضى هو وصاحبه إبراهيم الحورانى .

وقال جمال الدين لإبراهيم : اعلم أنى فعلت ما فعلت لسبب أطلعك عليه الآن ، وذلك أنى رأيت فى الزبائن سيف الروم صاحب جوان وخادمه ، فعرفت أنه سيبلغه أمرنا ، وسيرسل إلينا من يقتلنا ، فتركت الدكان على هذه الحالة ، ونجونا من كيده ، ودفنت الصندوق فى الأرض ليبقى محفوظاً حتى نرجع إليه ونأخذه ، وعليك الآن أن تذهب إلى الملك بيبرس ، وتخبره بما حصل ، وتبلغه أن يتأهب لغزو المدينة فى منتصف الليلة المقبلة ، وسيجدنى فتحت له أبوابها ، وذبحت حراسها ، واعتقلت جوان وسيف الروم وملك طبرية ، فقال له : سمعاً وطاعة ، ، ومضى إلى الملك بيبرس . وكان قد استبطأ جمال الدين ، وقلق على مصيره، فلما رأى إبراهيم فرح وذهب عنه قلقه . وسأله عن جمال الدين فأخبره بكل شىء ، وأخذ يتأهب لغزو المدينة فى الموعد المضروب .

رجع سيف الروم إلى جوان وبلغه أن جمال الدين وإبراهيم الحورانى

يبيعان « الفطائر » فى دكانهما بسوق المدينة ، فأمر جوان كبير البطارقة أن يذهب إلى دكانهما فى عشرين من أتباعه ويقتلوا الرجلين اللذين يبيعان « الفطائر » فيها ، ويأتوه برأسيهما ، ففعلوا فى الحال ما أمرهم به ، ووضعوا الرأسين أمام جوان ، فلما نظر إليهما كاد يصعق لأنهما ليسا رأسى جمال الدين شيحة وإبراهيم الحورانى ، وعجب سيف الروم إذ لم يجد الرأسين لهما . فانزوى فى قصر الملك كئيباً حزيناً ، لا يدرى ماذا يصنع ، وحزن ملك طبرية لحزنه ، لأن جوان كان قد أفهمه أن فى قتل جمال الدين وإبراهيم نصراً له ، وهزيمة منكرة للمسلمين .

أما جمال الدين فإنه تنكر فى زى خادم من خدم قصر الملك ، واختلط بهم فيه . وتقرب من جارية جميلة فى القصر اسمها زعفران ، فكان أطوع لها من ساعدها ، فهو يقضى لها ما تحتاج إليه ويحضر لها طعامها ويسقيها فأنست به واطمأنت إليه ، ثم وضع لها البنج فى كوب من الماء ، فلما شربته سقطت مغشياً عليها ، فنزع منه ملابسه ، كما نزع منها ملابسها ، ثم ألبسها ثيابه ، كما لبس هو ثيابها ، ثم ابتلع حبة من حبوب عنده . فنبت له فى الحال ثديان ، وطال شعر رأسه ، وجعل منه ضفائر على نحو ما كانت تعمله زعفران ، وأصبح لون وجهه وشكله فى لون زعفران وشكلها .

وطلب جوان من ملك طبرية أن يشرب الخمر على صوت جارية تغنى وتنقر على العود ، فطلب الملك الجارية زعفران فحضرت ومعها

عودها . فلما رآها جوان ابتأس وضاق صدره . وقال : ما أحسبها إلا جمال الدين شيحة . فقال الملك : كيف تقول هذا القول يا جوان . وهذه الجارية نشأت فى بيتى وربيت . ولها فى قصرى أكثر من عشرين سنة ؟

فقال جوان : حينئذ خاب كتاب اليونان فى هذه المرة وكذب . وجعلت زعفران تغنى وتضرب على العود . وتدور عليهم بكؤوس الخمر . وكانوا جوان وسيف الروم وملك طبرية . فوضعت البنج فى الخمر . ولما شربوا أغمى عليهم . فنهضت وأوثقت رباطهم . وأدخلتهم فى مكان . وأغلقت عليهم . ثم ذهبت إلى زعفران . فبدلت الملابس . وابتلع جمال الدين حبة فرجع إلى صورته ، وأعطاها شيئاً أبطل البنج وتركها . فلما أفاقت حسبت أنها أخذتها سنة عميقة من النوم ولم تدر ما فُعل بها ، أما جمال الدين فإنه ذهب إلى الحرس وهم نائمون وجعل يذبحهم واحداً واحداً حتى أفناهم ، ثم فتح أبواب المدينة ، وكان بيبرس قد تهيأ للغزو . فحضر هو ورجاله . ودخلوا المدينة . وأعملوا فى رجالها سيوفهم صائحين : الله أكبر . فتح ونصر . وخذل من كفر . فانتبه الكفار من نومهم . والذعر يملأ صدورهم . وتدور أعينهم مع الحيرة فى رءوسهم . فخفوا إلى أسلحتهم . وهاموا بها يقتل بعضهم بعضاً وهم لا يدرون . وثقلت وطأة الموت على جنودهم . وتوالى تصاعد أرواحهم . وما طلع النهار حتى كانوا قد بادوا عن آخرهم . وملك بيبرس المدينة . وأحضر أمامه جوان وسيف

الروم وملك طبرية ، فشوى جوان ضرباً ، ثم أخلى سبيله هو وصاحبه سيف الروم ، أما ملك طبرية فقد رجع به إلى مصر ، بعد أن هدم قلاع المدينة وحصونها ، وقضى على كل قوة تناوئ المسلمين فيها . وأطلق سراح من كان فيها من أسرى المسلمين ،وأعطى جمال الدين صاحبه إبراهيم الحورانى نصيبه من المغانم ، وبعث رجالا فأحضروا الصندوق من الدكان ومنح إبراهيم الحورانى إياه ، ففرح بذلك إبراهيم . وقال جمال الدين إياك أن تعصينى أو تخالف لى أمراً، فقال : ما دمت تمنحنى المال فلن أعصى لك أمراً . وقال بيبرس لجمال الدين : إلى أين تريد أن تذهب الآن ؟ فقال : إنى ذاهب إلى القلاع والحصون لأجددها وأجعل لى فى كل منها سلاحاً . فقال إبراهيم : لك أن تفعل فى كل القلاع ما تشاء ، ما عدا قلعة صهيون ، فإنى أخاف عليك فيها من أخت معروف . لأنها جبارة ، ولها نفوذ عظيم فى قلاع المسلمين والنصارى ، وهى لا تطاق فى ميدان القتال ، ولا يقدر أحد أن يقف أمامها ساعة من الزمان ، ولها كل يوم خروفان يذبحان ، أحدهما غداؤها ، والثانى عشاؤها ، وأخاف عليك أيضاً من المقدم عاصى سلطان الأدرعية . فقال جمال الدين : يا إبراهيم ظننتك تشجعنى ولا تقف حجر عثرة فى سبيلى ، مثبطاً همتى ، مضعفاً عزيمتى ، فقال إبراهيم : لن يضعف لك عزم ، ولن تخمد لك همة ، ولن يساورك خوف من أحد ما دمت معك، والله معنا بنصره وتأييده ، ومن أجل هذا فتوكل على الله ، ولتكن قلعتى

أول القلاع تجديداً وتحصيناً ، وكبتاً للأعداء ، فقال جمال الدين جزاك الله كل خير ، ثم انطلقا ومعهما الأموال إلى قلعة حوران .

* * *

رحل الملك بيبرس وجعل يقطع الفيافى والأودية حتى كان بأرض مصر، هو وجنده ، وكان قد سبقت أنباء قدومه إلى القائم عنه بحكمه فى غيبته . فخرج يستقبله فى موكب ملكى حافل ، وأخذت مصر فى ذلك اليوم زخرفها وازينت ، وكان الملك طبرى سائرًا أمام جواد بيبرس مقيداً مغلولا ، وجعل الموكب يخطو والبشر يبدو فى الأفواه زغردة وهتافاً ، وفى الأيدى تصفيقاً ، وعلى الوجوه نعيماً ونضرة ، وعلى المنازل والحوانيت بنوداً خافقة ، حتى جلس بيبرس على عرش ملكه فى ديوانه ، فأمر بإطلاق المحبوسين ، ابتهاجاً بنصره ، وشكراً لله الذى أيده ، وخذل أعداءه ، وأعلن فى الناس العدل ، وجعل شعار حكمه على بنوده : لا ظلم اليوم ، ولا أفلح من جار وظلم . وساس ملكه فى ظل ظليل من الأمان والاطمئنان .

سار جمال الدين شيحة وإبراهيم الحورانى حتى غابا فى البرية ، ثم وقف جمال الدين وقال لإبراهيم : امض أنت إلى قلعة حوران ، ودعنى وشأنى ، فإنى لا أحب أن أسير فى القفار إلا وحدى ، فتركه إبراهيم واستأنف سيره حتى كان فى قلعة حوران ، وهناك اجتمع إليه الرجال وفرحوا بقدومه ، وفرح أبوه فرحاً كثيراً برجوع ابنه ومعه من الأموال ما يملأ العين ويشرح الصدر ، وسأله أبوه عن حاله فى غيبته ،

فأفضى إليه بكل ما عنده ، وقال : لقد أصبحت فى طاعة جمال الدين شيحة ، ولن أعصى له أمراً ، ورضيت به سلطاناً على القلاع والحصون ، فاطمأن أبوه وابتهج وقال : حسناً فعلت ، وما أردت لنفسك إلا الخير والرشاد ، وما ملكت بذلك إلا سبيل الحق والصواب ، وما لبث غير قليل حتى أتاه جمال الدين ، فأكرم لقاءه ، وقبل يديه ورأسه ، وأذعن لطاعته ، وفرح الحاضرون بقدومه ، وذبح إبراهيم له الذبائح ، ودعا إليه رجال القلعة ، فاحتفلوا به ، وأكثروا من الدعاء له ، ولبث جمال الدين فى ضيافة إبراهيم سبعة أيام ، وفى اليوم الثامن أعلن إبراهيم فى قومه قائلا :

لقد أطعت جمال الدين ، ورضيت به سلطاناً على القلاع والحصون فمن تبعنى فهو منى ، ومن عصى وأبى فليرحل وأنا بعد ذلك خصيمه ، فقالوا : كلنا مطيعون ، وراضون به سلطاناً على القلاع والحصون ، فأمر إبراهيم أن تجدد قلعة حوران حسب رغبة جمال الدين ، وأن يكتب عليها اسمه ، وأن يصنع له كرسى من العاج الهندى لجلوسه ، ففعلوا ذلك فى الحال ، ومحو اسم معروف من كل مكان كان مكتوباً فيه . ثم انتقلوا إلى بقية القلاع ففعلوا بها ما فعلوه فى قلعة حوران ، ولم يبق منها إلا قلعة صهيول ، فقال لهم جمال الدين : سيروا إليها أنتم ، فإذا كان بينكم وبينها مسير نصف ليلة فانزلوا وانتظرونى حتى آتيكم ، فقالوا : سمعاً وطاعة ، وساروا كما أمرهم .

أما جمال الدين فقد ركب طريقه فى البيداء حتى دخل القلعة خفية فى الليل ، وبدأ يدبر الحيل والمكايد .

وصل إلى سمع أخت معروف أن جمال الدين قادم فى رجاله ، ليفعل فى قلعة صهيول ما فعله بجميع القلاع ، فقالت : وهل أطاعه أولاد إسماعيل؟ فقيل لها: نعم. أطاعوه وصاروا من خلصاء أتباعه وأعوانه، فقالت: لاعجب فى ذلك. فقديماً عبدت الأصنام وليس لها لسان ينطق ، ولا عقل يعى ويفكر ، وإن جاءنى فى قلعتى هذه فسوف أقتله ، وأفرى عظمه ، ثم أغزو بيبرس فى بلاده ، فأنزع منه ملكه ، وتكون لى الكلمة المسموعة ، والأمر المطاع .

كان لأخت معروف خادم اسمها أم نصار ، وهى التى تحضر لها طعام الغداة والعشى ، وكان طعامها فى العشاء خروفاً له عامان ، ومن الثريد الغارق فى السمن قصعتان ، فدخل جمال الدين القصر خفية ، وأطلق فى مكان أم نصار رائحة البنج فأغمى عليها ، فلبس ملابسها ، وابتلع حبة معه، فصار شكله مثل شكلها ، وأصبح له ثديان وشعر طويل فى رأسه ، فأخذ يجهز طعام أخت معروف حتى انتهى من إعداده ، وانتظر أمرها بإحضاره بين يديها لتأكل ، وكانت لا تأكل إلا فى منتصف الليل ، فلما جاء وقته نادت أخت معروف : يا أم نصار ، أحضرى الطعام ، وأكثرى من السمن ، فإنى عازمة أن أركب غداً إلى جمال الدين شيحة ، لأقتله ، وأقتل أولاد إسماعيل الذين اتبعوه وأطاعوه ، ولا أتركه

يفعل فى قلعتى ما فعله فى بقية القلاع . فقالت أم نصار — جمال الدين — لقد بلغنى يا سيدتى أنه من الأولياء ولا يذكر اسمه فى مكان إلا حضر فيه ، فقالت لها : اخسئى ، وإن كانت له كرامة فليظهرها ، ثم قدمت الطعام . وجعلت تأكل حتى شبعت . وناولها كأس المدام فشربته ، وكان قد وضع فيه حبة كانت معه فذابت فى الخمر . وما لبثت أن ورم قلبها ، وضاق صدرها . وعسر تنفسها . فقالت : يا أم نصار ، لقد أصابتنى علة ولا إخالنى ناجية منها ، وما أنا الآن إلا أعالج سكرات الموت ، فقالت لها : يا سيدتى إن جمال الدين من أولياء الله . وما أصابك هذا المرض فيما أعتقد إلا لأنك ذكرته بسوء ، وأضمرت له الشر . فقالت : إن شفيت من مرضى هذا صالحته ، ودخلت فى طاعته وأكرمته ، فقالت أم نصار لها : خذى هذه الكأس واشربى ما فيها من ماء النعناع . فإنه يزيل الآلام والأوجاع ، فشربت حتى ارتوت ، ثم فارقتها العلة وسلمت . فنادت : يا أم نصار ، لقد زالت علتى . وسلم بدنى ، ورجعت إلى عافيتى . وسأركب غداً إلى جمال الدين وأنهش لحمه نهش الأسد لفريسته . فقالت : أخشى أن تغيرى نيتك ، فيرميك بداهية ، لا يكون لك منجاة منها ، فقالت : ما أصبت إلا بمرض عابر وقد زال ، ولا عودة له . فقالت أم نصار : قد حذرتك ونصحت لك ، فافعلى ما تشائين . ثم ذهبت إلى حجرتها . وبعد قليل نادت أخت معروف : يا أم نصار . فقالت : نعم . فقالت : هاتى لى كوباً من الماء لأنى

عطشت . فوضعت فى الكوب حبة مما معها ، وأحضرت لها الكوب فشربت ، وما لبثت أن ورم جسمها ، واشتد ألمها ، وثقلت عليها أوجاعها ، فصاحت : يا أم نصار ، لقد أصبحت فى أسوأ حال ، وأصابنى من العلل ما لا طاقة لى بحمله ، وإننى لأحس الخطر يدنو منى بأسرع منه فى المرة الأولى ، فقالت : ما زلت أعتقد أن ذلك لأنك نقضت عهدك بينك وبين نفسك ، وأردت الشر لجمال الدين شيحة ، وما أصابك هذا إلا من أجله ، ولو أخلصت له النية ما أصابك ضر ولا أذى ، فقالت : لئن عافانى الله لأكرمنَّه، ولأكونن له الخادم الوفية المطيعة ، فقالت لها : خذى هذه الكأس واشربى ما فيها ، فإنه يخفف الآلام ، ويذهب الأسقام ، فلما شربته سلمت فى الحال وبرئت من تلك العلة القاتلة ، فقالت : يا أم نصار ، لقد عوفيت وشفيت ، وغداً سأمضى إلى جمال الدين وأقطع جسمه ، وأفنى رجاله . فقالت : ارجعى عن غوايتك ، فما أظن المرة الثالثة إلا القاضية ، فأصلحى ذات نفسك ، ولا تتعرضى لجمال الدين بشىء من الأذى ، فهو ولى الله وحبيبه ، وهو الذى يحميه وينصره ، فقالت : سوف ترين ما يحل به من ضر وهوان ، فقالت : إنى لا أملك إلا نصحك ، وأنت وشأنك وبعد قليل نهضت إلى المرحاض لتريق الماء ، وطلبت من أم نصار إبريقاً من الماء ، لتنظف نفسها من الأذى ، فأحضرت لها الإبريق وطهرت نفسها ، ثم رجعت إلى فراشها ، وأنشبت الأمراض فيها أظفارها ، فهى لا تستطيع نهوضاً

ولا حركة . وصاحت : يا أم نصار : لا إخالنى هذه المرة ناجية . فقالت أنت التى ظلمت نفسك ، وما ظلمك أحد . وما أصبت إلا بما تستحقين فقالت : أقسمت بالله واسمه الأعظم لئن شفيت هذه المرة لأفين بعهدى لجمال الدين ، ولأكونن أطوع له من ساعده ، ولأتركن له قلعتى يفعل فيها ما يشاء ، ولأنزلنه من نفسى ورجالى منزلة السيد من خدمه . وعرف جمال الدين أنها صادقة هذه المرة فأعطاها ما يزيل ما بها من أوجاع فذهب إلى أم نصار ، وألبسها ملابسها . وابتلع حبة مما معه ، فرجعت إليه صورته ، ثم أطعم أم نصار شيئاً يبطل البنج ويعيد إليها وعيها ويقظتها ، وتركها وانصرف خفية إلى إبراهيم الحورانى ورجاله ، فوجدهم فى مكانهم الذى نزلوا فيه ينتظرونه ، فلما قدم إليهم فرحوا به وسلموا عليه . وجلس بينهم ، فقال أولاد إسماعيل : إذا سمعت أخت معروف بمجيئنا إليها انقضت علينا برجالها ، وأذاقتنا الوبال ، ونحن لا نخاف إلا أن تصيبك بضرها وأذاها ، فقال إبراهيم : لا تقولوا مثل هذا القول . وإن جاءت برجالها فدعونى لها ، فإن ظفرت بى فاطلبوا النجاة لأنفسكم ، وإن ظفرت بها فاعلموا أنكم لا تخافون من شىء ما دمت حيًّا ، فابتسم جمال الدين ، وفرح بقول إبراهيم وقال : إنك يا إبراهيم جدير بكل كرامة ، وأما أنتم فأريحوا أنفسكم ، فإنى قادر عليها وعلى أمثالها معها ، فإذا قدمت إليكم فدلوها على مكانى ، وأحضروها بين يدى ، فورب الكعبة إن لم تأتنى مطيعة ذليلة ، لأسلخن جلدها ولأجعلنها عبرة ومثلا ،

ولولا أنى قادر عليها ما أتيت بكم إليها . ولا عرضتكم لشرها وأذاها ، فكبر جمال الدين فى أعينهم ، ولبثوا مطمئنين.

وفى ضحوة النهار كتب جمال الدين كتاباً ، وقال لإبراهيم خذ هذا الكتاب ، واذهب إلى أخت معروف وناولها إياه . فقال : إنى ذاهب إليها وإن كان فى ذلك تلفى وهلاكى ، فقال جمال الدين : سر على بركة الله وأنت آمن ، وستجد نفسك فى سلامة وأمن شاملين ، وستجدها مطيعة تود السلام وتنشده ، ولولا ما أعلمه من ذلك ما أرسلتك إليها ، فقال : سمعاً وطاعة .

ذهب إبراهيم واستأذن فى الدخول عليها فأذنت له ، فلما كان بين يديها قال لها : ما على الرسول إلا البلاغ ، وناولها الكتاب وقال : هذا كتاب جمال الدين شيحة بعثنى به إليك ، فأخذته وفضته . ثم قرأت فيه : من جمال الدين شيحة إلى أخت معروف ملك القلاع والحصون ، لقد أصبحت وكيلا على القلاع أميناً فيها حتى يحضر سيدى وسلطانى المقدم معروف ، عز نصره ، غائباً وحاضراً ، وعند حضوره سأكون أول خادم ، يدين له بالطاعة والولاء . وقد جددت القلاع وكتبت اسمى عليها ، ليطيعنى أصحابها ، وأريد أن أفعل فى قلعتك ما فعلته ببقية القلاع ، فماذا تقولين ؟ إنى منتظر منك جواباً شافياً ، والسلام .

ولما فرغت من قراءته قالت لإبراهيم : دع هذا الرجل يكتب اسمه على حبة عينى ، فإنه من أولياء الله وأحبائه . وقد رأيت الليلة الماضية له

كرامات تجل عن الوصف ، وقد أرسل إلينا هذا الكتاب الذى هو أحلى من الشهد ، وما عاب فينا هذا الرجل ، وما اعتدى علينا ، وما نطق إلا حقًّا ، ثم كتبت إليه : من أخت معروف إلى جمال الدين شيحة ملك القلاع والحصون ، أيده الله بنصره ، لقد أطعنا الله وأطعناك ، ورضينا أن تكون القلاع والحصون ملك يمينك ، وهذه قلعتى بين يديك ، لك أن تفعل فيها ما تشاء ، وقد عاهدت الله أن أكون محبة لمن أحبك ، عدوة لمن أبغضك وشنأك ، وإن كان أخى معروف بن حجر ، ثم أقفلت الكتاب . وناولته إلى إبراهيم ومنحته العطايا . وقالت : اذهب به إلى الملك جمال الدين .

أقبل إبراهيم إلى جمال الدين شيحة . وناوله كتاب أخت معروف وقال له : ماذا فعلت بها ؟ لقد وجدتها أطوع لك من بنانك ، وتحبك فوق محبتها لأخيها . وتود لك كل خير ونعمة . وما أظنك إلا أنك مكرت بها . واحتلت عليها . حتى ملكت عليها عقلها ونفسها ، فقال جمال الدين يا إبراهيم . من أطاع الله أطاعه كل شىء ، ومن خاف الله خوف الله منه كل شىء . فقال إبراهيم : وأين بشرى الصلح ؟ فهاتها وإلا أخبرتها أنك ماكر . وأنك ضحكت عليها وأغويتها بحيلك ومكائدك ، فناوله جمال الدين عقداً من الجوهر قيمته ألف دينار . فأخذه وقال : زادك الله نعمة ، وقبولا ورفعة .

وبعد ساعة من قدوم إبراهيم كانت أخت معروف قادمة فى أكابر

قومها ، فخافها أولاد إسماعيل لأنهم ظنوا أنها قدمت خائنة غادرة ، وتلقوها على الرغم من خوفهم بالإكرام والحفاوة ، وكان إبراهيم واقفاً أمام خيمة جمال الدين ، فلما رآها مقبلة قال : الأدب يا أخت معروف ، فأنت أمام سلطان القلاع جمال الدين شيحة ، فابتسمت فى وجهه ، وترجلت ، ثم سارت حتى كانت أمام جمال الدين ، فقبلت الأرض بين يديه ، وأذعنت له بالطاعة ، وقالت : أنت من أولياء الله وأحبائه ، وقد سعد من والاك ، وخاب من عاداك . فاكتب اسمك على عينى ، وحصنى ، وعلى ما شئت من قلعتى ، غير مبال بأحد . فأنت الملك المطاع ، فأجلسها جمال الدين وأكرمها وقال : أنا خادمك . وخادم أخيك معروف ، وأنت السيدة الملكة . ففرحت بهذا القول . وأخلصت فى الوفاء له ، وأضافته فى قلعتها ، وفعل بالقلعة ما يفعله بغيرها . وبعد عشرة أيام من مقامه قالت له : إن العاصى سلطان بنى الأدرع . وهو مؤمن بالله ورسوله ، وإن الأخصب والأشنب وهما يعبدان الأصنام من دون الله — إن هؤلاء الملوك — عاصوك . فإن أردت قتالهم سرت أنا معك ، وجاهدت فى سبيل نصرك عليهم ، حتى يدينوا لك بالطاعة . وبودى أن أصحبك لأحارب معك فى أى مكان . فقال : جزاك الله عنى كل خير ، ووقاك الشر والضير ، وما لهذا الأمر أحد غيرى . فأنا الذى أديره وأصرفه ، فاختمى لى هذا الكتاب لأسير به أنا إلى العاصى ملك بنى الأدرع . فقالت : إنى أخاف عليك من العاصى ورجاله ، فقال :

اعتمادنا على الله الواحد القهار ، فختمت الكتاب ، وتركت له القرطاس يكتب فيه ما يشاء ، ثم أخذه ورحل وحده إلى قلعة بنى الأدرع ودخل على ملكها العاصى فى هيئته تابع من الأتباع ، فقال له الملك : من أين وإلى أين يا هذا ؟ فقال : من حصن صهيول ، ورسول أخت معروف إليك ، وناوله الكتاب ، فقرأ ما فيه فوجده :

من أخت معروف إلى الملك العاصى ، اعلم أنه بلغنا أن رجلا بدويًّا من غزة ، قد ملك القلاع وأطاعه رجالها ، وبعد قليل سيأتى إلى قلعتنا ، فإذا قرأت كتابى هذا فأقبل إلينا وحدك مع حامل كتابى هذا إليك ، حتى إذا أقبل ذلك الرجل خرجت إليه وقتلته ومزقت جمعه وجعلتك وكيلا على جميع القلاع إلى أن يحضر أخى معروف ، واكتم هذا عن غيرك ، ولا تطلع عليه أحداً ، إلى أن يتم لنا ما أردنا والسلام .

فرح العاصى وناول الرسول ديناراً ، وقال : إذا تم ما أردنا فلك عندى مكافأة عظيمة ، ثم أمر فأحضر إليه جواده فركبه وقال لرجاله : لا يتبعنى منكم أحد ، فإنى أريد أن أسير مع هذا التابع لأقضى حاجة فى نفسى ، فقالوا : سمعاً وطاعة .

ثم التفت إلى التابع وسأله عن اسمه ، فقال : وما تصنع باسمى ؟ فقال : لأناديك باسمك عند الحاجة ، فقال : اسمى داهية الوقت : فقال : لا أراك الله خيراً ، وما اسم أبيك ؟ فقال : شر الزمان ، فقال : خيب الله اسمك واسم أبيك ، وما اسم أمك ؟ فقال : داهية الغفلة ،

ن

فقال العاصى : لا شأن لى بهذه الأسماء ، وسأقول لك : تعال يا تابع ، اذهب يا تابع ، اسمع يا تابع . . . ولكنك لا جواد لك ، فقال : لا أمشى إلا راجلا ، فقال : ولكنك لا تستطيع أن تسير فى سرعة جوادى ، فقال : سر أنت كما شئت ، وفى أى وقت تنادينى تجدنى قدامك ، فعجب العاصى لهذا القول ، وسار حتى كان على رأس الوادى ، ثم صاح : يا تابع ، فأجابه : أنا قدامك ، فزاد عجبه وقال : هل أنت عفريت من الجن ؟ ولما أمسى الليل نزل فى مغارة بالجبل ، ودخلها ليستريح فيها ، وترك جواده مع التابع أمام باب المغارة ، إلى أن يطلع النهار .

وطلع النهار وإذا الأخصب والأشنب قد أقبلا فى جيشين عدتهما عشرون ألفاً . ونزلوا فى ذلك المكان . فلما رآهم العاصى قال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، والله ما كان السفر فى هذه المرة إلا لأمر كتب علينا ، وما أشأمه من سفر ! !

فقال التابع : ماذا أغضبك وهمك ؟ فقال : إن هؤلاء الذين نزلوا قدامنا من أشد أعدائى ، وقد عجزت عن إخضاعهم ، وأكبر الظن أنهم ما جاءوا ونزلوا فى هذا المكان إلا من أجلى ، وهم يريدون قتلى ، فقال التابع : يفعل الله ما يشاء ، وربما نجاك من أيديهم ، وأود أن تعرفنى بهم وما بينك وبينهم ، فقال:إنهم قوم يعبدون الأصنام والحيوان من دون الله . ولما ولانى معروف سلطاناً على أولاد الأدرع فرضت عليهم الخراج والجزية كل عام ، فأطاعنى جميعهم إلا هؤلاء فإنهم عصونى ، وتحصنوا فى

قلاعهم ، وقالوا : لا نطيع رجلا على غير ديننا ، فحاربتهم مرتين فما نلت منهم نيلا . وإن ظفروا بأحد من رجالى قتلوه . وها هم أولاء قد نزلوا قدامى ولا أدرى ما هم فاعلون بى ، وقد لا يبرحون مكانهم هذا إلا بعد أن يقتلونى.

كان الأخصب والأشنب فى قلاعهما ، وقد جعلوا لهم جواسيس فى حصن صهيول تأتيهم بأخبار معروف بن حجر ، لأنهم يخافونه ، ولا يخشون إلا بأسه وبطشه ، فجاءهم الجواسيس بما فعله جمال الدين شيحة بالقلاع ، وأنه استولى عليها ، وعلى حصن صهيول ، وأنه سار إلى العاصى سلطان بنى الأدرع ، فاتفقوا على أن يجمعوا جموعهم ، وينزلوا فى وسط الطريق بين قلعة العاصى وحصن صهيول ، ليقتلوا العاصى وجمال الدين وهما راجعان إلى حصن صهيول ، ثم ينقضوا على قلعة صهيول فيقتلوا أخت معروف وأولاد إسماعيل ، فخرجوا فى عشرين ألفاً ، وساروا حتى نزلوا فى هذا المكان يبغون الراحة .

وقال التابع للعاصى : هل معك شىء من الطعام نأكله ؟ فقال : نعم ، فقال : هاته لنأكله . وسنختبئ فى هذه المغارة ، وإذا جاء الليل ، سددت بابها بالحجارة ، فناوله بعض أقراص كانت معه ، فجعل التابع يأكل ، وكان هادئ البال مطمئناً ، لم يظهر عليه فزع ولا جزع .

أما العاصى فإنه لم يستطع أن يطعم شيئاً من شدة خوفه ، فقال التابع : لم لا تأكل ؟ كل هذا القرص لتمسك به رمقك ، ونرجو من الله أن يزيل عنا هذا البلاء ، فلما أكل العاصى القرص أغمى عليه ،

واستلقى على قفاه كأنه من الأموات ، فنهض جمال الدين ، وأدخل الجواد المغارة وأغلق بابها بالحجارة ، ولبث وحده فى البرية ، حتى جاء الليل ، ونام الأخصب والأشنب ورجالهم ، وتسلل إلى خيمة الأخصب فألفاه غارقاً فى نومه ، فوضع منديلا ملوثاً بالبنج على فمه ، ثم حمله وانفلت به إلى مغارة ، فأوثق كتافه . وعلقه من رجليه فى سقفها ، ثم أعطاه شيئاً أيقظه ، فلما أفاق دعا آلهته وقال : أين أنا الآن . فقال له : أنت أمام جمال الدين شيحة ، فقال : وماذا تريد أن تفعله بى ؟ فقال : أريد أن تسلم وتدخل فى طاعتى وإلا قتلتك وسلخت جلدك ، فقال : افعل ما شئت فما أنا بمسلم أبداً ، ولا بداخل فى طاعتك ، وإن الموت أحب إلىّ منهما ، فقتله وسلخ جلده ، ثم حشاه وجعل له عيوناً من زجاج وحمله ووضعه فى فراشه من خيمته ، وفعل بالأشنب ما فعله بالأخصب ، وقتل الحرس ، ثم كتب رسالة على لسان العاصى وختمها بخاتمه ، وتركها عند رأسيهما ، وذهب إلى العاصى فى مغارته ، ونام بجانبه إلى الصباح . وكان قد خفف عنه حدة البنج قبل نومه ، فلما استيقظ العاصى فى الصباح أيقظ جمال الدين وقال له : سر بنا أيها التابع قبل أن يستيقظ القوم من نومهم ، فقال له : لا تخف من أحد ، وقم إلى جوادك فاركب ، وتقلد حسامك ، وحاربهم إن جاءوك ، وإن وجدتهم قد تكاثروا عليك فانج بنفسك ، واتركنى لهم ، فقام إلى جواده وركبه ، وتقلد حسامه ، وما وصل إلى باب المغارة حتى وجد الرجال مقبلين عليه وهم يصيحون : الأمان ،

الأمان ، فما لنا ذنب ولا جريرة ، ولكن الذنب ذنب هؤلاء الملوك الكلاب الذين نزل بهم بلاؤك ، وقد أتيناك طائعين ، خاضعين لأمرك فافعل ما بدا لك .

فعجب العاصى وقال : إن أردتم العفو عنكم ، فأطيعوا أمرى ، واخضعوا لمن أوليه أمركم ، وأعطونى الخراج كل عام ، فقالوا : نحن عبيدك ، فاحكم فينا بما شئت ، فقد رضيناك ملكاً علينا ، فقالوا : وأريد منكم أن تتركوا عبادة الأوثان والحيوان ، وتدخلوا فى دين الإسلام ، فأسلموا جميعهم ، وولى عليهم أحدهم ، وأمرهم أن يرجعوا إلى قلاعهم ، فصدعوا بأمره ، وكان عجب العاصى من أمرهم هذا عظيماً ، ولا يدرى لذلك سبباً ، ولا يعرف شيئاً مما فعله جمال الدين بهم .

كان هؤلاء القوم قد استيقظوا من نومهم ، فرأوا ما حل بالملوك والحرس ، ووجدوا الرسالة التى تركها جمال الدين عند رأسى الملكين ، وكان فيها :

من العاصى ملك بنى الأدرع إلى أصحاب الأخصب والأشنب ، اعلموا أنى فعلت بساداتكم وحرسكم ما فعلت ، وتركت لكم هذه الرسالة ، فإن لم تأتونى فى مغارتى التى هى فى الجبل أمامكم ، وإن لم تطيعونى أفنيتكم ، وما تركت منكم أحداً ، والسلام .

فلما قرأ القوم الرسالة ، خفوا إلى المغارة طائعين ، وكان منهم ما كان من إسلامهم وطاعتهم ورجوعهم إلى قلاعهم سالمين .

التفت العاصى إلى التابع وقال : إن صحبتك ميمونة ، وكلها خير وبركة ، وسوف ترى ما ينالك منى من الإحسان والإكرام ، ثم سارا فى طريقهما إلى حصن صهيول . ولما اشتد الحر عليهما أويا إلى مغارة فى طريقهما ، حتى يهدأ الجو ، وتذهب قسوة الحر ، ولما غرق العاصى فى نومه وضع جمال الدين البنج فى فمه ، ثم أحكم رباطه ، وأخرج البنج من فمه ، وأعطاه شيئاً أبطله ، ولما أفاق وجد نفسه موثقاً ، وهو لا يستطيع حراكاً ، فقال : أين أنا الآن ؟ ألست التابع الذى صحبنى ؟ فقال : افتح عينك ، وانظر إلى من أنت أمامه . أنا جمال الدين شيحة ، ملك القلاع والحصون ، وقد فعلت كذا وكذا ، وقص عليه جميع ما فعله ، إلى أن أوثقه وكتفه ، ثم قال : وما تقول بعد ذلك فى طاعتى ؟ فقال : ما أنا بأحسن من هؤلاء الرجال الذين أطاعوك ، وما أنا بأشد من أخت معروف التى دانت لك بالطاعة والولاء ، فأنا عبدك وخادمك ، وعهد الله بينى وبينك أن أكون لك طائعاً ، وخادماً وفياً ، فأطلقه من وثاقه ، وصارا أخوين متحابين ، ومضيا فى طريقهما حتى دخلا حصن صهيول ، فتلقاهما الرجال وأخت معروف بالحفاوة والإكرام ، وقص العاصى على أخت معروف ما جرى ، ففرحت وجعلتهما فى ضيافتها ثلاثة أيام ، ثم رجع العاصى إلى قلعته ، ومعه جمال الدين ، ففعل بها ما فعله فى سائر القلاع ، ثم عول جمال الدين على أن يرجع إلى مقره من قلعته ، ويأخذ رجاله وعشيرته ويعود إلى الملك العادل بيبرس .

٤

وبينما كان بيبرس فى ديوانه . جاءه رسول من حلب . وناوله كتاباً فقرأه ووجد فيه : من عماد الدين النجيبي إلى أمير المؤمنين . غزانا فى عقر دارنا كرفوس ،ومعه أربع حملات، كل حملة اثنان وثمانون ألفاً. وقد حاربهم أبى حتى لحق بربه،ومات شهيداً.وقد أغلقت أبواب المدينة وحبسنا فيها أنفسنا . والكفار من حولنا لا يريمون ، فأدركنا قبل أن تذهب ريحنا ، وتقع البلاد فى أيدى أعدائنا ، والسلام .

فقال بيبرس لوزيره : ليس لهذا الأمر أحد غيرى . وأجلس السعيد ابنه على تخت مصر ، وسار بجنوده إلى حلب . ونزل بهم فى جانب من جيوش الصليبيين وبعد أن استراحوا يومين أمر أن تدق الطبول إيذاناً ببدء القتال ، ونزل أيدمر البهلوان ، مفتاح حرب الإسلام إلى ميدان القتال ، فصال وجال ، ونادى : يا جوان . ما فى الميدان إلا أيدمر البهلوان ، فجعل جوان يرسل إليه بطريقاً يناجزه فى إثر بطريق ، وأيدمر يقتل كل من برز إليه حتى قتل منهم خمسة وعشرين ، وملأ الفزع صدور الأعداء فأعرضوا عن المبارزة وكفوا عن القتال ، ورجع أيدمر إلى بيبرس فائزاً مشكوراً .

كان جوان السبب فى هذه الحرب ، وذلك أنه لما ضربه جمال الدين

شيحة ، وأخلى سبيله ، سار هو وسيف الروم إلى أنطاكية . وجلس إلى ملكها الفرتماكوس يبكى ، فسأله عما أبكاه فقال : أبكى على ملة النصارى وما أصابها من الهوان ، وقد جاءنى السيد المسيح فى منامى الليلة الماضية وقال : اذهب إلى الفرتماكوس ملك أنطاكية ، ومره أن يسير بجنوده إلى حلب ، ويقاتل المسلمين فيها ، وسأجزيه على فعله هذا بجزيل الثواب ، وقد جئتك وأعلمتك ما رأيت ، وبلغتك ما أمرنى المسيح تبليغه ، فقال الفرتماكوس : اعلم يا جوان أنه لا طاقة لى بقتال المسلمين ، فما تركوا ملكاً ولا أميراً خرج عليهم إلا قتلوه أو أذلوه ، فإن أردت المقام عندنا فأقم فى أدب وسلام ، ولا تشعل نار الفتنة بيننا وبين المسلمين ، وإن أبيت إلا الفتنة والفساد فارحل من مدينتنا ، واعلم أنى لن أطيع لك أمرًا ، أو أسمع لك مشورة ورأيًا ، فسكت جوان على مضض ، ثم وجد بطريقاً أمامه يشبه الملك ، فسأله عنه فقال : إنه ابنى ، فقال : أبقاه الله وأيده ، وقرت عيناك به ، وما اسمه ؟ فقال : اسمه كرفوس ، فقال جوان : كرفوس محروس ، فماذا وهبت منه للسيد المسيح ؟ فقال وهبت له نصفه ، فقال جوان : هات الحسام لأشقه نصفين ، فآخذ نصف السيد المسيح ، وأترك لك نصفه الآخر ، فقال أبوه : لا تفعل ، فقد وهبته جميعه للسيد المسيح ، فقال جوان : الآن لا صلة لك به ، فهو للسيد المسيح ، ثم قال : يا ولدى كرفوس ، خذ معك من رجال أبيك أربع حملات ، وجاهد بهم فى سبيل المسيح فأنت الآن عبده ، وجند من جنوده ، فأجابه إلى

ما طلب ، وسار بحملاته إلى حلب .

واستمرت المبارزة على هذه الحال عشرة أيام ، فالتفت كرفوس إلى جوان وقال : لقد هلك الرجال ، وطالت الأيام وما رأينا بصيصاً من الأمل فى الانتصار على المسلمين فماذا ترى ؟ فقال جوان : هذا أمر ليس له أحد غيرك ، فإذا كان الغد فابرز إليهم ولا تخف أحداً منهم ، فقال كرفوس : إذا كان الأمر كما تقول : فبخرنى قبل أن أنزل إلى الميدان. فقال سيف الروم : إن البخور شؤم ، وعاقبته وخيمة ، فقال جوان : اسكت يا سيف الروم ، ولا تدخل فيما لا يعنيك ، فقال : إن أنت بخرته فارتقب هلاكه ، فأعرض جوان عن قول صاحبه ، وقام إلى كرفوس فبخره ، وتلا عليه شيئاً مما يحفظه ، ثم نزل كرفوس إلى الميدان ، وبرز إليه الأمير الجاولى ، وجعل يحاوره ويضايقه حتى طعنه ، ففاضت روحه وفارق دنياه ، فأمر جوان البطارقة أن يحملوا على الجاولى جميعهم حملة رجل واحد ، فهبوا مسرعين ، وأسرع إليهم الأمراء من المسلمين ، ونشبت بين الفريقين معركة حامية ، طاحت فيها الرءوس ، وضاعت النفوس ، وسالت الدماء وتناثرت الأشلاء ، ولما لبست الشمس حلتها الصفراء كان الكفار قد يئسوا من النصر يأسهم من أصحاب القبور ، فصاحوا : الأمان الأمان يا رجال الإسلام ، فقال بيبرس : لا أمان حتى تسلموا وتعبدوا الله ، فمنهم من أسلم ، ومنهم من فر هارباً ، وبحثوا عن جوان وسيف الروم فلم يجدوهما ، وذلك أنهما هربا إلى أنطاكية ، بعد أن قتل ابن الفرتما كوس ،

وجمع المسلمون الغنائم وقسموها بين المحاربين و بيت المال .

ثم جعل الملك عماد الدين النجيبي خلفاً لأبيه ، ووصاه بالعدل بين الناس والرأفة بهم ، ثم هم أن يرحل بجنوده إلى مصر ، ولكن كتاباً جاءه من جمال الدين شيحة يقول : اعلم أن الملعون جوان هرب إلى أنطاكيه هو وصاحبه سيف الروم ، وأخبر ملكها أن ابنه مات فى حلب ، وأغراه بالقتال ليأخذ بثأر ابنه من المسلمين . فأطاعه وهو يعد العدة ويجمع الجنود لغزو بلاد المسلمين . فالحزم أن تبدأه قبل أن يبدأنا . وأنا فى المدينة أرى أعمالهم وأعرف أخبارهم ، فإذا قرأت كتابى هذا فتعال إلى أنطاكية ومعك جنودك ، وأرسل إلى أولاد إسماعيل ليكونوا معنا فى هذه الغزوة ، والله معنا ، والله تعالى هو الناصر والمعين .

وكان جمال الدين قد قدم إلى المدينة حين وصول جوان إليها ، فقال فى نفسه : ما جاء هذا الملعون إلا ليكيد للمسلمين ، فلأرقبه ولأعرف ما يفعله حتى أخبر الملك بيبرس ليأخذ حذره ، ويبطل كيده ، وكان ما كان من حضه الفرتماكوس على قتال المسلمين ، ودعوته بيبرس إلى غزو أنطاكية .

رحل بيبرس إلى أنطاكية ، ونزل بجنوده على أبعد من مرمى مدافعها ، وحاصروها ثلاثة أيام ، ثم أمر أن تدق طبول إعلان القتال ، فانفتحت أبواب المدينة وخرج منها بطريق يقطع الحديد بيديه تقطيعاً ، وجال فى الميدان منادياً من يناجزه ، فبرز إليه أيدمر البهلوان ، وقاتله حتى منتصف

النهار . وقد وجده شديداً قوياً . وخاف أن يقهره ويقتله ، فدعا الله أن ينصره ، وينجيه من شره ، فاستجاب الله دعاءه ، وملأ صدر أيدمر ثقة وعزماً ، فانقض عليه ، وأمسك درعه بيده ، ونزعه من سرجه ، ورفع به يديه حتى بان إبطه ، ثم ضرب به الأرض ضربة كادت تكون القاضية ، ثم أعجله بضربة من سيفه ، فقضى نحبه ، وذهب إلى جهنم وبئس القرار . فأسرع إلى الميدان أخو القتيل ، فلقيه أيدمر وألحقه بأخيه ، وجعل يقتل من جاءه من الكفار حتى قتل خمسة ، ثم دقت طبول الانفصال فرجع أيدمر إلى بيبرس فرحاً مسروراً .

وكان الفرتماكوس قد اشتد غيظه ، فقال لجوان : ماذا تقول يا عالم الملة بعد هذه الهزائم المنكرة التي صبت علينا بآرائك وتحريضك ؟ فقال : اصبر ولا تجزع ، وسأدبر لك مكيدة تغيظ بها المسلمين ، ثم نظر فيمن حوله فاختار من بينهم رجلا ، وقال له : ما اسمك ؟ فقال:اسمي العايق ، فقال : إنك تشبه رجلا من أولاد إسماعيل اسمه جميل ، وقد قتلته ، وحفظت ملابسه وسيفه عندي ، لاستخدامها عند الحاجة ، فأطعني ولا تخالفني ، فقال : سمعاً وطاعة .

وكان جميل هذا قد خرج باحثاً عن معروف ، فلما أدركه الليل وهو في القفار عمد إلى غار فنام فيه ، واتفق أن دخل جوان هذا الغار في مرة من مرات هروبه ، فقتله ، وأخذ ملابسه وسلاحه ، وتركه في الغار وحده ، وكان موسى بن حسن القصاص والمقدم إبراهيم الحوراني قد خرجا

إلى هذه القفار للإغارة والكسب، فمرا بذلك الغار ودخلاه، فوجدا جميلا فيه قتيلا، فكفناه فى بعض من ملابسهما ودفناه فى الغار، وتواصيا أن يكتما هذا النبأ إلى أن يأذن الله له بالظهور، ويسخر له من ينشره بين الناس ويذيعه.

كان هذا البطريق كثير الشبه بجميل فى طوله وقده . وشكله ودله ، فقال جوان له : اركب هذا الجواد وامض به إلى الخلاء وأقم فيه ثلاثة أيام ثم أقبل، بجوادك إلى جيش المسلمين وابرز إلى الميدان بين يدى الملك بيبرس ، واقتل واحداً أو اثنين من جنودنا ، فإذا رآك بيبرس على هذه الحال السارة سألك عن اسمك ، فقل له : أنا جميل بن عبد الرحمن صاحب قلعة رأس الوديان ، فإذا قال لك : اطلب منحة أمنحك إياها ، فقل له : لا أريد إلا منصب إبراهيم بن حسن الحورانى ، فإن شغلت منصبه ، وعرف إبراهيم أنك منا ، وعرف بيبرس بك ، فأنكر قوله وكذبه ، ثم اجتهد واسرق بيبرس وائتنى به ، وقد منحتك عشرين سنة فى عمرك ، وخمسين فداناً فى الجنة وشكر المسيح وثناءه .

وكان بيبرس قد أرسل إلى أولاد إسماعيل كتاباً يدعوهم فيه إلى أنطاكية للجهاد معه فى سبيل الله وإعلاء كلمة الإسلام وتأييده ، فلبوا دعوته وساروا إليه .

وفى اليوم الرابع من خروج العايق إلى القفار أمر جوان أن تدق الطبول إيذاناً ببدء القتال ، فهب المسلمون وهم بيبرس أن يخرج إلى

الميدان بطلا من أبطاله ، ولكن غباراً فى الخلاء تصاعد فى السماء فانتظروا ليتبينوا أمره، وما لبث أن انجلى عن فارس يصيح قائلا : إليكم يا أهل الشرك والنفاق ، إليكم يا أهل الكفر والشقاق ، وانفلت إلى الميدان ، وجعل يقتل كل من بارزه من المشركين حتى قتل عشرين ، ثم دقت طبول الهدنة والافتراق ، فرجع الفارس إلى جيش المسلمين منادياً : يا ملك الإسلام ، أيدك الله ونصرك ، وخذل أهل الشرك أعداءك وأعداء الإسلام ، فابتهج بيبرس ، وقال : أهلا وسهلا بسيف الإسلام ، من أنت أيها البطل الهمام ؟ فقال : من أولاد إسماعيل ، واسمى جميل بن عبد الرحمن ، صاحب قلعة رأس الوديان ، خرجت باحثاً عن معروف ، فما وجدته فى الدنيا معروفاً ، وبينما أنا راجع إلى موطنى وجدتكم تحاربون هؤلاء الكفار ، فأحببت أن أجاهد فى سبيل الله ، عسى أن أكتب من الشهداء ، ونزلت إلى الميدان ، وفعلت ما رأيتموه فى هذا اليوم السعيد. فقال بيبرس : وجب علينا أن نجزيك خيرًا، فاطلب منى أمنية تكون أحب الأشياء إلى نفسك ، فطلب منه مناصب إبراهيم الحورانى ، فمنحه إياها ، وجعل يحرس بيبرس فى الليل إذا نام ،ويحارب معه فى النهار ، ودأب على هذه الحال عشرة أيام ، ثم قال له بيبرس : لقد حملت من الأعمال ما لا تحمله الرجال ، فاختر لنفسك أحد أمرين : إما أن تحارب معنا فى النهار ، وإما أن تحرسنا فى الليل ، فقال : وددت لو أتلفت مهجتى فى خدمتك فقال : لا بد من اختيار أحد الأمرين ، فقال

جميل : اخترت أن أحرسك بالليل ، وأحارب معكم ، إذا ثقلت وطأة الحرب عليكم ، وضاق صدر الإسلام بأعدائه ، فقال له : لك ذلك ، وكان يحرس بيبرس ليلا ، ويذهب إلى الخلاء نهاراً ، وأفهم الملك أن من عادته ألا ينام إلا فى الخلاء ، حيث يأوى إلى المغارات .

وذات يوم ذهب إلى جوان ، فلما رآه سلم عليه وقال له : لقد أبطأت وتأخرت فقال له : يا عالم الملة ، لقد فعلت كيت وكيت ، ففرح جوان وقال له : اذهب إلى شأنك ، وأتمم يا ولدى خطتك ، فإنى داع لك ، فتركه وانطلق إلى الخلاء ، ولما جاء الليل رجع إلى المسلمين وقام بحراسة الملك حسب عادته ، وفى النهار ذهب إلى جوان وقال : لقد عتبت على أنى قتلت كثيراً من رجالنا ، والآن قد تركت الحرب ، ولكنى لا أجد أحداً من جنودنا يرجع من الميدان سالماً ، فقال جوان : لا يخرج أحد منا إلى ميدان القتال إلا سقاه المسلمون كأس الحمام ، فقال البطريق : إذا كان الأمر كما تقول فإنكم هالكون لا محالة ، وأرى أن أحارب المسلمين بالنهار وأحرس ملكهم بالليل ، حتى تحين الفرصة ، وأتمكن من سرقته ، فقال : جزاك المسيح خيراً ، ثم نهض العايق ولبس ملابس البطارقة ، وجال فى الميدان منادياً من يبارزه من المسلمين ، وكان العايق شديد الوطأة منيع الجانب ، عزيز المنال . فأسر فى هذا النهار كثيراً من المسلمين ، ولما غابت شمسه لبس ملابس جميل وانطلق إلى جيش المسلمين ليقوم بحراسة بيبرس ، فلما رآه الملك قال له :

أما عرفت ما جرى علينا ذلك اليوم ؟ لقد نزل إلى الميدان بطريق جبار عنيد ، فأسر كثيراً منا ، فقال : أيها الملك ، الحرب سجال ، يوم لك ويوم عليك ، ولكنك أنت الغالب بعون الله وفضله ، وما زال يحدثه حتى هدأت نفسه ، واطمأن قلبه إلى قضاء ربه ، وقام بحراسته حتى طلع النهار ، وأقبل أولاد إسماعيل حينئذ . فرأى إبراهيم الحورانى البطريق واقفاً يحرس خيمة الملك فعرفه وقال قبل أن ينزل عن جواده : ابعد أيها الملعون عن خيمة الأشراف الأطهار . فقيل له : من تعنى بقولك هذا ؟ فقال : هذا الذى عن يمين الملك ، فقيل : هذا ابن عمنا جميل بن عبد الرحمن ، وكلنا نعرفه ، فتبسم إبراهيم وموسى وما نطق أحد منهما بكلمة ، ثم قال إبراهيم : أهذا ابن عمكم ؟ فقالوا : لا ريب فى ذلك ، وأقبل البطريق عليهم وسلم ، وهنوه بسلامته ، وعودته من غيبته الطويلة ، وجلس إبراهيم ساكتاً متألماً ، فقال له الملك : يا إبراهيم : إن جميلا هذا طلب منى أن أمنحه مناصبك فمنحته إياها ، فهو حارسى والمشرف على طعامى والمغيث المدافع إذا ثقلت الحرب واشتد الكرب ، وأفضى إليه بقصته ، فقال إبراهيم : يا أمير المؤمنين ، ورب الكعبة إن هذا الرجل كافر . وما هو بجميل بن عبد الرحمن ، وما وجل قلبه بذكر الله ، وما أضاء له قلب بنور الإيمان ، وإذا كان هذا جميل بن عبد الرحمن فعاقبونى بما تشاءون ، فقال الملك : إنه أقر لله بالوحدانية ، ولمحمد بالرسالة وهؤلاء القوم يعرفونه . ولا ينكرونه فقال إبراهيم : إن جميلا مات بمكان

كذا ، وقد دفنته أنا وموسى ، فقال أولاد إسماعيل : ما سمعنا بهذا أبدًا ، وما هو إلا جميل بن عبد الرحمن ، فقال إبراهيم للملك : اعطنى حجة بخطك وخاتمك ، تقر فيها أنى نصحت لك ، فأعرضت عن نصحى ، وكذبتنى ، فأعطاه الملك ما طلب منه ، ثم قال : لا يجتمع الضدان فى شىء واحد ، وأريد أن أرجع إلى قلعة حوران ، فإن طلبتنى فأنا طوع يمينك ، وإن استغنيت عنى فإنى هناك مقيم ، فقال الملك : الرأى لك ، فاختر لنفسك ما أردت ، وهم إبراهيم بالرحيل ، ولكن الوزير جاءه وقال له : أقم فى خيمتى ، حتى يذهب عن الملك ضلاله ، وتنكشف له الحقيقة ، ولا ينبغى أن تتركنا وأنت تعلم أن الملك مخدوع ،ولا يقع الشر إلا عليه ، فقال إبراهيم : على شرط ألا يعلم أحد أنى مقيم عندك ، فقال : لك ذلك .

ذهب العايق الخائن إلى الخلاء كعادته ، وانفلت إلى جوان فلبس ملابس البطارقة ونزل الميدان فأسر من المسلمين عشرة ، ثم لبس ملابس جميل ورجع إلى حراسة الملك ليلا ، ولما غرق بيبرس فى نومه وضع البطريق على وجهه منديلا ملوثاً بالبنج ، فغرق فى إغماء عميق ،ثم وضعه فى حتمية وحمله ، وانسل به إلى الخلاء ومضى قاصداً جوان فى أنطاكية ، وكان موسى بن حسن القصاص يمشى بجواده من حول المسلمين ، ليأمن عليهم وهم نائمون ، فرأى رجلا يمشى فى الخلاء وحده فنادى : من السارى فى ذلك الظلام ؟ فلم يجبه ، فضربه « بقصاديته » فقطعت ذراعه

وصاح متوجعاً ، وألقى الحقيبة التى كان يحملها وجرى مسرعاً إلى جوان وهو يبكى ويتوجع ، ويقول : أدركنى ، أدركنى ، فقد قطعت ذراعى ، فهدأ جوان من روعه ، وكوى مكان القطع من يده بالزيت المغلى ، ولما خف ألمه سأله جوان عما جرى ، فحكى له كيف سرق بيبرس ، وكيف قطعت ذراعه ، وكيف ترك بيبرس فى حقيبته ، فقال : لا تحزن ، فما فعلت ذلك إلا حبًّا فى المسيح ، وسأدعوه لك ليعيد إليك صحتك وسلامتك .

أما موسى فإنه أسرع إلى ما سقط منه فوجده حقيبة ، وظن أنها مملوءة مالا ، ففتحها ومد يده فيها فوجده الملك بيبرس ، وهو مغشى عليه ، فأعطاه شيئاً كان معه ، فأفاق لساعته ، وتشهد وحمد الله وقال : أين أنا الآن ؟ فقال موسى : أنت عندى يا ملك الإسلام ، ولا خوف عليك ، فقال : ولم فعلت بى ذلك ؟ فقال : ما فعلت بك شيئاً ، ولكنى وجدتك مع رجل سائر فى هذا الخلاء ، وقص عليه قصته ، وقال : وهذه ذراع من سرقك ، وكان يحملك ، فقال بيبرس : ما أنا بمصدق ما تقول : وأنت الذى سرقتنى من أجل استغنائى عن إبراهيم الحورانى ، فقال موسى : مادمت مصرًّا على رأيك ، فلنسر إلى جيش المسلمين ، فإن وجدنا جميلا هناك كنت أنا السارق ، وإن لم نجده هناك كان هو الذى رميته « بقصاديّى » ، فقال بيبرس : ذلك حق ، وقد رضيت به ثم سار الملك وموسى إلى قبة بيبرس فما وجدا هناك جميلا ، فقال بيبرس :

ستجده بعد قليل حاضراً .

وجاءهما إذ ذاك جمال الدين شيحة ، فنهض الملك إليه ، وسلم عليه سلام الشوق والمحبة ، وأجلسه إلى جانبه ، ثم شكا إليه ما فعله موسى حسب ظنه ، فقال جمال الدين : إن جميل بن عبد الرحمن قد مات ، ومضى على موته سنوات ، وما سرقك إلا بطريق أرسله إليك جوان وصاحبه، وحكى له قصة غدره وخيانته،التى حاكها ودبرها جوان وأنا عندهم أستمع لتدبيرهم وكيدهم ، وأريد منك الآن عشرين من رجالك لأمضى بهم إلى تنفيذ ما دبرت ، وإذا طلع النهار فاهجم برجالك على المدينة ، فقد فتحت لك أبوابها ، وأبطلت مدافعها ، وذبحت الحرس ، دون أن يشعر الكفار بذلك . لأنهم فى سكرتهم غارقون ، فقال الملك : خاب والله من كذب إبراهيم الحورانى، فما قال إلا الحق، وما كان لى أن أكذبه ، وأين أجده الآن ؟ فقال جمال الدين : إنه عند الوزير شاهين ، فأمر الملك بإحضاره ، فلما حضر شكر له الملك وأثنى عليه ، واعتذر له ، وقال : خاب والله من كذبك يا إبراهيم ، فقال : وماذا أصنع بقولك هذا ؟ فقال الملك : لك عندى عشرة آلاف دينار . ولك نصيبك من الغنائم ، ثم أخذ جمال الدين الرجال ومضى .

وأمر الملك جنده أن يستعدوا لغزو المدينة . وفى مطلع الفجر دخلوا المدينة صائحين : الله أكبر . فتح ونصر . وخذل من كفر . واستيقظ أهلها والسيوف تلعب بأعناقهم . وقد ذهل كل أخ عن أخيه . وكل

صديق عن صديقه ، وجرت الدماء ، ولا يسمعون إلا صليل السيوف وأنين الجرحى ، وأصوات الاستغاثة ، ودامت الحال على أشدها ثلاثة أيام ، حتى قضى المسلمون على الكفار ، وجمعوا المغانم ، وجلس بيبرس على عرش المدينة ، وركن رجاله إلى الراحة من هذا الجهاد العنيف ، وقال الملك لبعض رجاله : اذهبوا إلى دير الملك ، وائتونى بجمال الدين شيحة ، فإنه هناك ، وقد جلس فيه جوان وسيف الروم والعايق وملك أنطاكية ، فأسرعوا إلى ذلك الدير ، وهناك وجدوا جمال الدين مكتفاً مقيداً ، وقد سال دمه من قسوة ضربه ، فحلوا وثاقه وقيوده ، ورجعوا به إلى الملك ، فلما رآه على تلك الحال كبر عنده أن يهان وبدا على وجهه الألم والغضب وسأله : ماذا جرى يا جمال الدين ؟ فقال :

أخذت الرجال العشرين : ومضيت بهم إلى الدير ، ووزعتهم على نواحيه الأربع فى داخله ، وأرخيت عليهم الستائر حتى لا يراهم أحد ثم قتلت بطريقهم الذى لزم الدير ولا يبرحه ، وهم يقدسونه ويمجدونه ، ويتبركون بزيارته ، واسمه فلتس ، وتنكرت فى صفته ، فكنت كأننى هو ، ولا يرتاب من رآنى فى أننى البطريق فلتس ، وفى جوف الليل قال ملك أنطاكية لجوان : هيا بنا إلى زيارة البطريق فلتس ليبارك لنا ، ويدعو بالنصر لرجالنا ، فقال جوان : وأى بطريق هذا ؟ فقال : رئيس الدير. فقال جوان : ما أظنه إلا جمال الدين شيحة ، أقام فى الدير على هيئة بطريقكم هذا ، فقال الملك : لا تنكر قولى ، فإنه البطريق فلتس الذى

ربانى ، وربى أبى وجدى من قبلى ، فقال جوان : امض يا سيف الروم ، إلى ذلك البطريق ، واعرف حاله ، واسأله عن نسبه ، فإن كان هو زرناه وإن كان غيره أمسكناه وعذبناه وقتلناه ، فجاءنى سيف الروم وعرفنى وقبل يدى ، وسألنى : هل تعرف نسبك أو أذكره لك ؟ فأجبته : إنى أعرفه فاذهب وائتنى بجوان والملك والعايق ، فذهب ، وبعد قليل جاءنى بهم ومعهم عشرة من أكابر رجالهم ، فقبل الملك وجوان ومن معه يدى ، وجلسوا عندى ، وجعلت أسألهم عن أحوالهم ، ثم قلت : ومن هذا الذى معكم ؟ فقال الملك : إنه عالم الملة جوان . فقلت : ومن جعلك عالم الملة ؟ فقال : أكابر النصارى ، فإنى أحفظ الإنجيل ، وأعرف ما فيه من الحلال والحرام ، فقلت : ولكنى أعرف أن عالم الملة إن نادى الحواريين الطيارين أجابوه وأتوا إليه ، فإن أنت دعوتهم وحضروا كنت عالم الملة ، وإلا فأنت كذاب أشر . وإن أنا دعوتهم وأجابونى كنت صادق الرهبانية ، وإلا كنت من الكاذبين ، فقال سيف الروم : لقد قلت الحق ، فنادى جوان : يا حواريون فما أجابه أحد ، وقال الملك لى : ادعهم أنت يا بطريقنا ، فناديت : يا حواريون ، فأقبل إلىّ الرجال الذين خبأتهم خلف الستائر ، وقالوا : نعم يا راهب الزمان ، ثم أقبلوا إلىّ وحملونى على أكتافهم ، ثم قبضوا على الملك وجوان وسيف الروم وأداروا أكتافهم ، فقلت لهم : سيروا إلى الملك وبلغوه أن يهجم بجنوده على المدينة واتركونى لأعذب هؤلاء الكفار بسوطى هذا ، فمضوا إليك ، وجعلت

أضرب هؤلاء بالسوط ، وكان سيف الروم يقول : ليتنا أطعنا عالم الملة جوان . ولكن أخا الملعون العايق الذى قطع موسى يده ، رمى البنج فى مكانى فما لبثت أن أغمى على ، وأقبل فكتفنى وقيدنى ثم أيقظنى من إغمائى ، وجعل يضربنى بعد أن خلص من يدى الملك وأصحابه ، ثم خاف عاقبة فعله ، فمضى وتركنى ، ولبثت على حالتى هذه حتى فرغت أنت من فتح المدينة ، وأرسلت فى طلبى ، وقد جئتك وحكيت لك ما جرى . فقال الملك : عزيز علينا ما أصابك يا جمال الدين ، فقال : كل شيء بقضاء الله وقدره ، وسأمضى الآن لأبحث عن الملك وجوان والعايق وسيف الروم ، ولا تبرح مكانك هذا حتى أعود إليك أو يأتيك خبرى ، واعلم أنْ فى الدير كثيراً من أسرى المسلمين ، فخلصهم من أسرهم وانتظر حتى أرجع ، ثم سلم عليه وانطلق إلى الخلاء ، أما الملك فإنه خلص الأسرى ، وأمرهم أن ينطلقوا إلى أهليهم ، فمنهم من رحل ، ومنهم من بقى مع الملك للغزو والجهاد .

* * *

وجاء الملك رسول من مدينة سيس وناوله كتاباً فقرأه فوجد فيه : من جمال الدين شيحة إلى ملك المسلمين بيبرس ، اعلم أنى دخلت مدينة سيس ، فوجدت الملعون جوان وأصحابه عند ملكها فرنسيس ، وقد أغراه جوان بالعصيان والتمرد ، فأطاعه وأغلق أبواب المدينة ، ووضع المدافع على أسوارها ، وقطع الطرق ، وأنا الآن مقيم فى خان بالمدينة ، وقد وجدت

فى طريقى رسول إليك وهو العصب بن العرقيل ابن أخت حسن النسرين ابن عجبور ، وجرى لى معه أحوال كثيرة ، وقد أطاعنى على شروط بينى وبينه ، وسأخبرك بكل ذلك عند لقائنا ، فإذا قرأت كتابى هذا فاحضر برجالك إلى مدينة سيس ، والله يفعل ما يريد . فلما قرأ الملك الكتاب سأل العصب : ماذا حصل بينك وبين جمال الدين ؟ وكيف التقيتما ؟ فقال العصب : إن هذا الرجل سعيد ، وما خاب من والاه وآخاه ، فاستمع لما جرى بينى وبينه .

خرجت إلى الفجاج والوديان أنا وخالى حسن النسرين بن عجبور باحثين عن معروف ، وتعبنا فى البحث عنه هنا وهناك ، فما وجدنا له أثراً ، ولا سمعنا عنه خبراً ، فعزمنا على الرجوع ، وكانت أموالنا قد أثقلت ظهورنا ، فقال لى خالى : اسبقنى إلى القلاع واعرف لى خبرها ، حتى نكون على بصيرة من أمرنا إذا قدمنا إليها . فسبقته ودخلت فيها ، ووجدت جمال الدين شيحة قد ملكها ، وأصبح ملكاً عليها ، ودان له أهلها بالولاء [و] الطاعة ، فعولت على الرجوع إلى خالى عاجلا ، لأخبره أن القلاع دالت دولتها ، وحكمها رجال غير رجالها ، وفى منتصف الطريق بين أنطاكية وسيس ثملت على وطأة الهجير ، فأويت إلى غار أقيل فيه حتى تذهب قسوة الحر وشدته ، فوجدت فيه رجلا مغربيًّا أمامه موقد يرسل دخان البخور ، وهو يتلو شيئاً يحفظه ، فقلت : السلام عليك يا هذا ، فقال : وعليك السلام ورحمة الله ، قطعت على تلاوتى ،

وأنسيتنى بسلامك ما كنت أحفظه ، فقلت : وماذا أردت من تلاوتك وبخورك وجلوسك فى هذا المكان فريداً ؟ فقال : إن فيه كنزاً من المال ، وقد أردت إخراجه ، والحصول عليه ، والعودة به إلى بلادى ، فقلت : وهل تود لك شريكاً ومساعداً ؟ فقال : نعم ، تول أنت أمر البخور وأنا أتلو ما أحفظه ، فإذا أخرجنا الكنز فلك ثلثه ، فقلت فى نفسى : أطعه حتى يخرج الكنز ، وحينئذ أستولى عليه ، ولا أعطيه إلا قليلا منه ، ولما شممت رائحة البخور خارت منى القوى ، واستلقيت على الأرض عاجزاً عن الحركة ، فقام الرجل وكتفنى ، فسألته : لم فعلت ذلك . وما قدمت لك إساءة ؟ فقال : لأنك نويت أن تأخذ المال جميعه لنفسك ولا تترك لى منه إلا النزر اليسير ، فقلت : أطلقنى ، وإنى أقسم لك برب الخلق أنى لا أخونك ولا أظلمك فى درهم واحد ، فقال : اعلم أنى أنا ملك القلاع والحصون ، جمال الدين شيحة ، فقلت : وماذا تريده منى ؟ فقال : أن تطيعنى كما أطاعنى رجال القلاع وأهلوها ، فقلت : اعلم أن خالى غائب وما ظهر حتى الآن ، وإن أنت قدرت على الآن فقد لا تقدر على خالى ، فقال : عليك نفسك ، ودعنا من خالك وعمك ، فقلت : إنى لا أطيعك إلا بعد أن تبارينى وتنافسنى فى الألاعيب والحيل ، فإن أنت غلبتنى أطعتك ، وإن أنا غلبتك فلا طاعة لك علىّ ، فقال : رضيت بذلك ، وأطلقنى من وثاقى ، وأقسم أنه إن لم يغلبنى اليوم سبع مرات فلا حق له فى أن أطيعه ، ثم افترقنا وكل منا ذهب إلى سبيله .

دخلت خمّارة في أنطاكية ، فاستقبلني الخمار ، مرحباً مبتهجاً ، وأجلسني مهاباً محترماً ، وأحضر لي كأساً من الخمر فلما شربتها ثقل رأسي ، وفقدت وعيي وحسي ، ثم أدخلني في خلوة منعزلة وكتفني ، ثم سقاني شيئاً أذهب عني غيبتي ، وأعاد إلى رشدي وحسي ، فقلت له : من أنت يا رجل ؟ فقال : جمال الدين شيحة ، فقلت فارقتك مغربيًّا ، فكيف جئت وفعلت بي ما فعلت ؟ فقال : عرفت ما في نفسك فجئت إلى هذه الماخورة وقتلت صاحبها ، وقمت مكانه حتى جئتني وفعلت بك ما رأيت ، فقلت له : هذه الثانية لك ، من سبع حيل بيني وبينك ، ثم خرجت إلى الخلاء هائماً على وجهي ، وقد وقر في نفسي أن الدنيا كلها جمال الدين شيحة ، وحملتني قدماي إلى بستان به بستاني جالس يأكل من خبز أمامه ، وكنت جوعان ، فسلمت عليه وسألته بعضاً من خبزه الذي يأكل منه ، فلما أكلت منه فقدت وعيي ، ثم انتبهت فوجدتني مقيداً ، فقال لي البستاني وكان جمال الدين : هذه الثالثة . فعجبت من أمره ، وانطلقت في ذهول ودهشة ، فلقيني درويش يحمل إبريقاً وطبلا صغيراً ، فقلت له : بربك أصدقني : ألست جمال الدين شيحة ؟ فقال : بلى ، فقلت له : لقد عرفتك هذه المرة وغلبتك ، وضربته بيدي على جنبه ، فخرج منه ريح ملأ أنفي فوقعت مغشيًّا عليّ ، ثم أفقت فوجدتني مكتفاً ، فقلت له : عجباً لك : أكنت تحمل البنج في بطنك ؟ فقال : لقد ضربتني بيدك على جراب الحيل فخرج منه ريح جميلة أفقدتك وعيك ، فقلت

له : وهذه الرابعة . ثم أطلقنى وذهب كل منا إلى شأنه ، وبينما أنا سائر وجدت صياداً يبيع سمكاً ، فاشتريت منه ما يكفينى ، وذهبت به إلى أعلى الجبل ، فاحتطبت وشويت السمك وأكلت منه . فغاب وعيى ، ثم أفقت فوجدتنى مكتفاً بين يدى جمال الدين شيحة . فقال : وهذه الخامسة ، ثم أطلقنى ومضى ، ثم سرت فوجدت ديراً خراباً لا أحد فيه ، فأويت إليه لأستريح من جمال الدين وألاعيبه . وبينما أنا سائر فيه سقطت بى قطعة من الرخام المفروش به أرض الدير ، فهويت إلى مكان تحت الأرض ، ووُضعت قطعة الرخام فى مكانها . وصرت محبوساً لا أجد لى منفذاً ، فناديت أدركنى يا سلطان القلاع والحصون ، فإذا جمال الدين أمامى يقول : وهذه السادسة ، ثم أخرجنى من سجنى هذا وانصرف ، وخرجت من الدير هائماً لا أدرى أين أذهب ، فلقينى غلام صغير يبكى ، فأشفقت عليه ومسحت بيدى على رأسه وسألته : ما يبكيك يا ولدى ؟ فقال : أعطانى أبى ديناراً ذهباً لأشترى به بعض الأشياء فسقط منى وضاع ، وإنى خائف أن يضربنى ، فقلت له : لا تخف وأعطيته ديناراً ذهباً ، فدعكه بأصابعه ورده إلى قائلا : أتضحك منى وتعطينى ديناراً من نحاس ، فأخذته وفحصته فوجدته نحاساً كما قال . وعزمت أن أعطيه غيره ولكنى شممت منه رائحة ذكية فأغمى على ، ثم انتبهت فوجدتنى مقيداً وأمامى جمال الدين يقول : وهذه السابعة ، فماذا تقول فى طاعتك لى ؟ فقلت : إنى أطيعك الآن ما دام خالى غائباً ، فإن

حضر كنت مثله ، أطيعك إن أطاعك ، وأعصيك إن عصاك ، فقال : ذلك ما أردته منك . وناولنى هذا الكتاب و بعثنى به إليك . وهذه قصتى مع جمال الدين .

فعجب الملك بيبرس وقال : هذا رجل يندر أن يأتى الزمان بمثله ، وأنعم على العصب وأذن له أن يسير حيث يشاء . وقال : إنى فاعل ما أمرنى به جمال الدين فى كتابه .

رحل بيبرس وجنوده إلى مدينة سيس ، ونزلوا حولها . على بعد من مرمى المدافع التى على أسوارها ، حتى لا تصيبهم نارها ، و بعد أن استراحوا ثلاثة أيام ، كتب بيبرس إلى ملك المدينة كتاباً وقال لإبراهيم الحورانى : إنى مرسلك بهذا الكتاب إلى ملك سيس . على أن تأتينى به ومعه الإجابة عما فيه ، واحذر أن يعتدى على كتابى هذا أحد بتمزيق شىء منه . فقال إبراهيم : إن مزق منه جزء فاقطع عنقى فيه . ثم تقلد سلاحه . وركب جواده ، وأخذ الكتاب وسار حتى طرق باب المدينة وكان مقفلا . فقيل : من بالباب ؟ فقال:رسول من ملك المسلمين إلى ملككم ، يحمل كتابه إليه . فاستأذنوا ملكهم ، فقال جوان : افتحوا له الباب وائتونا به لنعرف ما كتب إلينا ملك المسلمين ، ففتحوا له الباب وساروا معه ، حتى دخل على ملك سيس وجوان ، فقال إبراهيم : ما على الرسول إلا البلاغ ، وأريد منك أن تنهض وتأخذ منى كتاب ملك المسلمين إليك بأدب ، وتقرأه بأدب ، وترده إلى ومعه الإجابة عما فيه بأدب ، وإن وجدت

فى كتاب ملك المسلمين كلمة لا تلائم مزاجك فاحذر أن تعتدى على الكتاب وتمزق شيئاً فيه ، فإنه قبل أن تقع قصاصة منه على الأرض يكون رأسك ورأس جوان قد سبقاها ، ونثرا على الأرض قبل وصولها ، وما رجالكم وأهل مدينتكم عندى بشىء يذكر فإنى قادر أن أفنيهم جميعهم «بشا كريتى» هذه ، فقال جوان : لا تظهر الشجاعة والرجولة فى الكتاب ولا فى حامله ، ولكن الشجاعة والشرف والرجولة فى ميدان القتال ، فقم إليه ، وخذ الكتاب فى أدب واقرأه لتعرف ما فيه .

فعجب الملك فرنسيس من قوة عزمه وشدة قوله ، وأخذ الكتاب برفق وقرأه فوجد فيه : من ملك قبلة الإسلام ، وخادم بيت الله الحرام إلى الكلب الكَلِب ، والذئب الأجرب ، فرنسيس الملعون ، إذا أردت السلامة من النقم ، فائتنى أنت وجوان وسيف الروم صاغرين ، حفاة الأقدام عراة الرءوس ، لأفرض عليك الخراج الذى تؤديه لى كل عام ، فإن فعلت ما أمرتك به نجوت وسلمت ، وإن لم تفعل فسيحل بك وبقومك الوبال فى ميدان القتال ، وحامل كتابى هذا قادر على أن يأتى بك أسيراً أو قتيلا . فلما قرأه التفت إلى جوان — وكان قد قرأ الكتاب معه من ظهر القرطاس — فقال له : إنك إن أطعت ملك المسلمين صبأت ، فاحذر أن تأخذ عالم الملة إليه ، واكتب له بالحرب والقتال . فناول فرنسيس إبراهيم كتاب مليكه فى رفق وأدب ، فأخذه ووضعه فى عمامته ، ثم كتب كتاباً بالقتال والحرب ، وناول إبراهيم إياه فأخذه ووضعه داخل حذائه ،

فاغتاظ الملك وصاح فيه قائلا : امض لشأنك ، فقال إبراهيم : لن أبرح مكانى هذا حتى آخذ أجرة الطريق . فقال جوان : وما قيمتها ؟ فقال : خمسة آلاف دينار . فقال جوان : اذهب إلى سبيلك ، فنحن لن نعطيك شيئاً ، فقال إبراهيم : لن أنتقل من مكانى إلا بأجرة الطريق أو برأسك وبرأس من معك ، فقال جوان : اذهب وإلا أتعبتك وجعلت البطارقة يسقونك كأس المنية . فقال : لا بد من أجرة الطريق وإلا قتلتك ومن معك . فغضب جوان وصاح فى بطارقته : أن انقضوا بأسلحتكم على هذا اللئيم الأحمق . فخفوا إلى أسلحتهم ، وهمّوا أن يهجموا عليه ، ولكنه تأخر عنهم . وجرد « شاكريته » وتلقاهم وحده ، فجعل يقطع الأعناق ، وهو يصيح قائلا : الله أكبر فتح ونصر وخذل من كفر ، وسمع الملك بيبرس صياحه . فقال لرجاله : إن إبراهيم الحورانى يقاتل وحده داخل المدينة فدقوا الطبول لتشدوا بها عزمه ، ويقوى ظهره ، ويضطرب أعداؤه . وتضعف شوكتهم ، فجعلوا يدقون الطبول . وسمعها إبراهيم فاشتد وبذل غاية الجهد ، وجعل يرمى الرءوس كأنها أوراق الشجر المتساقطة . ودأب على قتالهم وجز رقابهم حتى انتهى النهار . فتركهم ومشى ناحية باب المدينة ، وإذا بشىء جذبه وأخرجه من المدينة وألقاه بعيداً ، فنظر إليه إبراهيم فألفاه جمال الدين شيحة ، صاحب الحيل العجيبة ، فقال له : لم فعلت ذلك يا جمال الدين ؟ فقال : ولأى شىء تلقى بنفسك فى مواطن العطب من أجل حق الطريق ، فدعهم الآن ،

وخذ هذا العقد الذى قيمته خمسة آلاف دينار . وأرح نفسك من هذا العناء ، فقال إبراهيم : يد لا نعدمها ، هات يا جمال الدين ، ثم أخذه جمال الدين إلى خانه الذى يقيم فيه ، فداوى جروحه ، وأطعمه ، وقال له : نم يا إبراهيم إلى الصباح ، فإن لبدنك عليك حقًّا ، فإذا انتبهت بكرة فاذهب إلى بيبرس ، ولا ترجع إلى هؤلاء الكفار اللئام ، فقال: سمعا وطاعة.

ولما أشرق الصبح استأذن إبراهيم جمال الدين وسلم عليه وقال له : إنى ذاهب إلى الملك بيبرس ، فقال له: صحبتك السلامة ، ولما بعد عن الأنظار ارتد راجعاً إلى ديوان الكفار ، وكان جوان قد استيقظ من نومه ، فلم يسمع لإبراهيم صوتاً ، فظن أنه مات ، وجعل يؤنب البطارقة ويقرعهم ، ويقول لهم : رجل واحد يجول فيكم « بشاكريته » فيأكلكم أكل النار للهشيم ؟ ! ! اذهبوا وابحثوا عن رأسه فى القتلى فقد هلك ومات . وبينما هو يقول لهم مثل ذلك القول إذ طلع إبراهيم وقال : حق الطريق يا جوان ، فعجب وقال : احفظنى يا إلهى من هذا الرجل ، ماذا تريد ؟ فقال : أطلب حق الطريق ، فقال : كم ديناراً تريد ؟ فقال : عشرة آلاف ، خمسة منها حق الطريق ، وخمسة أجرتى فى اليوم الماضى ، فقال جوان : أتقتل رجالنا وتأخذ أجرة على ذلك ؟ اهجموا عليه يا بطارقة ، فجرد سيفه وتلقاهم بضرباته ، صائحاً فيهم : الله أكبر ، فتح ونصر ، وخذل من كفر ، وسمع بيبرس نداءه فأمر

بدق الطبول ، فقوى عزمه وجعل يقاتلهم حتى غروب الشمس ، وجاءه جمال الدين فأخرجه من المدينة ، وجعل يعاتبه ويلومه ، ويقول : كيف يدفع بك الطمع إلى مواطن العطب ؟ لقد أعطيتك حق الطريق ، وأمرتك ألا ترجع إلى الكفار وتقاتلهم وحدك ، فقال له : لقد أطعتك ، ولكنى ضللت الطريق ، فجعلت أمشى حتى وجدتنى أمام جوان ، فقال له : خذ هذا العقد ، وقيمته عشرة آلاف دينار ، وإذا كان الغد فامض إلى الملك بيبرس ولا تعد إلى هذه المدينة ، فقال إبراهيم : لك ذلك ، ووقاك الله شر المهالك ، ثم داوى جروحه وأطعمه ، ونام ، وفى الصباح قال له : هذا طريقك فاسلكه ، فقال : سمعاً وطاعة ، وسار وتركه .

أما جوان فإنه جمع البطارقة وقال : ما رأيت مثل إبراهيم الحورانى ، فقال الملك : لو كان مع ملكه عشرة رجال مثله ما احتاج إلى الجيوش وكثرتها ، فقال جوان : قد كان ما كان ، وما أظنه إلا أنه قد شرب كأس الحمام ، فابحثوا عن رأسه حتى نكون منه فى أمان ، ولكن إبراهيم ظهر أمامه وقال : حق الطريق يا جوان ، فقال احفظنى يا مسيح ، كم تريد يا هذا ؟ فقال : خمسة عشر ألف دينار ، لأنى قاتلتكم يومين كاملين ، وأجرتهما عشرة ، وحق الطريق خمسة ، فقال جوان : أما تستحي ؟ ! لقد أفنيت الرجال ، ثم تطلب على قتلتهم أجرة ! ! فقال : لا بد من ذلك ، فقال جوان وهو مغيظ محنق : خذوه يا بطارقة فجرد سيفه وجعل يجزهم وهو يصيح قائلا : الله أكبر ، فتح ونصر ، وخذل من كفر ، ودق له بيبرس الطبول ، واستمر

يقاتلهم حتى مضى بياض النهار ، ثم أخرجه جمال الدين ، وأغلظ عليه فى اللوم والعتاب وناوله ثلاثة عقود قيمتها ثلاثون ألف دينار ، وأقسم عليه ألا يرجع إلى الكفار ويحاربهم ، فوعده بذلك ، ثم داواه وأطعمه ونام .

وفى الصباح قال جوان : لقد فتك هذا الرجل بأبطالنا ورجالنا ، وما رأيت فى حياتى مثله ، ولا بد أن يكون قد مات ، فقال الملك فرنسيس يا عالم الملة ، وإذا لم يكن قد مات فماذا أنت فاعل وقد أفنى وحده نصف الرجال وهو لا يبالى أين قتل ولا كيف قتل ؟ ! وما لبثوا أن رأوا إبراهيم بينهم يقول : أين حق الطريق يا جوان يا لئيم ، ورب الكعبة لآخذنه وإن دأبت على قتالكم سنة كاملة ، فقال جوان : أليس فيكم من يكفينا شر هذا الإنسان ؟ ! وكان الكفار قد هابوه وخافوه ، فلم يتقدم إليه أحد منهم ، وأدرك جوان هذه الحال منهم فقال : وما حق الطريق الذى تريده ؟ فقال : عشرون ألف دينار ، خمسة عشر لثلاثة أيام قضيتها فى القتال ، وخمسة آلاف حق الطريق ، فقال جوان : أعطوه عشرين ألفاً ، واكشفوا عنا غمته ، فأخذها إبراهيم ، وفتحوا له باب المدينة ، وخف مسرعاً إلى الملك بيبرس ، فأعطاه كتابه ، وكتاب الملك فرنسيس إليه ، وقص عليه جميع ما جرى من أوله إلى آخره ، فعجب الملك من جمال الدين وجراءة إبراهيم ومنحه عشرة آلاف دينار .

وفى اليوم الثانى من قدوم إبراهيم إلى الملك بيبرس ، دقت طبول الصليبيين ، وأمرهم جوان بالحرب والقتال ، فخرج إلى الميدان بطريق

يلوى الحديد بيديه لقوته وشدة بأسه ، وجال وصال منادياً من يبارزه، فبرز إليه أيدمر البهلوان وعجل بقتله ، ثم جعل يقتل كل من برز إليه من الكفار بعده ، حتى أوشكت الشمس أن تغرب ، ووقف القتال ، ورجع أيدمر إلى جماعته وملكه ، وكانوا فرحين بهذا الفوز العظيم ، أما جوان وفرنسيس فقد أظلمت الدنيا فى أعينهما غماً وهماً .

وبعد أيام قدم جمال الدين إلى الملك بيبرس وأمره أن يهجم برجاله على المدينة ، فقد فتح لهم أبوابها ، وذبح الحرس ، وأسر الملك وجوان وسيف الروم ، فقال بيبرس : أخبرنى يا جمال الدين ماذا صنعت بالأعداء فى غيبتك هذه ؟ فقال : دخلت المدينة وأقمت فى خان بها ، كأننى واحد من أهلها ، وقد حكى لك إبراهيم الحورانى ما صنعته معه ، ثم ذهبت إلى رئيس الخدم فى دار الملك فقتلته وألقيت جثته فى سجن مهجور هناك ، ولبست ملابسه ، وجعلت نفسى على هيئته وشكله ، ووضعت البنج فى الخمرة وسقيت الملك وأصحابه منها ، ثم نقلتهم إلى الخان واحداً بعد واحد ، مكتفياً بالملكين والعايق ، وجوان وسيف الروم ، ثم أغلقت عليهم الخان ، وذهبت إلى الحرس فذبحتهم وهم نيام ، وأخذت مفاتيح المدينة من تحت رءوسهم ، وفتحت أبوابها ، وأبطلت المدافع وعطلتها ، ثم جئتكم ، وأريد الآن أن تهجموا على المدينة قبل أن يطلع النهار ويستيقظ أهلها ، فنهض بيبرس فى الحال ، ودخل هو وجنوده المدينة وجعلوا يقتلون أهلها تقتيلا ، وهم يصيحون : الله أكبر ، فتح ونصر ، وخذل من كفر ، وكان

الانتهاء من هزيمة الكفار والاستيلاء على عرش الملك فيها فى مطلع الشمس، فجاء جمال الدين وأمر بضرب جوان وإطلاق سراحه ، فضربوه حتى أوجعوه ثم أخلوا سبيله هو وصاحبه سيف الروم فتركهم ومضى إلى شأنه ، وقال جمال الدين لبيبرس:اجمع المغانم وأعط منها كل ذى حق حقه ، ثم أقم مأدبة للأشراف ، وأنفق عليها نصيبى من المغانم ، فإن لى فيها مأرباً ستعرفه ، فإذا أقمتها ودعوت الأشراف إليها فاجعل إبراهيم الحورانى يصيح باسمى ، وستجدنى حاضراً لديكم ، وأنت يا إبراهيم خذ هذا العايق واجعله تحت حراستك ورقابتك ، وإن هرب منك فرأسك فيه ، وقال الملك : وخذ هذين الملكين معه ، واحرص عليهم جميعهم .

فعل بيبرس ما أمره به جمال الدين ، وأقام المأدبة وحضرها الأشراف ونادى إبراهيم الحورانى فحضر جمال الدين ، وجلس الأشراف حول الموائد ، وجعلوا يأكلون حتى شبعوا ، ثم دخل جمال الدين خيمة صغيرة وأغلقها عليه ، وبعد قليل من الزمن خرج منها فى صفة جنى يفزع منه كل من رآه، وقال لإبراهيم: ناد فى القوم من أطاع جمال الدين سلم من كل شر وضير ، ومن عصاه فعل به مثل الذى ترونه الآن ، ثم أحضر العايق وربطه على خشبة نصبت له ، وقال له : ما تقول فى دين الإسلام ؟ فقال : دين لا أدخل فيه أبداً ، فتقدم إليه جمال الدين وجعل يسلخ جلده ، والعايق مصر على كفره ، حتى مات فى يده ، ثم حشا جلده ووضع فيه عينين من زجاج وأمر أن يصلب فى قلعة من قلاعه

ابراهيم بن حسن

فغضب من ذلك اثنان من المسايطة ، وهما داود وشاهين أصحاب قلعة سياط ،ووقفا فى وسط الجمع وقالا : الله أقوى منك وأعظم وأكبر . كيف تفعل بالرجل هذه الأفعال التى تشمئز منها النفوس. ولا يقدم عليها إلا من قد قلبه من الصخر ، وجرد نفسه من الإنسانية والرحمة ، ثم فرا من الجمع وغابا فى البرية ، وقال جمال الدين : قد ثأرت لنفسى من هذا العايق الملعون ، وإن وقع أخوه فى يدى فعلت به ما فعلته بالعايق ، وسأذهب خلف الاثنين الماربين ، لأفعل بهما كل شين ، أما أنت أيها الملك العادل ، فارحل بجندك إلى مصر ، ومعك الملكان ، فإذا دخلت مصر فألقهما فى السجن مع الملوك الثلاثة ، واحذر أن يهرب منهم أحد إلى أن أرجع إليك ، فارتحل الملك وجنوده ، ودخل مصر فى موكب حافل ، وألقى الملكين فى السجن مع الملوك الثلاثة ، وأقام فى أمن وسلامة .

٥

أما العصب بن الفرقيل فإنه رجع إلى خاله حسن النسرين بن عجبور. فسأله عن معروف ، فقال : ما عرف له خبر ، ولقد ملك القلاع رجل قصير بدوى من عرب غزة ، فغضب حسن بن عجبور . ومضى سائراً حتى دخل قلعته وهو غضبان ، فوجد القلعة قد جددت وأصلحت وكتب عليها اسم جمال الدين شيحة وارتفعت رايته . وطويت راية معروف ومحى اسمه فسأل عن ذلك . فقيل:إنه ملك القلاع جميعها وما استطاع أحد أن يقف فى سبيله . فقال : إنه إذن لشجاع لا يغلب ولا يقهر ، فقيل إنه ما ركب حماراً ، وما جال فى ميدان، فقال : وكيف ملك القلاع وفرض نفسه سلطاناً عليكم ؟ فقالوا : بمكره وحيلته . وقد ولاه الملك بيبرس علينا ، فقال : هذا شىء لا أعرفه . وقد عزلته ، فقالوا : افعل ما شئت ، ونحن مقيمون على طاعته والولاء له . فإن أنت غلبته وملكت القلاع منه أطعناك . وإن غلبك فنحن معه . وعلى طاعتنا له فقال : ذلك هو الحق . وإن وقع فى يدى فسوف ترون ما أنا فاعل به . وبينما هو جالس دخل عليه داود وشاهين الهاربان ، وهما يستغيثان . فقال لهما : ممن تستغيثان ؟ فقالا : من جمال الدين شيحة ملك القلاع وحكيا له ما جرى ، فقال : حينئذ أنتما خارجان عن طاعته ؟ فقالا : نعم . فقال : وأنا مثلكما . فأقيما عندى حتى يفعل الله ما يشاء ، ثم التفت إلى

العصب ابن أخته وقال : هل رأيت جمال الدين بعينيك ؟ فقال : نعم . ولكنى ما أخذت منه ولا أعطيت ، فقال : عليك أن تأتينى به فى قلعتى ، وأنا بين أهلى ، فقال : سمعاً وطاعة ، وخرج العصب يمشى فى البرية وهو نادم على ما قاله ، من أنه يعرفه ، وبعد أن سار قليلا وجد فى طريقه رجلا فقيراً على رأسه عمامة من ليف وتحت إبطه إبريق وطبلة ، وهو يذكر الله تعالى ، فقال له العصب : حلفتك بالاسم الأعظم أن تصدقنى ، فهل أنت القصير ؟ فقال : أنا القصير ، ما أعرفه ، أنا القصير ، ما رأيته ، فحمله العصب ورجع به إلى خاله وقال : هأنذا أتيت إليك بالقصير ، فالتفت إليه حسن بن عجبور وقال : من أنت ؟ فقال : رجل فقير ، أطلب رزقى من أيدى المحسنين ، فقال : وما اسمك ؟ فقال : اسمى الشيخ عدس ، فضحك حسن النسرين ، وأمر أن تنزع عنه ملابسه ، فبان من تحتها ملابس العياق ، فقال حسن : حلفتك بالاسم الأعظم أن تقول الحق ، ألست جمال الدين شيحة؟ فقال : بلى ، أنا جمال الدين يا حسن ، فقال له : قف ، فوقف ، فقال : اقعد ، فقعد ، فقال : ألك طول غير هذا الطول؟ فقال : لا ، فقال : أردت أن أنصحلك قبل أن أعذبك ، ابتغاء مرضاة الله ، فقال له : قل ما تريد ، فقال : ما رأيك فى أن تعزل نفسك ، وتترك ملك القلاع ، وتذهب إلى سبيلك؟ فقال : أنت من طريق وأنا من طريق ، فقال : نجوت بنفسك ، ولماذا لم تترك ملكها قبل الآن؟

فقال : ما كنت أجد من يصلح للحكم فيها ، وأهلا لأن يكون

ملكها ، ولما عرفت أنك أهل لها ، وأنك أحق بالملك فيها منى ومن غيرى عزلت نفسي وتركت لك ملكها ، فقال : صدقت ، فاذهب إلى سبيلك ، فتركه جمال الدين وسار حتى وصل إلى البواب وكان من أولاد الأدرع فأمسكه وقال له : احمد الله يا جمال الدين على سلامتك ونجاتك ، فقال : الحمد لله رب العالمين ، فقال البواب : هات البشرى ، فمد يده فى جيبه فلم يجد إلا خنجراً ، فناوله إياه وقال : خذ هذا الخنجر ، فإن قيمته ألف دينار ، واحفظه عندك حتى آتيك بالدنانير ، فقال : وماذا أفعل به إنى أريد منك دنانير .

وكان « باش كواخيه » قد سأل حسناً عما فعله بجمال الدين ، فقال : عزل نفسه وترك ملك القلاع ومضى لشأنه ، فقال : هل حلف بالاسم الأعظم على ما قال ؟ فقال : لا فقال : لقد مكر بك وضحك منك ، وكذب عليك ، ولو كان صادقاً لحلف بالاسم الأعظم ، فقال حسن لأتباعه : علىّ بجمال الدين ، فأسرعوا وأدركوه عند البواب وهو يجادله فأمسكوه وقالوا : أجب دعوة المقدم حسن ، فالتفت إلى البواب وقال : أنت السبب فى إبطائى حتى أمسكونى ، ولئن أحسن الله خلاصى لأجازينك . فقال البواب : إن خلصت من يد المقدم حسن فعلقنى على باب القلعة . فقال جمال الدين : أنا عند قولك ، والاسم الأعظم .

ولما حضر جمال الدين بين يدى المقدم حسن قال له : أتركت ملك القلاع ، فقال : نعم ، تركته لك ، فقال : احلف بالاسم الأعظم ، فتبسم جمال الدين ضاحكاً وقال : والاسم الأعظم إن بينك وبين ملك

القلاع ما بين السماء والأرض ، فاربد وجه حسن غضباً وغيظاً ، وأمر رجاله أن يكتفوه ، فكتفوه ، ثم ضربه وأمر بسجنه ، ووصل إلى سمع أبيه عجبور ما فعله بجمال الدين ، فجاءه ولامه وأمره ألا يتعرض لجمال الدين فما سمع لأبيه قولا ، وجعل يضربه ثم يسجنه ، ويضربه ثم يسجنه وهو لا يتوجع ولا يتأوه ولا يبدى ألماً .

وفى جوف الليل قال جمال الدين فى نفسه : إلى متى هذا الصبر على هذا العذاب ، وأخرج من جيبه ثلاث حبات ، إذا ابتلع إنسان حبة منها فارقت روحه جسمه أربعاً وعشرين ساعة ، فابتلعها ، ووضع تحت لسانه ثلاث حبات أخر ، إذا وصلت رائحتها إلى جوف الإنسان ردت إليه روحه .

وفى الصباح أمر حسن أتباعه أن يأتوه بجمال الدين ، فذهبوا إليه فى سجنه فوجدوه ميتاً ، فأسرعوا إليه راجعين وقالوا : لقد مات جمال الدين ، فقال : هاتوه ، فإنها حيلة أعرفها ، فلما أحضروه جعل يضربه فما تحرك ، فأمرهم أن يلقوه فى السجن ، وأظهر لرجاله أن ذلك من بعض حيله ، ثم طلع إلى قلعته واجتمع بأبيه وقال له : إن جمال الدين قد مات فى سجنه ، فقال أبوه : إذا علم بيبرس بموته ، جاءنا فهدم القلعة على رءوسنا ولا يبالى بنا ولا بغيرنا ، وأرى أن نصبر حتى يجىء الليل ، ثم نسرقه أنا وأنت من سجنه ونكفنه ونصلى عليه وندفنه فى البستان ، وملابسه معه ، والأرض موطن الأسرار ، وإذا سئلنا عنه قلنا : إنه هرب من سجنه ، ولا نعرف

له مذهباً ولا سبيلا، فاطمأن حسن لقول أبيه، وحملاه سرًّا إلى البستان. وهناك غسلاه وكفناه، وصليا عليه، ثم وضعاه فى تابوت، وملابسه بجانبه، وخبآه فى مكان منعزل من البستان، وجعلا يحفران الأر ں ليدفناه فيها.

كانت المدة قد انتهت وعادت إليه الحياة ، فخرج من كفنه ، ولبس ملابسه وهرب خفية إلى القفار، ولما انتهيا من حفر القبر، ذهب حسن ليحضر التابوت من مكانه، فلم يجد فيه جمال الدين . فرجع إلى أبيه مندهشاً وقال له : إنى لم أجده فى التابوت ، ولم أجد ملابسه ، فقال أبوه : إنه رجل طيب ومظلوم ، ولعله أراد أن يدفن فى البقيع أو فى مكان خير من هذا المكان ، فامض بنا ، ولا تذكر لأحد من الناس شيئاً مما فعلنا، ثم مضيا وذهب كل منهما إلى منزله.

ولما جن الليل ، تنكر جمال الدين فى صفة الأتباع ، ورجع إلى القلعة ، فوضع البنج فى أنف البواب وهو نائم ، ثم دخلها ومشى حتى وصل إلى مكان المقدم حسن ، فبنجه ووضعه فى وعاء معه ، وكتب رسالة وضعها على فراشه، وحمله وانصرف ، ولما كان عند البواب نهض إليه وعلقه على باب القلعة ، ثم أعطاه شيئاً أيقظه . وتركه معلقاً حتى مات .

وجاء عجبور إلى ابنه فى الصباح ليوقظه فلم يجده ، ووجد على فراشه كتاباً فأخذه وقرأه فوجد فيه :

يا رايح قل للغادى ، ما فعل ذلك إلا جمال الدين شيحة ، واعلم

يا عجبور أن ابنك ظلم نفسه ، وبغى على غيره ، وركب الغرور فأضله ، وقد أخذته لأربيه ، فإما أطاعني وإما دفنته ، وأما البواب فقد سقيته كأس منيته . فلطم عجبور خديه، وجعل يقلب كفيه ، ورجع إلى زوجته يبكى ، وأخبرها بما وقع فيه ابنها فبكت على فلذة كبدها . وارتقبا مشيئة الله فيه . وامتلأ المكان بكاء وحزنًا .

مضى جمال الدين بالمقدم حسن النسرين إلى غابة فى البيداء، وأعطاه هناك ما أيقظه من غشيته ، فانتبه وقال : أين أنا الآن ؟ فقال جمال الدين أنت أمام الميت الذى أردت أن تدفنه فى البستان ، فما قولك فى أن تطيعنى ، على أن أغفر لك ما تقدم من ذنبك ، وما اجترحته يداك من الإساءة لى؟ فقال : إنك إن مزقت جسمى فلن أطيع قصيراً مثلك ، فقال : وأنا غنى عن طاعة مثلك ، ثم ضربه بالسوط حتى أوجعه ومزق جلده ، ثم دهن جلده فأصلحه ، ولا زال ينتقل به من غابة إلى أخرى وهو يضربه ويداوى جروحه ، فما نزل عن عناده وعصيانه ، فتركه مقيداً فى آخر غابة ، وانطلق فى الخلاء . فرأى بطريقاً كبيراً ، ومعه جماعة يسوقون أمامهم بغالا تحمل رخاماً ، فتبعهم حتى نزلوا بمرج للراحة ، ثم تزيا بزى بطريق وأقبل عليهم ، وانتظم فى مجلسهم ، وجعل يحدثهم ويسألهم عن أحوالهم وهم سكارى حتى غرقوا فى نوم عميق ، ثم بنّج البطريق الكبير وأخذه وانطلق ، ثم دخل به غابة ونبهه فيها ، فنظر إلى جمال متعجباً وقال : أين أنا ؟ فقال : أنت عندى . فقال : ومن أنت ؟

فقال : أنا عيسى البريجى راهب مدينة القيقول ومهندسها ، وجميع من فيها أولادى ، ثم سأله : من أين أقبلت بهذا الرخام ؟ وماذا تريد أن تفعل به ؟ فقال : أحضرته من جبل الرخام لأبنى به ديراً وكنيسة فى مدينة القيقول ، فقال : وهل تعرفنى ؟ فقال : لا ، فقال : أنا جمال الدين شيحة ، فماذا تقول فى دين الإسلام ؟ فقال البطريق : خرس لسانك ، أطمعت فى أن أترك دين آبائى ؟ إنى لن أدخل فى دين الإسلام وإن مزقت جسمى ، فافعل بى ما بدا لك فلن أبدل دينى ، فقال جمال الدين : وإن الإسلام فى غنى عنك ، ثم ذبحه وأخذ ملابسه ، وتزيا بزى عيسى البريجى وذهب إلى أتباعه ففرحوا بعودته ، واحتفوا به وأكرموا مجلسه ، وسألوه عن غيبته فقال : جاءنى المسيح ودلنى على دير فى هذا المكان ، وأمرنى أن آخذ شخصاً فيه ، وأبنى الدير على أكتافه لأنه غضب عليه ، وقد بلغ من جنونه أنه يدعى أنى جمال الدين شيحة ، ويقسم على ذلك الأيمان ، فإن وجدتموه على جنونه وادعائه فلا تصدقوه واضربوه حتى توجعوه ، فقالوا : نضربه ونفقأ عينه ، فقال : انتظروا هنا حتى أمضى إليه وآتيكم بخبره ، فقال : نحن فى انتظارك، فتركهم ومضى إلى حسن، فما عرفه وتوسل إليه أن يطلقه من قيوده وأغلاله ، فقال له : يا حسن أنا جمال الدين شيحة ، فأرح نفسك من الشقاء بطاعتى قبل أن أبنى على أكتافك الدير ، وأجعل الكفار يضربونك ويعذبونك ، فقال حسن : سأخبرهم أنك جمال الدين ، وحينئذ ستلقى منهم العذاب المهين ، وسأجد

منهم كل إكرام وراحة ، وسيضعونك فى القيود ، ويطلقون سراحى ، فقال: سوف ترى ما يحل بك من ألوان الشقاء، ثم تركه ومضى إلى أتباع البطريق وقد عرف أسماءهم ، فجاء بهم إلى حسن فى مكانه الذى حبس فيه مقيداً مغلولا ، فلما رأوه صاحوا فى وجهه ساخطين عليه ، فقال لهم : يا رجال ، أليس لكم عقول تفهم وتعى ؟ تعالوا واسمعوا ، فقالوا : قل ما تشاء ، فقال : اعلموا أن هذا الرجل جمال الدين شيحة القصير ، وقد عصيته ولم أطعه ، وأنا من الفداويين ، واسمى حسن النسرين عجبور فقالوا له : أتسب أبانا الكبير وتنسبه إلى الإسلام يا لئيم ؟ ! فما الذى يكفر ذنبه يا أبانا ، فقال : أن يضربه على رأسه كل منكم ، فسارعوا إليه وجعلوا يضربونه وهو يصيح فيهم قائلا : إنه عيسى البريجى نفسه ، ولكنهم ما سمعوا له قولا ، وحملوه إلى مكانهم وحبسوه فيه ، ثم ساروا إلى مدينة القيمول ، حتى كان بينهم و بينها مسيرة يوم كامل . فأمرهم الراهب « جمال الدين المتنكر » بالنزول ، وقال لهم : لا تدخلوا المدينة إلا غداً ، فأطاعوه ونزلوا ، ولما جن الليل نهض جمال الدين ولبس البذلة التى صنعها له الحكيم يونان والتى كلما أدخل زرًّا من أزرارها فى عروته زاد طوله ، وكلما أخرجه منها نقص ما زاده ، فلما لبسها وزرر أزرارها دخل المدينة ، وذهب إلى قصر الملك ، فوجده نائماً منكبًّا على وجهه ، ثم نفخ فى بوق نحاس معه ، فخرج منه نار وشرر ، فاستيقظ الملك فزعاً ، وارتعد جسمه خوفاً وقال : من أنت يا هذا ؟ أتريد أن تحرقنى ، وتحرق مدينتى ؟

فقال له: إنى حوارى طيار على دين المسيح ، واسمى الحوارى محرقون، أمرنى المسيح أن أنزل عليك وعلى البطريق عيسى ، لأن عنده أسير قد غضب عليه، وقد أصابه مس من الجنون ، وبلغ من جنونه أنه يدعى أن عيسى البريجى هو جمال الدين شيحة ، فإن قال لكم ذلك فلا تصدقوه ، ومن صدق به فقد كفر بعيسى ، وأما أنت فإن صدقته حرقت بلدك وقصمت ظهرك، فقال : لن أصدقه أبداً وحق المسيح . ثم نفخ فى البوق فارتعب الملك ورجا منه أن يعفو عنه ، فتركه ومضى إلى البيداء ، فخلع البذلة ، ووضعها مكانها ثم ذهب إلى جماعة البطريق ودخل عليهم ونام بينهم إلى الصباح .

كانت الأنباء قد سبقت إلى الملك بقدوم عيسى البريجى ، فأمر له بموكب يستقبله ، ولما حضر عيسى « جمال الدين » سلم عليه ، ثم شكا إليه فقال : أتانى ليلة أمس حوارى طيار اسمه محرقون ، وقد أزعجنى ، وملأ صدرى رعباً وخوفاً وكاد أن يحرقنى ، وأمرنى أن أعذب أسيراً أرسله المسيح معك ، فأين هذا الأسير ؟ فجاءه به وقدمه إليه، قال له : أنت الذى غضب عليك المسيح، فاستعد لتعذيبك فقال حسن : اسمعوا يا عقلاء هذا الذى تظنونه عيسى البريجى جمال الدين شيحة الذى يقتل أبناءكم ، ويسبى نساءكم ، وما أنا إلا فداوى من أولاد إسماعيل ، ولى عليك حق إفلاتى من قيودى وإكرامى ، فقال له: عليك اللعنة ، كيف تسب راهبنا وترميه بالإسلام ؟! ثم التفت إلى الراهب وقال : ما جزاؤه عندك يا أبانا ؟

فقال : جزاؤه أن تضربوه على رأسه . فانهالوا عليه ضرباً وهو يستغيث ويقول : إنه عيسى البريجى ، وما هو بجمال الدين ، وما أنتم بواجدين على يديه خيراً أيها الجاهلون ، ثم ألقوه فى السجن وحده .

أمر جمال الدين شيخ الحدادين أن يصنع له بذلة من الحديد وأساور وأطواقاً زنتها جميعها عشرة قناطير ، وأن يصنع وعاء حديدياً زنته ثلاثة قناطير لحمل الحجارة والملاط ، فصنع له ما طلب . ثم دخل على حسن بن عجبور فى سجنه بعد ثلاثة أيام وقال له : أطعنى يا حسن ، قبل أن يصب عليك سوط العذاب صباً ، فقال : ذلك ما لا يكون يا جمال الدين ، فأمر بإخراجه من سجنه . وألبسه البذلة الحديدية ، وجعله يحمل الحجارة والملاط وينقلها إلى البنائين ، ووكله إلى خمسة رجال يسوقونه بالسوط جيئة وذهاباً . فإذا انقضى النهار سجنوه فى سجن ضيق مظلم ، وكانوا لا يطعمونه إلا قليلا من الخبز الجاف وبعضاً من الفجل والبصل . واستمر على ذلك حتى خارت قواه ، وأصبح لا يقدر على النهوض .

ودخل عليه جمال الدين فى سجنه ، وهو يئن ويبكى من ضعفه وشقوته ، فقال له : يا حسن ، أطعنى وأرح نفسك ، فقال : من لى بمن يخبر أبى بما أقاسيه ؟ ! فقال له : خذ هذا القرطاس والقلم ، واكتب إلى أبيك بما تشاء . وعهد الله بينى وبينك أن أوصل الكتاب إلى أبيك . وفى غيبتى عنك لتوصيل كتابك سأريحك حتى أعود إليك ، فكتب حسن ما شاء ، ثم طوى الكتاب وناوله إياه .

أخذ جمال الدين الكتاب وذهب إلى ملك القيقول فقال له : أتانى ليلة أمس الحوارى محرقون وقال : إن المسيح يأمرك أن تزور القمامة القدسية العتيقة ، فأجبته إلى ما أمر ، وأرى أن تقف أعمال البناء حتى أرجع ، وأن تنقل الأسير من سجنه إلى مخدع مرضى مريح ، وتقيم عليه الحرس ليلا ونهاراً ، وتعنى بطعامه وشرابه وراحته ، حتى إذا عدت إليكم وجدته قد ردت إليه عافيته وقوته ، فأجابه الملك إلى ما أراد .

سار جمال الدين إلى قلعة عجبور ، فلما قرب منها ابتلع حبة مما معه ، فطال شعره وطالت أظفاره ، ولبس « الكبود » ثم دخل القلعة وجعل يقول : فرج الله الكرب عن المكروبين ، وفك أسر المأسورين ، فاجتمع الناس من حوله ، وسألوه عن حاله ، فقال : إنى أسير فررت من بلاد النصارى هارباً ، وكان معى ألوف من الأسرى ، عرفت أسماء بعضهم ، فقد رأيت فيهم الحاج عثمان من أرض الحجاز ، فك الله أسره ، وفيهم الحاج شعبان من أرض العراق ، فك الله أسره ، وفيهم . . . وفيهم . . . إلى أن قال : وفيهم رجل اسمه حسن عجبور فك الله أسره ، فتسابق الرجال مسرعين إلى عجبور ، فوجدوه جالساً يبكي على ولده ، فأخبروه بما سمعوا ، فقال : علىّ بهذا الأسير ، فلما حضر بين يديه قال له : إن ابنك يغذيه جمال الدين شيحة فى سجنه ، وأنا شيحة رأيته يضربه ، وأنا شيحة رأيته يجوعه ، وأنا شيحة رأيته يثقل بالعمل كاهله ، فقال عجبور : دعنا من ذلك ، وماذا بقى عندك من أخباره ، فقال : وقد حملت منه

كتاباً إليك ، وأقسم علىّ ، وأغلظ فى قسمه ألا تفضه ولا تقرأه إلا سرًّا ، بينك وبين أمه ، فأخذ منه الكتاب فى شوق ولهفة ، وأسرع ذاهباً إلى زوجته أم حسن ابنه ، وهناك فض الكتاب وقرأ فيه :

إن حامل كتابى هذا جمال الدين شيحة نفسه ، فأمسكه واسجنه ، وعذبه كما عذبنى ، فإنه فعل بى كذا وكذا وقص عليه ما جرى ، فلما قرأه هاله ما وقع لابنه ونادى فى رجاله أن أمسكوا الأسير وأحضروه فطلبوه وما وجدوه ، فأمرهم أن يدركوه بخيلهم ، فطلبوه على ظهور خيلهم فى البرية فما وجدوا له أثراً ، وارتدوا على أدبارهم خائبين ، فأسف أبوه وتذكر قوله مراراً : أنا شيحة . . .

أما أمه فإنها بكت وقالت لزوجها : سر إلى أولاد إسماعيل واستشفع بهم عند الملك العادل ، ليخلص ابنك من عذابه الذى يقاسيه .

ركب عجبور جواده وأسرع إلى قلعة صهيول ، فوجد أولاد إسماعيل مجتمعين ، فسلم عليهم وقال لهم : جئتكم مستشفعاً بكم ، فقالوا : ما الخبر ؟ فقال : ابنى قد ظهر ، فقالوا : هنئت بسلامته . فقال : وكان قد أسر القصير ، فقالوا : اخرس ، وكيف يأسر ابنك سلطان القلاع ؟ ! فقال : اصبروا ، ثم ضربه ابنى سبع مرات ، فصاح الرجال فى وجهه ، فقال : انتظروا حتى أتم حديثى ، ومات القصير ، ففزع الرجال وهموا أن يضربوه بسيوفهم ، فهدأهم وقال : لا تعجلوا ، واسمعوا بقية القصة ، ولما أردنا دفنه ، لم نجده فى كفنه ، وذهب إلى حيث لا نعرفه ، فقالوا :



(صورة ٢)
شيحة فى هيئة أسير يكلم الناس

حياه وقواه ، ثم رجع إلى القلعة ليلا ، فسرق ابنى ، ومضى به إلى القيقول وهناك جرى كذا وكذا وحكى لهم بقية القصة إلى آخرها ، ثم قال : وقد جئتكم لتكونوا شفعاء لابنى عند الملك العادل . فقالوا : لنذهب معك إلى إبراهيم لنرجو منه أن يكلم الملك فى شأن ابنك ، فقال : افعلوا ما شئتم ولكم جزيل شكرى .

سار الرجال ومعهم كيس مملوء بالنقود ، ولما اجتمعوا بإبراهيم حكوا له قصة ابن عجبور وطلبوا منه أن يساعدهم فى خلاصه ، وناولوه كيس النقود فقال لهم : سأقف غداً فى ديوان الملك عن يمينه ، وسأقول فى قضيتكم هذه ثلاث كلمات ، فشكروه وانصرفوا .

وفى الغد من قدوم أولاد إسماعيل دخلوا على الملك العادل فى ديوانه ، فرحب بهم وأجلسهم ، فقال إبراهيم : أهلا وسهلا بأولاد العم . لعلكم بخير ، فقالوا : بفضل الملك العادل ، وقال الملك:فيم جئتم ؟ فقالوا : لنا عندك قضية ، فقال إبراهيم : مرحباً بكم ، فأنتم أصحاب الملك وأحباؤه فابسطوا قضيتكم فبسطوا قضيتهم وشرحوها ، فعجب الملك ، وحار فى أمره ، وقال : وماذا أصنع فى قضيتكم هذه ؟ ! وإذا ورقة سقطت على فخذه ، فأخذها وقرأ فيها :

من جمال الدين شيحة إلى ملك الإسلام ، اعلم أن حسن بن عجبور قد أساء أدبه ، فأخذته لأربيه وأهذبه ، وقد أقسمت ألا أقبل فيه شفاعة شافع ، وإن كان الملك نفسه ، وسأكلف إبراهيم عملا يعمله فى البناء ؛

لقاء الدراهم التى أخذها ليكون شفيعاً لديك فى هذه القضية ، فلما قرأ الكتاب نظر إلى إبراهيم ، وقال: ماذا فعلت حتى كنت لهم شفيعاً ؟ فأفضى له بما حصل ، وأنه أخذ منهم نقوداً . فقال : ولكن جمال الدين سيكلفك عملا مرهقاً فى البناء بما أخذت من النقود . فقال : ذلك ما لا يكون أبداً ، ثم أمر الملك أن يطلبوا جمال الدين حول القلعة . فبحثوا عنه فلم يجدوا له أثراً ، وكان قد سبقهم إلى الملك العادل . ورأى ما فعلوا به وألقى عليه الورقة ، ومضى إلى سبيله .

ذهب جمال الدين إلى حسن بن عجبور وأعلمه بما جرى . ونصح إليه أن يطيعه فأبى وأعرض ، فأعاده إلى ما كان عليه من التعب والشقاء .

وجمع الملك الظاهر رجاله ، وسار إلى القيقول . فنزل بهم حول المدينة ، وأقام ثلاثة أيام ، وكان الملك قد أغلق أبواب المدينة ، وهو لا يعلم سبباً لمجىء الملك العادل ورجاله .

أرسل الملك العادل سليمان النقيب إلى المدينة ليقف على أخبارها ، فاحتال الرجل وابنه حتى دخلا المدينة وبينما هما يمشيان فى شوارعها لقيهما غلام، فرماهما بحجر وقال: إنكما لصان خائنان، فجرد سليمان سيفه . وجرى من خلف الغلام ، والغلام يجرى أمامه ، فسقطت منه صرة ، فأخذها ظاناً أنها مملوءة نقوداً . وقال لابنه: هذه خير من الغلام وأبيه، ثم فتحاها فانبعثت منها رائحة ملأت أنفيهما، فسقطا فى غشية

عميقة، ثم حملها الغلام إلى مكان منعزل، ونبههما من غشيتهما، فلما أفاقا نطقا بالشهادتين وقالا: أين نحن الآن؟ فقال: أنتما عندى. ولا خلاص لكما من يدى، فقالا: أعتقنا وإلا نادينا من يخلصنا منك برغم أنفك، فقال: افعلا ماشئتما، فنادى سليمان: ياجمال الدين شيحة، فقال: الغلام: والاسم الأعظم، أنا جمال الدين شيحة، فقالا: أعزك الله ونصرك، فقال: لقد أقسمت أن كل من أتى من أجل ابن عجبور جعلته يحمل الحجارة والطين، فقالا: افعل ماشئت فنحن راضيان غير ساخطين، فقال: انتظرانى فى سجنكما هذا غدًا، ثم تركهما وانصرف.

طالت غيبة سليمان وابنه على الملك الظاهر فأرسل اثنين آخرين، فأمسكهما جمال الدين وحبسهما فى السجن، وما زال الملك يرسل اثنين فى إثر اثنين، وجمال يحبس من يرسله، حتى كان فى السجن جميع من جاءوا مع بيبرس من الرجال، ولم يبق إلا الملك والوزير وإبراهيم، فقال الملك: ما لنا إلا أن ندخل المدينة ونعرف ما جرى على رجالنا، فقال إبراهيم: ولا بد أن نكمن فيها ولا نظهر إلا إذا طلع النهار، فقال الملك: ولم ذلك يا إبراهيم؟ فقال: خوفاً من جمال الدين شيحة، فقال الملك: إنى أول من يطيعه، وما أنت بأعظم منى، فقال إبراهيم: ونحن معك فيما ترى.

دخلوا المدينة فى مطلع الفجر، وما لبثوا أن لبست المدينة ثوباً فضفاضاً

من أشعة الشمس الذهبية ، فرأى الملك رجاله يحملون الحجارة والطين للبناء ، فوقف هو والوزير وإبراهيم باهتين حيارى . فأقبل إليهم درويش عجمي ، وسلم عليهم ، وناول الملك باقة من الزهور فوجد فيها ورقة قد كتب فيها :

يا ملك الإسلام لقد حلفت بالاسم الأعظم إن أنت خالفتني كلفتك بأعمال البناء من حمل الحجارة وغيرها غصباً ، وإن أنت أطعتني كان أمرك علينا يسيراً ، فقال الملك : افعل ما شئت أيها الدرويش ، فنحن في طاعتك . فأخذه الدرويش هو والوزير ، وأمر البطارقة أن يأتوه بوعاءين ، فوضع فيهما الطين وأمر الملك والوزير أن يحملاهما إلى البنائين ففعلا ما أمر الدرويش ، ثم أخذهما إلى السجن وتركهما فيه . ورجع إلى إبراهيم فقال له : أنت يا سيدى على دين المسيح ؟ فقال : إنه دين صحيح فقال : أرجو أن تساعد البطارقة في رفع هذا السقف إلى أعلى البناء ، وخذ هذه الصرة ، وفيها لك عشرة آلاف دينار ، فقال إبراهيم في نفسه : إن اليد المتعطلة نجسة ، وجزاؤها قطعها ، وإني في بلد لا يعرفني فيه أحد ، فأخذ الصرة ، ورفع السقف مع البطارقة ، ونفذ بذلك جمال الدين يمينه . وبينما هم يرفعون السقف سمع إبراهيم صوتاً من تحته يقول : شد حيلك يا أبا خليل ، فقد نفذنا اليمين ، فأدرك إبراهيم أنه جمال الدين وعزم أن يهلكه ؛ فأرخى السقف من يده فهوى على الأرض ، وهو يعتقد أنه هوى عليه فقتله ، وإذا ببطريق بجواره يقول له : ما عليك بأس ، فقد وقع السقف من يدك غصباً ، فانزل وارفعه ثانية ، فقال إبراهيم : لن أرفعه بعد

ذلك ، فنظر إليه البطريق نظرة فهم إبراهيم جميع ما ترمى إليه . وكان ما فهمه : « والاسم الأعظم إن لم ترفع السقف مرة ثانية سلخت جلدك وعلقته على قلعة حوران، فقد أخذت المال، وأردت قتلى بغير حق» فنزل إبراهيم ورفع السقف ووضعه مكانه فوق البناء، وكان هذا يجرى والبطارقة يعتقدون أن هذا عيسى البريجى، ثم أخذ إبراهيم وجعله مع الملك والوزير.

دخل جمال الدين على الملك ورجاله فى سجنهم . فسلم عليهم . وسألوه أن يطلق سراح حسن بن عجبور . فقال لهم : لن يكون ذلك حتى يدخل فى طاعتى . فقال الملك ذلك يسير علينا، فلأذهب إليه . وسأجعله يدخل فى طاعتك . فذهب إليه ووجده نحيلا ضعيفاً، وعرفه بنفسه ، وقص عليه كثيراً مما فعله جمال الدين . وطلب إليه أن يطيعه . فوجده مغلق القلب مصراً على إبائه وعصيانه . فخرج من عنده غاضباً يلعنه ويلعن أباه ، وكذلك كان شأنه مع الوزير وبقية الرجال ، حتى كرهوه وتمنوا له كل شر وبلية .

أما إبراهيم فإنه لم ييأس وقال لهم : اجعلوا لى قدراً من المال ، وأنا أجعله يطيع جمال الدين ، فجعلوا له ما طلب وأخذه منهم ، وقال : إن لم يطع جمال الدين فدمى حل لسيوفكم ، ثم سار إلى حسن ، وجرد « شاكريته » وهوى بها عليه ضرباً وهو يقول : لا رحمك الله ولا أسعدك ، كيف تعصى الملك وترده خائباً هو ورجاله ؟ ! ألست مثلنا ؟ ! والاسم الأعظم إن لم تطع جمال الدين هذه الساعة لأمزقن جسمك ، ولأعجلن

بقتلك قبل أن يقتلونى ، فماذا أنت قائل ؟ فخاف وقال : لم يبق لى جسم يطيع أحداً ، فقال : إن جمال الدين سيرد إليك ما فقدت من جسمك وعافيتك ، فقال : لقد أطعته ، والاسم الأعظم إنى لصادق فى طاعته ، فأعلن إبراهيم طاعته ، فأقبل إليه الملك ورجاله ، وجعل جمال الدين يقبله ، ويقول : إنك أعز الناس عندى ، ثم سقاه شيئاً من زجاجة معه ، فتقايأ ونظف جوفه ، وسقاه شيئاً آخر ودهن جسمه ، وأطعمه شيئاً كان معه ، ولفه فى ثيابه ، وقال : خلوه الآن على حالته .

كان جمال الدين قد جعل أساس البناية كلها من الطفل الأصفر، وجعل لهذا الأساس سرداباً نافذاً إلى النهر ، لأمر فى نفسه ، فلما انتهى من أمر حسن ذهب إلى النهر وأطلق مياهه فى السرداب فذهبت إلى الأساس وأذابته . وأصبحت البناية خاويه على عروشها ، ثم ذهب إلى ملك المدينة وجاء به إلى الملك الظاهر ، فقال له : ما تقول فى الخراج وهدم البناية ونفقات الحملة ؟ فقال : اكتبنى فى سجل ملكك ، أنى مطيع لك ، وحامل إليك الخراج كل عام ، ومعطيكم الآن خزانتين من المال نفقات للحملة التى معك ، وانتهى أمر هذه المدينة ، وذهب حسن إلى قلعته .

* * *

أما الملك الظاهر فإنه رجع حتى وصل إلى دمشق وهناك نزل عند أمه فاطمة الدمشقية ضيفاً ، ولبث فى ضيافتها سبعة أيام ، أبدت فيها رغبتها فى حج بيت الله الحرام ، ثم سار فى رجاله حتى دخلوا مصر ،

واستقبلهم الأهلون استقبالا كريمًا .

أما السيدة فاطمة فإنها ركبت سبيلها إلى بيت الله الحرام ، وجرت بها السفينة فى البحر أيامًا ، ثم أصابتها ريح فعطبت ، وأحاط بها جماعة من الصليبيين وأسروا جميع من فيها ،وكان هؤلاء الصليبيون يجوسون خلال البحر ليأسروا من فيه ويبيعوهم فى أسواق البلاد.

ذهب هؤلاء بالسيدة فاطمة إلى مدينة فى مقدونية ، ونزلوا بها فى سوق الدلالين ، وأعلنوا بيعها .

كان جوان قد انتهى به الجولان إلى مقدونية ، وجعل يغرى ملكها أن يسير فى جيش من رجاله إلى الملك الظاهر ويحاربه ، ولكنه كان يرد عليه إغراءه ويقول : ما كان لى أن أحارب ملكا لا يقهر ، ولقد هزم من قبل خمسة ملوك ودوخهم ، ولا أحب أن أكون سادسهم ، فإن أقمت يا جوان عندى ساكتاً ، غير مشير علىّ بحرب ولا غيره فمرحباً ، وإلا فارحل من بلدى إلى حيث تشاء ، فلست ممن يضلهم إغراؤك ، ويخدعهم قولك ، فسكت جوان وهو مغيظ محنق ، وقال لصاحبه سيف الروم : سر بنا إلى سوق المدينة ، لنفرج عن أنفسنا بعضاً مما أحاق بنا من ضجر وابتئاس . ثم قال وهما سائران : سوف ترى ما أفعله بهذا الملك .

وجد جوان فاطمة أم الملك تباع فعرفها واشتراها بعشرة دنانير فرحاً ورجع بها إلى الملك وقال له : خذ هذه فهى أم ملك المسلمين ، فاقتلها واجعلها طعاماً لحيتان البحر ، فقال : وكيف أنجو من ملك المسلمين

إن علم بأمرها ؟ فقال : إنى معك فلا تخف ، وما زال يغويه ويضله حتى أخذ ا وأمر أن تدخل قصره .

دخلت أم الملك القصر حزينة باكية على ما أصابها من الأسر والهوان فوجدت بنت الملك جالسة تشع جمالا ونضرة ، فلما رأتها البنت ألقى الله فى قلبها محبة السيدة فاطمة ، فنهضت إليها قائمة ، وسلمت عليها وقالت : لا تخافى يا أمى من أحد ، ولك الأمان من كل مكروه ، وأجلستها بجانبها ، فقالت لها فاطمة : أجيرينى يا بنيتى من جوان ، فقد أغرى أباك وأضله ، وحمله على أن يعقنى ويؤذينى وربما اشتط فى إساءته لى وقتلنى ، فقالت لها : لا تخافى أبداً ، فلن يصيبك أحد هنا بمكروه ، فاطمأنت وأخذت تتلو آيات من كتاب الله الكريم والبنت تصغى إليها . ولما حان وقت الظهر طلبت الماء فتوضأت وصلت .

عجبت نور المسيح ابنة الملك مما سمعت ورأت ، فسألتها عن حالها ، فقالت : أنا أم ملك المسلمين ، وإن نجانى الله من أبيك زوجتك من السعيد ابن الملك ، فهو أنضر منك جمالا ، وأحسن قواماً ، وذلك إن آمنت ودخلت فى دين الإسلام ، فشرح الله صدر البنت فأسلمت ، وأخذت أم الملك تعلمها الصلاة ، وتحفظها ما تيسر من كتاب الله الكريم .

ولما جاء الليل قال جوان لصاحبه سيف الروم : ادخل القصر وائتنى بأخبار فاطمة أم الملك ، فتلقته نور المسيح غاضبة ، ولطمته على وجهه لطمة قوية ، وسألته عما يريده ، فلم يحر جواباً ، ونزل خائباً مهاناً ، وقال

لجوان: ادخل أنت القصر، فإنى لم أستطع شيئاً، لأنى رأيت بعض الأهل عندها، فلما ذهب جوان قابلته نور المسيح فخلعت حذاءها وهوت به على رأسه ضرباً، فانسل من أمامها خزيان خائباً. وذهب إليها أبوها فطردته وقالت: لا يأتينا هنا أحد، وكل من أتانى صببت عليه العذاب الأوجع.

دبر جوان مكيدة أخرى، فأحضر الملك مقدمين، وابنه عبد الصليب وهو شقيق نور المسيح، وقال لأبيه أرسل ابنك عبد الصليب إلى مصر بتجارة. فإنى علمته ما يفعله بملك المسلمين ليقتله، فصدع الملك بأمره، وبعث ابنه فى تجارة إلى مصر.

نزل عبد الصليب ومعه تجارته فى خان بمصر، ولما استقر أمره ذهب إلى الملك الظاهر بيبرس بهدية وقال: هذه هدية على قدرى، رغبت فى قبولها منى على ضعفى، وإنى تاجر أحببت المقام فى بلدك، وأخشى أن أهان وأضطهد، فقال الملك: أقم فى بلدى ما شئت فإنك آمن، فنهض إبراهيم قائلا: لا تقبل هذا الرجل فإنه دسيسة، فقال الملك: لك يا إبراهيم ما أحضره من الهدية، فقال إبراهيم: قبلتها شاكراً، ولكن الرجل دسيسة، وكذلك فعل عبد الصليب ما فعله سبعة أيام متوالية. وفى المرة السابعة قال عبد الصليب: رأيت أيها الملك فى منامى ليلة أمس أن الملك الصالح نجم الدين جاءنى، وبشرنى بأنى من الفئة الناجية، وأمرنى أن أسلم على يديك، ولهذا جئتك، وأقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فصاح إبراهيم قائلا: إنه دسيسة... فقال الملك:

لا شأن لك به ، فقال إبراهيم : اكتب لى أنى نصحت لك فلم تقبل نصحى ، فكتب له بما أراد . ثم قال الملك لعبد الصليب : اطلب ما شئت فإنى مستجيب لك ، فقال : لا أطلب إلا أن أكون موطن سرك بدار ملكك ، فقال : لك ما طلبت . وكان كل أولئك من تدبير جوان .

سمعت أم الملك بمسير عبد الصليب إلى مصر ، فأمرت نور المسيح أن تعرف خبره ، والغرض من سفره ، فسألت أباها عن ذلك فقال : أرسله جوان متنكراً فى هيئة تاجر ، وأعطاه سمًّا يقتل به الملك الظاهر وأخبرت نور المسيح أم الملك بما سمعت من أبيها ، فقالت : إذا كان الأمر كما قال أبوك فكيف تتزوجين من محمد السعيد ابن الملك؟ فقالت : وماذا نصنع يا أمى ؟ فقالت : هل عندكم أحد من أسرى المسلمين ؟ فقالت : نعم . عندنا منهم كثير ، فقالت : هاتى لى واحداً منهم ، فأحضرت إليها أحدهم وهو على الإنكارى ، فقالت له : سأكتب كتاباً وسترحل به إلى مصر وتعطيه إلى الملك ، ثم تأخذ منه المنحة التى يهبها لك ، فقال : سمعاً وطاعة ، فقالت : وسأكتب الكتاب على رأسك بعد حلقه ، حتى لا يعرفه أحد ، ولا تمتد إليه يد بسوء ، فقال : سمعاً وطاعة ، فنهضت أم الملك وحلقت رأسه وكتبت إلى الملك الكتاب ، وأعطته شيئاً من الزاد ونفقات السفر ، ثم أمرته بالرحيل ، فتوكل على الله وسافر إلى مصر .

وذات يوم جاء عز الدين الحلبى إلى الملك فى ديوانه ، ودعاه هو وأكابر جنده وعلمائه إلى وليمة أقامها فى بلاق بقصره ، فأجابه الملك

إلى ما رغب فيه . وذهب هو ورجاله إليه ، وجلسوا فى مكانهم وصفت الموائد أمامهم ، فجعل إبراهيم بن حسن يمشى وينظر فى أصناف الطعام ويقول : هذا الطعام سليم ، وهذا سليم . . . إلى أن وقف أمام مائدة الملك فقال : أين الأمير عز الدين الحلبى ، فلما جاءه قال له : بدل بهذا الطعام غيره ، فإن الريح أثارت الغبار وامتزج به ، ولا ينبغى أن يطعمه الملك وهو ملوث بالتراب ، فقال عز الدين : إن الطعام نظيف ، وسآكل منه قبل أن يأكل الملك منه ، فقال إبراهيم : إنك مغرور مخدوع ، فلا تأكل من هذا الطعام شيئاً وبدل به غيره ، فقال عز الدين ما دام الطعام سليماً فلن أغيره ، فقال إبراهيم : إن الطعام به سم ، فامتنع الملك ورجاله عن الأكل ، وأخذ بعضاً منه على طرف خنجره ورماه إلى كلب باسط ذراعيه على مقربة منه فأكله الكلب ومات لساعته ، ففزع الملك إلى علماء الإسلام وقال لهم : ما جزاء عز الدين الحلبى ؟ فقالوا : جزاؤه القتل ، فقال الملك : يا إبراهيم خذه واضرب عنقه ، فقال إبراهيم : إن عز الدين مظلوم ، ولا علم له بما وضع فى طعامك من السم ، ولا ذنب له ، فقال الملك : وأى ذنب بعد ذلك؟ ! فقال : إنى نصحت لك ، وأرشدتك إلى الحق ، وأنت وشأنك ، واستعد إبراهيم لتنفيذ أمر الإعدام ، ولكن علياً الإنكارى أقبل إذ ذاك وقال : إنى قادم إلى الملك من عند أمه ، فقال : وماذا عندك من الأخبار يا على ؟ فقال : أريد أن يقص شعر رأسى ، فقال الحاضرون : ما أقل أدبك؟ ولكن بيبرس أمر بعدة القص ، وأجلسه

بين يديه ، وبدأ يقص رأسه ، فلما قص جزءاً منه ظهر له سطر مكتوب فقرأه وكان : إلى ولدى ملك الإسلام ، وقعت فى الأسر ، بمقدونية، وذلك بتدبير من جوان الذى أراد أن يمسنى بسوء ، فحمانى ربى على يد نور المسيح بنت مقدمين ،وقد أسلمت ووعدتها أن أزوجها من السعيد ابنكم، ثم حلق جزءاً آخر فبان فيه : إن الملعون جوان أرسل إليك عبد الصليب بن مقدمين بسبع هدايا وسم سريع أثره ، ووصاه أن يظهر لك بأنه مسلم ، ويطلب منك أن يكون سراً لدار الملك ، ليتمكن من وضع السم فى طعامك فاحذره ، واحرص على نفسك ، واقتله شر قتلة ، ثم ائتنى فى مقدونية، لتخلصنى من أسرى ، وأنعم على رسولى على الإنكارى ، والسلام.

فقال الملك : يا على : كفانى ما حلقته ، فقال على: وهل يصح يا « أسطى » أن تحلق بعض رأسى وتترك الباقى ؟ فضحك الملك وضحك الحاضرون ، ثم أنعم عليه وانصرف .

جلس الملك وقال : يا إبراهيم ، أطلق سراح عز الدين الحلبى ، فأطلقه ، واعتذر الملك إليه ، وأنعم عليه ، وكان عجب الحاضرين عظيماً ثم أسر إلى إبراهيم أن يأتيه بعبد الصليب بن مقدمين ، فجذبه إبراهيم من مكانه بقوة وأحضره . فسأله الملك عن حاله ، والغضب باد على وجهه وأدرك أن أمره قد ظهر فقال : أنا عبد الصليب بن مقدمين ، وما فعلته عن أمرى ، ولكن أمر جوان وتدبيره ، فقال الملك : يا إبراهيم ، اقطع عنقه ، ولك جميع أمواله هبة منى لك . فنفذ إبراهيم فيه أمره .

٦

أناب الملك ابنه السعيد فى شئون ملكه ، وقال لوزيره : إنى ذاهب أنا وإبراهيم إلى بعض الأعمال ، فقال الوزير : أما أخذت معك بعض الجنود ؟ فقال : لا داعى إلى أحد منهم ، وسيكون معى عثمان وإبراهيم. وجعلوا يسيرون حتى كانوا فى بيسان والتقوا هناك بسعد بن دبل ، فانضم إليهم ، وقد استطاع الملك بمعونة من معه أن يخلص والدته .

وذات ليلة كان بيبرس نائماً فى بيته ، وإبراهيم وسعد بن خالته واقفان أمام بابه يحرسان ، فسمعاه يصيح قائلا : يا عزيز يا قوى أدركنى يا رسول الله : فقال إبراهيم : إن عدواً دخل على الملك فأفزعه ! فقال سعد : ما رأينا أحداً ، ولا يزال الباب عليه مغلقاً ، وما برحنا هذا المكان ، فقال إبراهيم : انتظر حتى أتبين الأمر ، ودخل على الملك فوجده غارقاً فى نومه ، وكأنه فى بحر لجى من العرق ، فوضع يده على جبينه ، فاستيقظ قائلا : أشهد أن لا إله إلا الله ، فقال له إبراهيم : ماذا جرى يا ملك ؟ فقال : رأيت مناماً أفزعنى وأريد منك أن تأتينى بمن يؤوله لى ، فانطلق إبراهيم وسعد إلى المدينة وأسواقها يبحثان وينقبان .

وكان فى المدينة رجل صالح تقى يدعى محمد النساج ؛ وكان جالساً فى بيته يكركر بنرجيلته ، فدلهما عليه حاسدوه الذين يبغضونه ويحقدونه

عليه ليكيدوا له .

فدخل إبراهيم عليه وقال : أأنت الشيخ محمد؟ قال : نعم . فقال : قم معى إلى الملك بيبرس ، فإنه رأى فى منامه رؤيا ، ويريد تأويلها ، فقال : ما أنا ابن سيرين ! فقال إبراهيم: لاتجادل فيما أدعوك إليه ، وإن لم تقم معى قتلتك ! فخاف الشيخ وركب بغلته ، وسار معه حتى مر بمسجد فى طريقه ، فقال : أنظرنى حتى أدخل المسجد وأصلى ركعتين لله رب العالمين ! فقال إبراهيم لسعد : ادخل المسجد وابحث عن باب آخر فإنى أخشى أن يهرب ! فدخل سعد ، وفحص المسجد ثم رجع وقال : ليس له باب إلا هذا ، فأذن له إبراهيم بالدخول وجلس هو وسعد ينتظرانه .

دخل الشيخ محمد ، وما لبث قليلا حتى أقبل عليه جمال الدين شيحة ، وكان قد جاء لصلاة الضحى ، فسأله عن حاله ، فحكى قصته ، ثم قال : وإنى لا أعرف شيئاً فى تأويل الأحلام ، وأخشى أن ينالنى مكروه فقال : اخرج من المسجد إلى إبراهيم وسعد ، وكن غليظاً فى قولك ، عظيماً فى موقفك ، وقل لهم : لقد أتيت بصبيي ، ثم اركب البغل وامض إلى الديوان ، واجلس بجوار الملك ، وإذا قص عليك رؤياه فقل : والاسم الأعظم لايقوم بتأويل رؤياك إلا خادمى ، ثم أرسل فى طلبي ، وستجدنى حاضراً بين يديك وحينئذ أقوم بتأويل الرؤيا ، فقال : ما اسمك ؟ فقال : اسمى شعبان ، فقال : أخشى ألا تحضر ، فقال :

لا تخف فإنى حاضر عند طلبك، فاطمأن الشيخ محمد وأخرج مسبحته من جيبه، وأقبل إلى إبراهيم وسعد، فى كبرياء وقوة ، فصاح فيهما وقال : أستطيع الآن أن آتيكما بمارد من الجان يهلككما ويطوى حياتكما ، ثم صاح : يا شعبان ، فقال جمال الدين : نعم ، يا سيدى ، هأنذا بين يديك ، فقال : هات البغل ، فقدمه إليه وركبه ، وخاف إذ ذاك إبراهيم وقال لسعد : لقد دخل الرجل المسجد وليس معه أحد ، ثم خرج منه ومعه هذا الغلام ، ولا بد أن يكون هذا عفريتاً من الجن ، فقال سعد : أمرنا إلى الله يا إبراهيم ، ثم سار الشيخ محمد وهم من خلفه حتى كانوا أمام الديوان ، ثم دخلوا ، فقال إبراهيم: لقد أتينا بمن يؤول الرؤيا وهو ذلك الشيخ ، فقال الملك : أأنت يا رجل الذى جاء ليؤول الرؤيا ؟ فقال : نعم ، اقصص رؤياك علىّ ، فقال الملك : رأيت يا سيدى فى منامى ما أفزعنى ، فقال : اقصص رؤياك، فقال : نسيتها، فقال الشيخ محمد كنت أظن أنى جئت لأمر جسيم ، ولكن والاسم الأعظم لا يؤول هذه الرؤيا إلا خادمى ، فقال الملك : هاتوا خادم الشيخ فخرجوا وبحثوا عنه فلم يجدوه، فرجعوا وقالوا : أيها الشيخ، بحثنا عن خادمك فلم نجد له أثراً . البركة كلها فيك ، فقال : لقد حلفت ألا يؤول الرؤيا إلا خادمى فقال الملك: كفر عن يمينك وأول الرؤيا ، فقال : لن يكون ذلك أبداً ، فقال الملك : لقد بحثنا عنه فلم نجده فما رأيك ؟ فوقع الشيخ فى حيرة وساد المجلس وجوم وسكون ، وفى هذه الفترة حضر جمال الدين ومعه

جماعة من رجاله فى أجمل ثياب وزينة ، فلما رآه الملك تقدم إليه وأحسن استقباله وأجلسه بجواره .

وبعد أن استقر به الجلوس قال : إنى أرى كأن هذا الشيخ له قضية عندك ، فقال : نعم يا جمال الدين ، ثم حكى له قصته ، فضحك جمال الدين وقال : والاسم الأعظم ما كان صبى هذا الشيخ وخادمه إلا أنا ، ثم قص عليه قصة الرجل من أولها إلى آخرها ، فأكرم هذا الرجل وأنعم عليه ، واتركه ليمضى إلى شأنه ، لأنه لا يعلم من أمر التأويل ولا غيره شيئاً ، فأكرمه بيبرس وأنعم عليه ، وأطلق سبيله . ثم التفت جمال الدين إلى بيبرس وقال : إنى أعلم هذه الرؤيا وأعلم تأويلها فاستمع لما أقول :

رأيت فى منامك أنك فى واد قفر ، وقد امتلأ بطوائف الخنازير ، ثم طلع عليها من ناحية مصر أربعة أسود كواسر ، فغرق فى البحر أحدها ، واختفى الثانى كأنه لم يكن ، وداست الخنازير الثالث بأرجلها ، وأكلت الرابع ، ثم غرقت أنت فى لجة من العرق وانتبهت ، فقال بيبرس : هذه رؤياى لم ينقص منها شىء وما تأويلها ؟ فقال : يموت من أعيان رجالك أربعة فى غزو الكفار ، فقال بيبرس : لا حول ولا قوة إلا بالله ! وما العمل ؟ فقال : إذا أردت أن تنجو من هذه الرؤيا فلا تكتب إلى الكفار ، ولا تقبل منهم كتاباً ولا هدية مدة سبعة أشهر وسبعة أيام فإذا انتهت هذه المدة فات أوان الرؤيا ، وأصبحت لا أثر لها ، ثم أقام جمال الدين قليلا ، وودع الملك وذهب إلى حيث شاء .

٧

وذات يوم جاء بيبرس فى ديوانه رسول من إسكندرية ، ومعه كتاب فناوله إياه ، ففضه وقرأ فيه : من صاحب إسكندرية إلى الملك الظاهر بغتنا فلك أجنبي ، فسلطنا عليه المدافع ، فرفع من فيه راية السلام ، وأرسلنا إليه من يعرف لنا خبره ، فوجد فيه وزيرين للملك رومان ، أحدهما اسمه مخبتون ، والثانى اسمه مارين ، وهما مقبلان من رومة ومعهما هدية من مال وغيره ، وكتاب إليك من ملكهما ، فإن أردتِ حضورهما يسرنا لهما سبيله ، وإن أردت إبعادهما وطردهما طردناهما فأرسل إلينا كتاباً تبين رأيك فيهما والسلام .

فالتفت الملك إلى وزيره وسأله : هل رومان هذا من أتباعنا والخاضعين لنا ؟ فقال : لا ، فقال : اكتب إليه بالحضور لدينا لنعرف ما يريده ويبغيه ، وأمر قلاوون أن يأخذ معه خمسة وثلاثين أميراً ، ويوزعهم على شاطئ النيل الغربى من بلاق إلى إسكندرية ، وأمر أيدمر أن يأخذ خمسة وثلاثين أميراً ويوزعهم على الشاطئ الشرقى من بلاق إلى إسكندرية فإذا مر الوزيران بيتهما كل أمير عنده ليلة ، حتى لا يصلا إلى بلاق إلا بعد سبعين يوماً ، فصدعا بأمره ، وكان الوزيران كلما وصلا إلى أمير حجزهما عنده ليلة ، وسارت الأمور تجرى فى سبلها وقد نسى الملك

الرؤيا وتأويلها في سبيل الخلاص من شرها وما وصاه به جمال الدين شيحة .

ووصل الوزيران إلى بلاق بعد سبعين يومًا، وبلغ الملك نبأ قدومهما فأمر الملك أن يحصن سكان مصر أماكنهم بالسلاح ، وأرسل إلى القادمين أربعة من عنده فأحضروهما بين يديه ، فسألهما : من أنتما ؟ ومن أين أتيتما؟ وإلى أين تريدان؟ فقالا: نحن وزيرا الملك رومان، جئناك من عنده بهدية وخزانة مال وكتاب، فقال: هاتا الكتاب فناولاه إياه وقرأ فيه:

من الملك رومان إلى ملك المسلمين، اعلم أنى لست من أتباعك ، وقد حضر لدى نساء الملوك الذين هم أسرى عندك ، شاكيات ما أصاب بلاد أزواجهن الملوك من الخراب ، وقد رأيت أن أكون من أتباعك الخاضعين لك ، وأعطيك كل عام الجزية التي تفرضها ، وأشترى منك كل ملك من هؤلاء الملوك الأسرى بخزانة من مال . ولمن يحضرهم إلى من عندك خزانة من المال أجرة الطريق ، وله عندى الأمان ، هذا ولا أظنك إلا راضياً ، فإن عمارة الأرض خير من خرابها والسلام .

فقال الملك : ما رأيك فى هذا الكتاب أيها الوزير ؟ فقال : شعرة من الخنزير خير منه ، فقال : ومن الذى يسافر بالملوك ، ويأخذ أجرته خزانة من المال ، فقال إبراهيم : أنا أسافر ، على شرط أن يكون معى ثلاثة رجال ، فقال الملك : ومن هم يا إبراهيم ؟ فقال : سعد بن دبل ،

وأيدمر البهلوان وأبو بكر البطرنى ، فقال: لنسألهم فإن رضوا صحبوك فى سفرك ، وإلا سافرت أنت وحدك ، فقال : اسألهم لنعرف رأيهم ، فسألهم الملك ، وأشار إليهم وهو يسألهم إشارة معناها: لا تسافروا واتركوا إبراهيم وحده ، وفهموا إشارته وقالوا : لا نسافر أبداً أيها الملك . فقال : ما رضوا بالسفر يا إبراهيم فماذا ترى؟ فقال : ما ضرنى شىء ، والله يقلب الليل والنهار ، وغداً أجيبك بما يستقر عليه رأيى ، وأمر الملك أن يأخذ وزيره شاهين الوزير مارين يبيت عنده ، وأمر علاء الدين أن يأخذ الوزير مخبتون يبيت عنده ، وانفض المجلس وقام إلى وجهته .

أعد الوزير شاهين حجرة خاصة وأدخل فيها الوزير مارين، وأغلق عليه بابها،وكان لها شباك صغير فى أعلاها يبين للناظر منه جميع ما فيها، فلما كان الليل لزم شاهين هذا الشباك ليقف على حال الوزير ، ويرى ما يفعله فى ليلته ، فرأى مارين قد خلع ملابسه الخارجية ، وأخرج من جيبه مصحفاً وجعل يتلو من كتاب الله ما تيسر ، ثم توضأ من إبريق كان فى حجرته واستقبل القبلة ، وقضى ما عليه من الصلاة ، ثم رجع إلى تلاوة القرآن ، ثم صلى على النبى ودعا للإسلام بالنصر والتأييد ، فقال الوزير شاهين فى نفسه : لا بد من الدخول على مارين لأتأكد من صدق ما رأيت منه ، فربما كان منه نفاقاً وخديعة . فلما دخل عليه سلم وقال: أأنت تستهزئ بالإسلام أم أنت مؤمن حقًّا ؟ فقال : كنت على دين النصارى فرأيت فى منامى كأنى فى يوم القيامة ، وقد اشتد العطش



(صورة ٣)

الملك الظاهر فى ديوانه وعن يمينه العلماء وعن يساره الوزراء ويتقدم إليه وزيرا الملك رومان

بالناس . فذهبوا إلى حوض كبير عليه سيد الخلق فسقاهم ، وأذهب عطشهم وذهبت ليسقيني فأبى وقال : لا تسقى من هذا الحوض حتى تتبع سبيل الحق ، وتدخل فى دين الإسلام ، فآمنت بالله ورسوله فى الحال ، وشربت من يده الكريمة شربة هنيئة ، ثم انتبهت من نومى ، وقلبي مملوء بنور الإيمان ، ودخلت على أهلى وأولادى فوجدتهم قد آمنوا فكتمنا هذا الأمر ، ولم نطلع عليه أحداً ، ولنا على هذه الحال خمس سنوات ، ففرح شاهين وقبل رأسه . ثم سأله : ولم لم تسكن فى بلاد الإسلام ؟ فقال : إن لى فى بلاد الكفار مصالح ومنافع ، وإن إقامتى فيها تنفع كثيراً من المسلمين . فكم فككت أسيراً ، وكم أطعمت جائعاً ، وكم أزلت مكروهاً . فأنا عون للإسلام هناك ، والله تعالى أعلم بالقلوب وما تخفيه . فقال شاهين : سأبين للملك أمرك ، ولا أدع سرك بينك وبين نفسك ، فقال : شأنك وما تريد ، فأخذ مارين فى يده وذهبا وطرق شاهين الباب فقيل : من بباب الملك؟ فقال : أنا شاهين وأريد الملك فى هذه الساعة ، فاستأذنوا الملك فأذن لهما بالدخول.

دخل شاهين ومارين على الملك فقال : ماذا جرى يا شاهين ؟ فقص عليه قصة مارين . فكان سروره بمارين عظيماً ، وقال له : أنت يا مارين تحافظ على من أرسله إلى رومة من رسلى ، فقال: سمعاً وطاعة ، ورجع شاهين ومارين إلى مكانهما .

وفى الصباح دخل إبراهيم على الملك فى مجلس ديوانه فقال : أريد

السفر إلى رومة ، ومعى من اخترتهم بالأمس. فقال الملك : لقد عرضت عليهم أمر السفر معك فأبوا وأعرضوا ، فقال إبراهيم : سلهم الآن ، فقال يا سعد ، أتسافر مع إبراهيم إلى رومة ؟ فقال : إنى أيها الملك قد نشأت معه ، وصحبته فى الحل والترحال ، ولا أحب أن أفارق ابن خالتى . فقال إبراهيم : هذا واحد ، فاسأل الثانى . فقال الملك : يا أيدمر ، أتسافر مع إبراهيم ؟ فقال : أنا مع إبراهيم أقام أم ارتحل، فقال إبراهيم وهذا الثانى ، فاسأل الثالث ، فقال : وأنت يا أبا بكر . أتسافر مع إبراهيم ؟ فقال : لا مانع لدى . وقد توكلنا على الله، فعجب الملك وقال فى نفسه : كيف يأبون السفر بالأمس ، ويرضون به اليوم ؟ ! ! وكيف عصوا إشارته اليوم بعد أن أطاعوها أمس ، فماذا بدل رأيهم ؟ وهاك السبب :

انفض مجلس الملك الذى رغب فيه الثلاثة عن السفر مع إبراهيم ابن حسن ، فلما جاء الليل قال إبراهيم لسعد : احترس حتى أذهب إلى حجرة الحورانية ثم أرجع إليك ، فقال : اذهب ولا تخف ، فدخل بيت أيدمر ووجده نائماً ، فأيقظه وقال له : إن الفراق أليم ، وما أنا إلا عبد أمرت فأطعت ، فقم وصل ركعتين لربك ، فقد أمرنى الملك بقطع رأسك الساعة وحمله إليه ليتأكد من موتك ، ففزع أيدمر وقال : لا حول ولا قوة إلا الله ، وما ذنبى حتى يأمرك بقطع رأسى ؟ فقال : لأنك عصيته ، وخالفت أمره . وأبيت أن تسافر معى إلى رومة ، فقال : إنه

أشار إلى أن أعرض وأعصى ، ولولا إشارته ما عصيت ولا امتنعت ، فقال : ما أشار الملك إليك إلا ليختبرك ، ويعرف مبلغ حرصك على الجهاد ، فقال : يا إبراهيم ، والاسم الأعظم إن سألنى ثانية ما امتنعت ولا أبيت ، وإن أشار إلى وضربنى ، ولا بد أن أسافر معك ، فقال إبراهيم : وماذا أقول للملك وقد أمرنى بقتلك ؟ فقال: اشفع لى عنده ، وخذ منى هذين العقدين ، فإن ثمنهما ألف دينار ، فقال : هاتهما من يد لا نعدمها، ويفعل الله ما يشاء ، وسأشفع لك عنده، ولكن إن كشفت ما حصل الآن بينى وبينك ، قطعت رأسك وإن كنت واقفاً أمام الملك ، فقال : ذلك سر بينى وبينك ، ولن يطلع عليه أحد ، ثم تركه وانصرف إلى أبى بكر البطرنى ، وإلى سعد ، وفعل بهما ما فعله بأيدمر ، وكان هذا سبباً فى أن بدلوا رأيهم حين سألهم الملك مرة ثانية .

أخرج الملك من خزانته أربعة صناديق وقد كتب على كل منها اسم صاحبه ، وأمر إبراهيم وأصحابه ألا يفتحوها إلا فى ديوان رومان وأخذ كل واحد من الأربعة معه ألف بطل ، وركبوا الفلك ، وجرى بهم فى نهر النيل حتى كانوا فى مدينة الإسكندرية ، وبعد أن ابتعدوا عن القاهرة تذكر الملك الرؤيا ووصية جمال الدين شيحة ، والموعد الذى ضربه ، ووجد أن المدة التى عينها جمال الدين ومنعه فيها من الاتصال بالكفار لا تزال باقية ، وما مضى منها إلا قليل ، فركب فلكاً وسار فى أثرهم حتى كان على مقربة منهم ، وكان متنكراً فى شكل درويش أعجمى

ونادى قائد الفلك أن ارجع ، فعرفه إبراهيم وقال للقائد : إن رجعت قطعت رأسك ، وألقيتك فى النيل ، فأسرع بالفلك حتى لا يدركنا هذا الذى يناديك ويأمرك بالرجوع ، وقال إبراهيم لبيبرس : ارجع أنت أيها الملك ، فإن عشنا جمع الله شملنا ، وإن متنا فالقيامة تجمعنا ، فرجع الملك وهو حزين .

ولما نزل إبراهيم ومن معه فى الإسكندرية قال لأبى بكر : انتظرنى هنا حتى أعود إليك ، ثم أخذ معه سعداً وذهب إلى قلعة الحورانية ، فتلقاهما حسن الحورانى وفرح بلقاء ابنه إبراهيم وقال له : إلى أين يا ولدى؟ فقال : إلى رومة، فقال : إن الطريق إليها مخيف ، وقلما ينجو سالكها، فلا تسافر إليها يا ولدى ، فإنى أخشى عليك العطب والهلاك ، فقال : لا ينبغى لإبراهيم ابنك أن يقول : لا . بعد أن قال : نعم . ثم بات عند أبيه تلك الليلة ، وفى أثنائها صاح أبوه قائلا : يا عزيز ، يا قوى ، فقال : إبراهيم : ماذا جرى يا أبى ؟فقال : رأيت فى المنام شجرة تظل قلعة حوران ، وقنديلا مضيئاً أمام بابها ، فهبت ريح عاصفة ، قصفت الشجرة ، وأطفأت القنديل ، وأنت يا ولدى شجرتنا وقنديلنا، فارجع يا ولدى ولا تسافر إلى رومة ، فقال : يا أبى إن ابن يومين لا يعيش الثالث ، والآجال مقدورة ، وما مات إنسان إلا بإذن ربه ، وكان سعد قد ترك إبراهيم ومضى إلى قلعة بيسان ليسلم على والده ، فحصل له فيها ما حصل لإبراهيم ، ورجع إبراهيم إلى الإسكندرية ، ولكن لقيه فى

طريقه أولاد إسماعيل داود وشاهين فأمسكاه وأخذاه ضيفاً عندهما غصباً

وفى الليل أخذ إبراهيم الشمعة فى يده وذهب بها إلى المرحاض ليقضى حاجة له ، ويزيل ما به من ضرورة . فانطفأت الشمعة ، ورأى ضوءاً ينبعث من مكان فى ظلام هذا الليل . فذهب إليه فوجد سريراً من خشب هندى مرصع بالذهب ، ومن فوقه بنت رائعة فى جمالها وحسنها وكمالها ، وهى نائمة ، فأغرم بها ، وشغفته حباً ، ورجع إلى داود وشاهين فألفاهما فى انتظاره . وأدركا أنه مضطرب الأعصاب قلقاً . فسألاه عن حاله ، فقال : رأيت بنتاً فى المكان الفلانى ، وقد ملكت علىّ فؤادى ، ولا أدرى أهى ذات بعل أم ذات خدر . فقالا : إنها أختنا وهى ذات خدر . فقال : جئتكما خاطباً أختكما هذه لنفسى ، فقالا : على الرحب والسعة . فقال : خذا هذين العقدين . مهراً لها . وثمنهما أربعة آلاف دينار ، وخذا هذا « اللشتوان » ومعه مائة ألف دينار ، وقال : هذه نفقتها ، ونقرأ فاتحة الكتاب على أن تكون زوجتى ، ثم نرجئ إبرام العقد بعد رجوعى إليكما سالماً ، وإن رجعت سالماً إليكما فلكما مهر جديد غير ما أخذتما . وكانت هذه الأموال التى أخذتماها للنفقة فحسب . فقرئت الفاتحة ، وأخبرا أختهما بما فعلا . ففرحت فرحاً عظيماً بإبراهيم زوجها ، وأسلمت أمرها إلى أخويها .

رقم الإيداع	١٩٨٦ / ٤٦٥٧
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧-٠٢-١٧٤٨-٤

١ / ٨٦ / ١١٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)